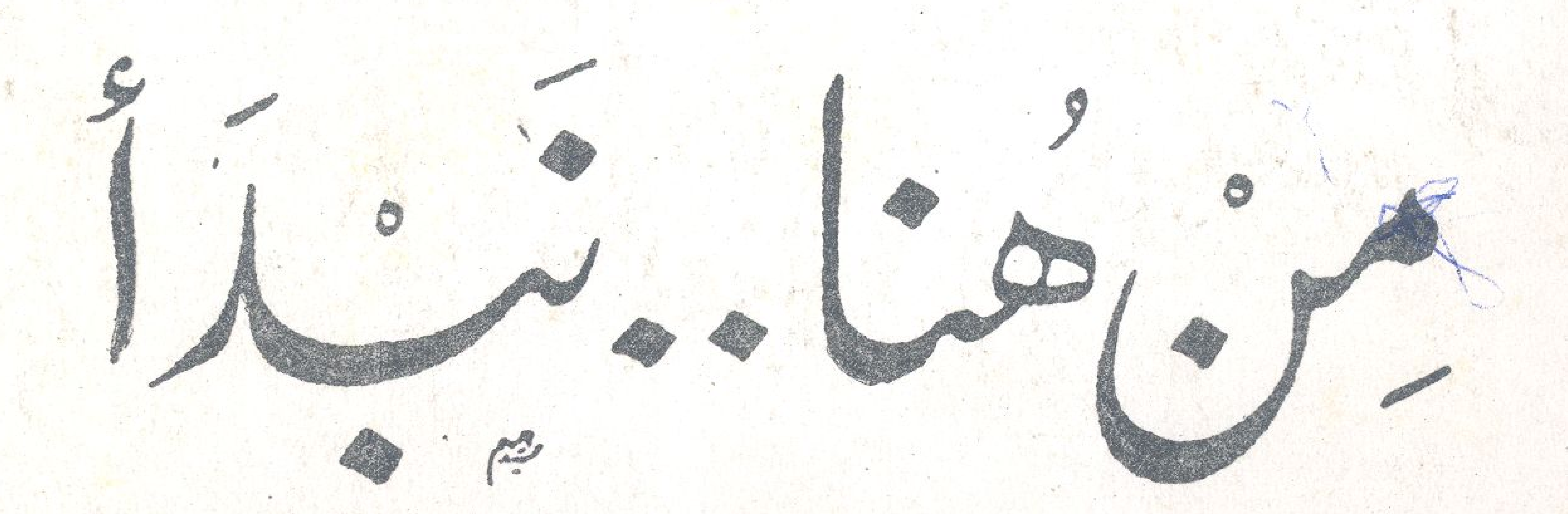
خالد محمد خالد



الطبعة العاشرة





خالد محمد خالد

مِنْ هُنا.. نَبْدَأ

الطبعة العاشرة



دار ثابت
THABIT PUBLISHING COMPANY



بسم الله الرحمن الرحيم


THABIT PUBLISHING COMPANY
دار ثابت

٩٢ أ شارع محمد فريد ص . ب . ٦ باب اللوق تليفون : ٣٩٢٩٥٧٤ القاهرة

92 (A) Muhammad Farid St. Cairo. P.O. Box 6 Bab el-Luk. Cairo Tel. 3929574

— ١ —

فى عـــام ١٩٥٠م ظهـــر اول كتـــاب لى ، وكان عنـــوانه : « من هنا . . نبـــدأ » .

وكان ينتظم اربـعة فصول ، كان ثالثها بعنوان : «قومية الحكم»

وفى هذا الفصل ذهبت اقرر ان الاســـلام دين لا دولة ، وانه ليس فى حاجة الى ان يكون دولة . . وان الدين علامات تضـيء لنـــا الطريق الى الله وليس قـــوة سياسـية تتحكم فى النـاس ، وتأخـــذهم بالقوة الى سـواء السـبيل . ما على الدين الا البلاغ وليس من حقه ان يقود بالعصا من يريد لهم الهدي وحسن ثواب .

وقلت : ان الدين حين يتحـــول الى « حكومة » ، فان هـــذه الحكومة الدينية تتحول الى عبء لا يطـــاق . وذهبت اعدد يومئـــذ ما اسميته : « غرائز الحـــكومة الدينية » وزعمت لنفسى القدرة على اقامة البراهين على انها أعني الحكومة الدينيه فى تسع وتســـعين فى المائة من حالاتها جحيم وفوضى ، وانها احدى المؤسسات التاريخية التى استنفدت أغراضها ولم يعد لها فى التاريخ الحديث دور تؤديه .

وكان خطئى أننى عممت الحديث حتى شمل الحكومة الاسلامية .

وقلت : ان غرائز الحكومة الدينية تجعلها بعيدة من الدين كل البعد ، ولخصت هذه الغرائز فى :

(أ) الغموض المطلق ، اذ هى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة ، لا يعرف مأتاها ، ولا يدرك مداها ، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على الطاعة العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق . .

(٢) ومن خصائصها — كما قلت يومذاك — انها لا تثق بالذكاء الانسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لانها تخافه وتخشاه .

(٣) وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها تهيب بجانب الضعف فيهم . فتلقى فى روعهم ان رواد الخير والحرية والفكر والاصلاح ليسوا سوى اعداء لله ولرسوله يحاولون نفى الدين عن المجتمع بنفى السلطة التى تمثله وتصونه .

(٤) والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية ، وهى لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه . بل ولا مجرد لفت النظر فضلا عن المعارضة والنقد .

(٥) والوحدانية المطلقة اعتى غرائزها — وهى تحفزها الى مكافحة الرأى مهما يكن حكيما ، وقتل المعارضة مهما تكن مخلصة ناقمة .

(٦) والجمود الذى تتسم به يجعلها تضيق بكل جديد لان صورة الدين فى ذهنها مرتبطة بكل ما هو جامد وقديم .

(٧) والقسوة المتوحشة هي سيدة غرائزها واكثرها عتوا ونفوذا وانها لتحز عنقك وتهرق دمك وهى تصبح من فرط نشوتها : واها لريح الجنة ..

* * *

هكذا ذهبت انمت واهدم ما اسميته يوما بالحكومة الدينية .!

وهكذا اخذت كل خصائص ونقائص الحكم الاتقراطى الديكتاتورى وخلعته على ما اسميته « الحكومة الدينية » .. !!

ولم اكن يومئذ اخدع نفسي ولا ازيف اقتناعى ، فليس ذلك والحمد لله من طبيعتى . انما كنت مقتنعا بما اكتب مؤمنا بصوابه .

وحين أرجع بذاكرتى الى الايام التى سطرت فيها هذا الراى وهذه الكلمات لا اخطىء التعرف الى العوامل التى تغشتنى بهذا التفكير .. والكاتب حين يحيا بفكر مفتوح بعيدا عن ظلام التعصب وغواشى العناد ، فانه يستطيع دائما او غالبا ان يهتدى الى الصواب ويقترب من الحقيقة ويعانقها فى يقين جديد ، وحبور اكيد ، ونحن مطالبون بأن نفكر دائما ، ونراجع افكارنا ، وننكر ذواتنا ونتخلى عن كبريائنا امام الحقائق الوافدة .. واذا لم نفعل فسنكون كما قال « افلاطون » :

« مجانين ، اذا لم نستطع ان نفكر .. » !!

« ومتعصبون ، اذا لم نرد ان نفكر .. » !!

« وعبيد اذا لم نجرؤ ان نفكر .. » !!

* * *

واحمد الله على اننى لست من المجانين ، ولا المتعصبين ، ولا العبيد .. ومن اجل هذا كان من اليسير على ان استقبل فى بشر ومودة هـذا التفكير الجديد الذى واتانى من طـول التامل والتمعن وتقليب وجوه النظر فى حياد سديد .

ترى ماذا كانت المقدمات التى اوصلتنى الى موقفى القديم من « الحكومة الدينية » ، او بتعبير اصح ماذا كانت البواعث النفسية والفكرية التى افضت بى الى ذلك الموقف .. ؟؟

واود ـ اولا ـ ان اشير الى ان تسمية « الحكومة الاسلامية» بالحكومة الدينية فيه تجن وخطأ . فعبارة « الحكومة الدينية » لهـا مدلول تاريخى يتمثل فى كيان كهنوتى قام فعلا ، وطال مكثه . وكان الدين المسيحى يستغل ابشع استغلال فى دعمه وفى اخضاع الناس له .

فالحكومة الدينية مؤسسة تاريخية نهضت على سلطان دينى بينما كانت اغراضها سياسية ، واصلت الناس سعيرا بسوء تصرفاتها وتحكمها .. وهى فى المسيحية واضحة كل الوضوح بينما الاسلام لم يشهد فى فترات استغلاله ما شهدته وما تكبدته المسيحية ، لا سيما فى العصور الوسطى ، عصور الظلام !!

ولعل اول خطأ تغشى منهجى الذى عالجت به قديما قضية الحكومة الدينية ، كان تأثرى الشديد بما قراته عن الحكومات الدينية التى قامت فى اوربا ، والتى اتخذت من الدين المسيحى دثارا تغطى به عريها وعارها ..

اجل . فانى استطيع ان الخص بواعثى فى ذلك التفكير القديم

واردها الى عاملين اثنين ــ كان هذا اولهما .. التأثر بما قراته عن الحكومة الدينية المسيحية ، ولذلك تجدنى اقول فى كتابى « من هنا نبـــدأ » .

« .. ففي الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التي لا تخطر للشيطان نفسه ببال ، فكان الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الآذان ، وتمزيق الجسد ، ومحاكم التفتيش ، وحرق العلماء بالنار وهم احياء !! » .

ثم قلت :

« وفى الحكومات الدينية الاسلامية حدثت اهـوال مروعة ، حتى ان حاكما دينيا واحدا ــ هو الحجاج ــ اباد البقية الكريمـــة الصالحة من صحابة رسول الله، حتى قال عنه «عمر بن عبد العزيز»

« لو جاءت كـــل امة بخطاياها ، وجئنا نحن بنى اميـــة بالحجاج وحده لرجحناهم ... !!»

اذن ، فقد كنت فى قمة التأثر ببشاعة وجرائم الحكومة الدينية المسيحية ، ثم عكست الصورة فى غير حق على الحكام السياسيين فى الاسلام واعتبرتهم حكومة دينية اسلامية .. !!

ومضيت ادحض ما اعتبرته حكومة دينية فى الاســـلام بنفس القوة التى دحض بها الفكر الانسانى الرشيد الحكومة الدينية التى قامت فى ظل الكنيســة وكانت اكثر خطرا على المسيحية من الشيطان نفسه !!

من قال ان الحجاج حاكم دينى .. ؟ وهل فى الاسلام كهنوت

يستطيع ى حاكم أن يستمد منه سلطانا مطلقا وفى ذات الوقت يكون متدينا .. ؟؟ لا . ومع هذا فقد اقتنعت قديما بهذا الذى يبدو لى اليوم تجنيا وخطأ .

ان الاسلام حتى فى فترات استغلاله من بعض الخلفاء والحكام لم يمنح ايا منهم سلطة بابوية كهنوتية ، لانه لا يتسع لاى كهنوت لا فى تعاليمه ولا فى تطبيقاته .

من اجل هذا كان تسمية الحكومات الاسلامية المنحرفة بالحكومة الدينية وتحميل الاسلام وزرها امر مجاف لكل صواب ..

* * *

اما العامل الثانى الذى شكل تفكيرى وموقفى من الحكومة الدينية فقد كان عاملا موقوتا بزمانه . ولكنى جعلت منه قاعدة عامة بنيت عليها حكمى القديم .

ذلك ان « الاخوان المسلمين » كانوا قد بلغوا خلال الاربعينات من الكثرة والقوة والنجاح مبلغا يكاد يكون منقطع النظير .

كانت دعوتهم تسرى بين الناس كالضوء ، وكان الشباب بصفة خاصة يقبل عليها اقبال اسراب النحل على رحيق الزهور !!

وذات يوم والجماعة فى اوج مجدها الباهر ، لا ندرى هل انبثق منها، أو اقتحم عليها وتسلل اليها ما سمى يومئذ بالتنظيم السرى . وارتكب هذا الجهاز جرائم منكرة وتوسل بالاغتيالات لفرض الدعوة .. الدعوة التى كانت قد حققت بالاقتناع والمنطق ما لم تحققه

دعوة اخرى .. والدعوة التى كانت لباقة مرشدها الاستاذ حسن البنا رحمه الله واخلاصه يفتحان له الآذان الصم والقلوب الغلف ، ويسلسان له قياد الجماهير كافتهم ومثقفيهم .

لفتت حوادث الاغتيال التى مارسها ذلك الجهاز السرى انتباه الناس وروعت أفئدتهم . وكنت من الذين اقض مضجعهم هذا النذير . وقلت لنفسي اذا كان هذا مسلك المتدينين وهم بعيدون عن الحكم ، فكيف يكون مسلكهم حين يحكمون ؟! !

وتذكرت كلمة المفكر الفرنسى « فولتير » :

« ان الذى يقول لك اليوم : اعتقد ما اعتقده والا لعنك الله ، سيقول لك غدا : اعتقد ما اعتقده والا قتلتك» !!!

على ان ذلك الجهاز السرى اختصر طريقه آنذاك فتخطى وتجاوز مرحلة اللعن الى مرحلة القتل والاغتيال !!

كان هذا هو العامل الثانى الذى جنح بتفكيرى الى التحذير من قيام اى حكومة دينية باسم الاسلام .

وكان هذا خطأ آخر وقعت فيه ..

كان الخطأ الاول مضاهاتى الحكومات الدينية الكنسية بحكم الاسلام .

وكان الخطأ الثانى تعميم نتائج ما اقترفه الجهاز السري باسم الاسلام .

وفى كلا الخطأين كان هناك خطأ فى المنهج ذاته . فقد جعلت ما تأثرت به من قراءاتى عن الحكومة الدينية فى المسيحية ، وما تأثرت

به من تحول بعض الشباب المسلم من نساك الى قتلة .. جعلت هذا وذاك «مصدر» تفكيرى ، لا «موضع» تفكيرى !! وفارق كبير بين أن تجعل الحدث أو الشىء مصدر تفكيرك وبين أن تجعله موضع تفكيرك.

عندما يكون مصدر تفكيرك فانه يقودك فى طريقه هو ، لا فى طريق الحقيقة . وتبصر نفسك من حيث تشعر أو لا تشعر مشدودا الى مقدمات وسائرا نحو نتائج لم يأخذ الاستقلال الفكرى حظه فى تمعنها ودراستها .

اما حين يكون الشىء موضع تفكيرك فانه يمد تفكيرك المحايد والمستقل بكل اعتبارات القضية المدروسة دون ان يلزمك بحكم مسبق يتحرك الفكر داخل اطاره الحديدى الصارم .

الى هذا السبب الجوهرى ارد خطئى فيما اصدرته ــ قديما ــ من حكم ضد الحكومة فى الاسلام ، هذه التى اسميتها بالحكومة الدينية .

الإهداء

إلى الذين :

إذا جاءهم ما عرفوا ، لم يكفروا به..

وإذا جاءهم ما جهلوا ، لم يعرضوا عنه . .

فى هذا الكتاب

مقدمة الطبعة العاشرة

هذا كتاب « من هنا .. نبدأ » يسعى إليكم فى طبعته العاشرة .

الكتاب الذى ظهر لأول مرة — عام ١٩٥٠ — وبلادنا يومئذ تعيش فى ضباب يتململ تحت خطى الفجر الزاحف . . .

كنا نخاف الفجر ، ونرجوه . . .

نخافه ، لأننا لم نكن على بينة من أننا نطيق تبعاته ، ونقدر على مسئولياته .

ونرجوه ، لأن حياة الظلام كانت على وشك أن تفقدنا البصر والبصيرة ، وحياة القطيع التى فرضها علينا الظلام كادت تمسخ آدميتنا ، وتهشم بشريتنا تحت وطأة الإذلال المهين . . . !

كان القصر الملكى يبسط ذراعيه بالوصيد . . . وكل الوطن كان له وصيدا ، وكان الإقطاع يمشى فى مناكبها مختالا فخورا . فى يمناه سوط . . . وفى يسراه كأس . . . وفى قلبه إصرار على الجريمة لا يماثله إصرار .. !!

وكان الكادحون يبحثون عن حظوظهم التعسة فى شقوق الأرض ، وتحت أقبية المصنع .. تتهاوى طاقاتهم تحت ضربات الجوع ، والمرض والضياع ..

وكانت مصر ، وما حولها من بلاد العرب تعيش ، أو تكاد تعيش خارج حدود التاريخ ..

ولكن الحياة كما تنتفض بالأفعال .. تنتفض بردود الأفعال ..

والتعويض من أهم قوانينها وأسماها .

وهكذا ولد الضغط الشديد ، الانفجار الأشد .

ومن أقصى الظلام ، جاء ضياء يسمى ..

وعند أكثر ساعات الليل ظلاما وحلكة ، دقت طبول الفجر .. !

* * *

فى تلك الليالى والأيام — أذن الله لهذا الكتاب أن يخرج للناس .

وكان كما قلت فى مقدمته ، لم يجىء ليعلم الناس شيئا يجهلونه .. وإنما جاء ليدير خواطرهم حول ما يعلمون ..

وجاء ليسهم مع الذين كانوا يقرعون أبواب المستقبل ، ويمهدون طريق الزحف الذى كان كل شىء فى مصر ينبىء ببدئه ، ويبشر بانطلاقه ..

ومن ذلك اليوم ، وكتاب « من هنا نبدأ » يعاود الظهور .. وكلما نفدت منه طبعة جاءت على أثرها أخرى ..

واليوم وهذه الطبعة العاشرة تجىء فى الأيام التى جاوز اليمن فيها قيوده وأغلاله ؛ يسعدنى أن يكون ظهورها فى هذا الميقات السعيد تعبيراً عن خير ما نرجوه لليمن من تقدم وازدهار .

* * *

إن البعث الجديد الشامخ الذى يقود إلى الحياة شعوب منطقتنا هذه .. ليتطلب منا وعيا مبصراً ، وإرادة مشحوذة على الدوام ..

والكلمات التى تعرض مشاكلنا فى جرأة ، وفى صدق ، من خير ما يهدى البصيرة ويشحذ الإرادة .

وكل مزيد من هذه الكلمات . يمنحنا مزيدا من فرص التقدم والتفوق . وكل ما أرجو . وأنا أقدم هذه الطبعة الجديدة — أن يواصل الكتاب سعيه الواجب فى إنجاز المهام الجليلة التى بدأها شرقنا العربى ، ميمما وجهه شطر الحياة .

— الكتاب فى المحاكمة —

إحدى وثائق الحُرِّيَّة والرِّقِّ

النص الكامل لحيثيات الحكم بالإفراج عن الكتاب

محكمة القاهرة الابتدائية
مكتب الرئيس

قرار

نحن حافظ سابق رئيس محكمة القاهرة الابتدائية

بعد الاطلاع على الأمر الصادر من النيابة العامة بتاريخ ٧ من مايو سنة ١٩٥٠ بضبط « من هنا نبدأ » . وعلى الكتاب المذكور ، وعلى كتاب حضرة صاحب الفضيلة رئيس لجنة الفتوى بالجامع الأزهر المؤرخ فى أول مايو سنة ١٩٥٠ ، وعلى التحقيقات التى أجرتها النيابة مع الأستاذ خالد محمد خالد مؤلف هذا الكتاب .

وبعد سماع أقوال مؤلف هذا الكتاب ودفاع حضرة المحامى الحاضر معه .

◆ وحيث إن النيابة العامة طلبت تأييد الأمر الصادر منها بضبط هذا الكتاب استناداً إلى المادة ١٩٨ عقوبات ، وقالت فى تبرير ذلك إن المؤلف ارتكب الجرائم الآتية :

أولا — أنه تعدى علنا على الدين الإسلامى الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادتين ١٦١ و ١٧١ عقوبات .

ثانياً — أنه حبذ وروج علناً مذهباً يرمي إلى تغيير النظم الأساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب ووسائل أخرى غير مشروعة . الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادة ١٧٤ عقوبات .

ثالثاً — أنه حرض علناً على بغض طائفة من الناس وهي طائفة الرأسماليين والازدراء بها تحريضاً من شأنه تكدير السلم العام . الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادتين ١٧١ و ١٧٦ عقوبات .

◆ وحيث إنه فيما يتعلق بجريمة التعدى على الدين الإسلامى ، قد اعتمدت النيابة فى إسنادها إلى مؤلف الكتاب على رأى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الذى يتحصل فى أن هذا الكتاب قد وضع بروح تناصب الدين العداء السافر ، وتعمل جهدها على هدم كيانه وتسلبه أخص وظائفه وهى الهيمنة على شئون الحياة وتدبيرها وإقامة أمور الناس فيها على أسس العدل والاستقامة ، وسياستهم بكل ما فيه إصلاح حالهم فى الدنيا وتوفير أسباب سعادتهم فى الآخرة بالنصح والإرشاد والوعظ والهداية ، وأخرى بالقضاء العدل والحكم الرشيد ، وتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وسائر حقوقهم ، وإنصاف المظلومين ، والضرب على أيدى المعتدين الظالمين . وإن كتاب الله وسنة رسوله كلاهما ملىء بالتصريح القطعى الواضح البين فى الحكم والقضاء وما إليهما من مظاهر الهيمنة الفعلية على جميع نواحى الحياة الاجتماعية مالية وجنائية ، فردية واجتماعية ودولية . وقد دعمت لجنة الفتوى رأيها هذا بما يلى :

١ — أن المؤلف صور الحكومة الدينية بخصائص وغرائز من شأنها أن تبعث فى النفوس محاربة هذا النوع من الحكم . ورماها بالغموض المطلق . وأن دستورها الذى تخضع له وتقوم به وتفر إليه وتهرب ، هو الدين هو

القرآن ، وأن القرآن والسنة فيهما من الغموض والاحتمالات ما يجعل فى الآية والحديث متمسكا للمتخاصمين المتعارضين فى الرأى . وأن المؤلف يعنى بهذا أن ذلك الغموض يجعلهما غير صالحين لأن يكونا أساساً صالحاً للحكومة .

٢ — أن المؤلف يقرر أن مهمة الدين لا تعدو الهداية والإرشاد وأن ما قام به النبى صلى الله عليه وسلم من قيادة الجيوش والمفاوضات وعقد المعاهدات وغيرها من مظاهر السلطة التى يمارسها الحكام لم يكن إلا لحكم ضرورات اجتماعية . وأن المؤلف يعنى بذلك أن هذه الشئون التى قام بها النبى لم يقم بها لأنها من مهمته الدينية وعنصر من عناصر الرسالة .

٣ — أن المؤلف يرى أن الحدود جميعها موقوفة عن العمل وليس هناك مجال لإقامتها وأن عمر وقف حد السرقة أيام المجاعات وصار ذلك سنة رشيدة من بعده ، وأن الزنا يحمل موانع تنفيذه وأن حد الخمر كحد الزنا فى صعوبة تنفيذه أو استحالته ، وأن الدين لا يصح أن يعتمد فيما يعتمد عليه فى إصلاح المجتمع — على العقوبة ، معللا ذلك بأن نفوذ الدين وأثره فى مكافحة الرذيلة يكونان أرسخ قدما وأقوم سبيلا حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادىء والمنطق الرصين ، أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها فإن الفضيلة آنئذ تصاب بجزع أليم .

٤ — أن المؤلف عرض لركن من أركان الدين وهو الزكاة وخلع عليه ثوباً يقزز منه النفوس ويجعله مظهراً من مظاهر المذلة والهوان التى لا يرضى الله بها لعباده ، ورأى أن الكهانة ، أى الدعوة الدينية ، هى التى صورت للناس أن الإسلام يرى فى الصدقات اشتراكية تلبى حاجة المجتمع ، وأنها بهذا التصوير تسير على طريقة الخداع التى تعودت بها إبداء بعض مظاهر العطف والرحمة

بالناس فى حين أنها تعمل بها على سلب الناس أعز ما يملكون من كرامة وحق .

◆ وحيث إنه تبين من الاطلاع على الكتاب أن المؤلف نادى بقومية الحكم ورد على الرأى القائل بضرورة قيام حكومة دينية بأن فى ذلك مجازفة بالدين ذاته مجازفة تعرض نقاوته للكدر وسلامته للخطر . بينما يجب الحرص على صيانته وإبقائه بعيداً عن مهاب العواصف والذاريات . وأن الرسول عليه السلام يحس إحساسا واضحا بمهمته ويعرفها حق المعرفة وهى أنه هاد وبشير وليس رئيس حكومة ولا جباراً فى الأرض . وقد عرضوا عليه يوماً أن يجعلوا له مثل ما كان للأباطرة والحكام ففزع وقال : « لست كأحدهم . إنما أنا رحمة مهداة » . ودخل عليه عمر ذات يوم فوجده مضطجعاً على حصير قد أثر فى جنبه فقال له : « أفلا تتخذ لك فراشاً وطيئاً ليناً يارسول الله » . فأجابه بقوله : « مهلا ياعمر أتظنها كسروية ؟ إنها نبوة لاملك » ، ثم قال المؤلف إن الرسول لم يكن حريصاً على أن يمثل شخصية الحاكم لأن مقام الرسالة أرفع مقام لولا الضرورات الاجتماعية التى ألجأته إلى ذلك لتحقيق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد وإذا كان الرسول فاوض وعقد المعاهدات وقاد الجيوش ومارس كثيراً من مظاهر السلطة التى يمارسها الحكام وأقام بعض خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان كان العدل لحمتها وسداها فإن هذا لايعنى أن هناك طرازاً خاصا من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانه وفرائضه . بل إن كل حكومة تحقق الغرض من قيامها وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للأمة ، يباركها الله . ولئن كانت الحكومات الدينية قد توافرت لها فى العصر الإسلامى الأول كل عناصر النجاح والتقدم ، فإن ذلك يرجع إلى الكفاية الشخصية والكمال الذاتى اللذين كان يتمتع بهما رؤساء تلك الحكومات كأبى بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . غير أن الأمر لم يلبث أن انتهى إلى تنافس دموى على الحكم وفتنة بين الناس وقادتهم وبين القادة بعضهم بعضاً وإلى نوع من الحكم ليس بينه وبين الدين وشيجة ولا صلة وإن زعم أصحابه أنه حكم دينى بل حكم الله ورسوله

ثم قال المؤلف إن الحكومة الدينية لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله بل من نفسية الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتية ، وهي تعتمد في قيامها على سلطة غامضة لا يعرف مأتاها ولا يعلم مداها . ولا تفسر وجودها إلا بأنها ظل الله في الأرض ، وحين تسأل عن دستورها الذى تخضع له وتقوم به، تفر وتهرب إلى الغموض الذى لاتستطيع أن تعيش إلا فيه ، وتقول هو الدين ، هو القرآن . ولما كان القرآن « حمال أوجه » كما قال علي ، وكذلك السنة فقد استغل بعض الحكام بعض آيات القرآن استغلالا مغرضا ، وكان أصحاب علي — وهم يحرضون على دم معاوية وقتاله — يقدمون بين أيديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث هي نفس الآيات والأحاديث التي كان يحرض بها أصحاب معاوية على دم علي وقتاله ، وببعض هذه الآيات قتل عثمان ، وبها ذاتها قتل الخوارج علياً . كما قتل يزيد الطاغية الحسين بن علي مبرراً فعلته هذه بآية وحديث استمسك بهما .

ثم قال المؤلف إن الحكومة الدينية تحكم بهواها ، ثم تزعم أنها تحكم بما أنزل الله ، وإن غريزة الغموض وغيرها من الغرائز التي تستمد الحكومة الدينية منها سلطتها بعيدة كل البعد عن حقائق الدين وفضائله ، وإن الحكومات التي حكمت الناس باسم الدين سواء في المسيحية أو الإسلام كانت أسوأ مثل للحكم ما عدا قلة نادرة فاضلة لا تكاد العين تقع عليها في زحام الكثرة الباغية . وأن الحكومات الدينية التي ينتقدها هي تلك التي تعتمد على سلطة مبهمة غامضة ، ولا تقوم على أسس دستورية واضحة ، والتي تمنح نفسها قداسة وعصمة مدعاة .

ورد المؤلف على الداعين بوجوب إقامة حكومة دينية بأنهم إذ يبررون ذلك بفكرة القضاء على الرذائل وإقامة الحدود فإن الدين

وحده من غير أن يكون دولة هو الذى يهدى إلى الفضيلة عن طريق الترويض والإقناع وأن نفوذ الدين وأثره فى مكافحة الرذيلة يكونان أرسخ قدماً وأقوم سبيلا حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادىء والمنطق الرصين ، أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها فإن الفضيلة آنئذ تصاب بجرح أليم واستشهد على ذلك بقوله تعالى : « فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » وقوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » ثم تحدث المؤلف عن الحدود فقال : إنها موقوفة عن العمل وليس هناك مجال لإقامتها فقد وقف عمر حد السرقة فى أيام المجاعات وصارت سنة رشيدة من بعده . والشرق الإسلامى فى مجاعة ما دام الناس لم يستوفوا ضرورات الحياة فحد السرقة موقوف إذن حتى ينزل الرخاء مكان الجدوب ، ويوم يوجد الرخاء فلن تحصل سرقة وإذا وجد السارق رغم الرخاء قطعت يده . على أن قطع بضع أيد سارقة لن يحتاج إلى قيام حكومة دينية خاصة ، فمادة واحدة فى القانون تقوم مقامها . أما حد الزنا فإن أمر إقامته يحمل موانع تنفيذه فقد شرط الله لإقامته أن تثبت الخطيئة بإقرار مقترفها أو بالبينة ، واشترط أن تكون البينة أربعة شهود وأن يروا العملية الجنسية نفسها رؤية سافرة، وهذا أمر يكاد يكون مستحيلا مما يجعل الثبوت بالبينة متعذراً كما أنه لن يثبت بالإقرار فان أحداً لن يذهب من تلقاء نفسه ليقدم ذاته للعار والفضيحة والميتة الشنيعة رجماً بالحجارة أو جلداً بالسياط، ولم يحدث فى خلال عهد الرسول وخلفائه سوى وقائع معدودة أقيم فيها حد الزنا، وقد كان كل من أقيم عليهم الحد معترفين دفعتهم إلى الاعتراف نزعة مثالية حببت إليهم تطهير النفس وتحملها مسئولية وزرها فى الحياة الدنيا وهى نزعة نادرة . أما حد الخمر فهو كحد الزنا تماما فى صعوبة تنفيذه أو استحالته فهو لا يقام إلا بالإقرار أو البينة وبينته شاهدان ولا تنحصر شهادتهما فى رؤية الشارب وهو

يشرب الخمر ، بل لابد فى رأى كثير من الفقهاء أن يشهدا بأنه شرب وهو عالم بأن الشراب خمر مسكر، وأنه كان مختاراً غير مكره على شرابه . وهذا العلم مكنون فى ضمير الشارب ولن يستطيع الشاهدان بلوغه أو الإحاطة به ولاسيما إذا زعم الشارب أنه شرب غير عالم به ، وخلص المؤلف من ذلك إلى أنه لاداعى إلى إقامة حكومة دينية من أجل إقامة هذه الحدود خاصة . وقال المؤلف إن سدنة الكهانة يدعون باسم الدين إلى اشتراكية الصدقات ، وهم حين يدعون إلى ذلك إنما يجعلون الصدقة نظاماً اقتصاديا مشروعا ، ومعنى ذلك أنهم يفتحون باب المسألة (أى السؤال) على مصراعيه مع أن الدين الذى يحقر المسألة ويمجد العمل ويأمر بأن يأخذ العامل حقه قيم عمل دون أن ينتقص من حقه شىء ، لا يمكن أن يعالج حقوق الشعب فى الحياة بالصدقات ، كما تحاول الكهانة اليوم أن تفعل ، والإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الإجتماعى لم تكن الصدقة فى حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب ، بل هى شىء يشبه أكل الميتة فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك الرمق ، ولكنها لا تعالج هبوط المستوى المعيشى للأمم والجماعات . وهذه بديهة يعرفها الذين عرفوا محمداً ودرسوا نفسه العالية ودينه القويم . فلقد وضع رسول الله الصدقة فى مكانها اللائق بها حين يقول : « إنها أوساخ الناس . إنها غسالة ذنوب الناس » وقد خشى الرسول أن يفهم الناس أن الصدقة مصدر مشروع من مصادر العيش والارتزاق فكان يدعهم عنها ويذم المسألة إذ يقول : « المسألة كاوح فى وجه صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة فإنما هى رضف من النار ملهبة » وقد ذكر المؤلف فى مواضع متفرقة من كتابه أن الدين يدعو إلى توحيد الإله والحرية والمساواة بين الناس وإلى العدل والإحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وأنه يجب تقديم الدين للناس وضيئاً متألقاً كيوم نزل من لدن عزيز حكيم عليم . وما توحيد الإله وجعل الأمر كله والسلطان كله والكبرياء كلها له دون سواه

إلا هتاف علوي مقدس يشيع فى الإنسانية الأمن والإيناس حتى تلتقي الإنسانية كلها على الحرية والأخاء والمساواة . وأن الدين ليس فى حاجة إلى أن يكون دولة إذ هو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير وإن وظيفة الدين هى الهداية والإرشاد إلى أنبل ما فى الحياة من معنويات وفضائل وتبليغ كلمات الله التى تهدى إلى الحق والفضيلة والصلاح وإن أجل خدمة نؤديها للدين هى أن نجعله قريبا من قلوب الناس عميقاً فى نفوسهم وتطعيم الدولة والمجتمع بروحه الحى ومعنوياته الفاضلة لا أن نأتى بحكومة تستغله فى تقديس ذاتها وتبرير أطماعها واستكراه الناس لجبروتها وإن الدين يجب أن يظل كما أراده ربه نبوة لا ملكا ؛ وهداية لا حكومة ، وموعظة لا سوطا . وأن الدين فى المجتمع الإنسانى بأسره يمثل ضرورة اجتماعية لا غنى للناس عنها وهو مصدر قوة وإخاء ومساواة لا ظهير أنانية وعدوان ، ويجب أن يحتفظ الدين بخصائصه الذاتية وأهدافه التى من أجلها شرعه الله وأنزله وهى إسعاد الناس سعادة واقعية فى نطاق المساواة النبيلة التى جاء يعلنها ويحرض عليها . وأن الدين فى صورته الصحيحة زميل مؤنس مسعد فى رحلة الحياة كلها » .

◆ وحيث أن الدين شىء ، ودعاة الدين والحكومات الدينية شىء آخر . ولا يعد الطعن فى هؤلاء الدعاة أو فى هذه الحكومات طعناً فى الدين إلا إذا انصرف الطعن إليه وانصب عليه فى ذاته ، فالدين حقائق خالدة ثابتة ، أما هؤلاء الدعاة ومتولوا شئون هذه الحكومات فهم بشر من الناس يصيبون ويخطئون ، وقد مجد المؤلف عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشاد بذكر الحكومات التى خلفته فى العصر الإسلامى الأول ، وقال إنه توافر لها كل عناصر النجاح والتقدم . وإنما وجه المؤلف نقده إلى ما عداها من الحكومات الدينية التى وصفها بأنها كانت تحكم بهواها وتزعم أنها تحكم بما أنزل الله وتفسر وجودها بأنها ظل الله فى الأرض وإذ تسأل عن دستورها الذى تخضع له وتقوم به تفر وتهرب إلى الغموض الذى

لا تستطيع أن تعيش إلا فيه وتقول « هو الدين - هو القرآن » مع أنها ما كانت تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله . بل من نفسية الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتية . ونعى المؤلف على رجال تلك الحكومات التي انقرضت وأصبحت أثراً بعد عين . أنهم كانوا يستغلون القرآن استغلالا سيئاً ويسفكون دم المسلمين متسلحين ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . مستغلين ماتحمله هذه وتلك من وجوه ومعان عدة . وواضح من هذا أن المؤلف إذ قال إن القرآن حمال أوجه وكذا الأحاديث لم يقصد التعريض بكتاب الله وسنة رسوله بل التعريض بأولئك الذين استغلوه استغلالا مغرضاً . وقد نسب المؤلف إلى علي بن أبي طالب أنه قال : « إن القرآن حمال أوجه » . ولم تنكر لجنة الفتوى صدور هذا القول من علي . هذا إلى أن أبا نعيم أخرج عن ابن عباس وهو من أجلاء الصحابة أنه قال : « القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن وجوهه » . وقال الألوسي في مقدمة تفسيره « إن بعض من يوثق بهم قال : « إن لكل آية ستين ألف فهم » وقال ابن جزى الكلبي في مقدمة تفسيره « إن الطوائف المختلفة من المسلمين تعلقوا بالقرآن وكل طائفة منهم تحتج لمذهبها به وترد على من خالفها وتزعم أنه خالف القرآن . ولا شك أن منهم المحق والمبطل وأن بعضهم يرجح المجاز على الحقيقة فمذهب أبي حنيفة يقدم الحقيقة لأنها الأصل ومذهب أبي يوسف يقدم المجاز الراجح » . وقال تعالى وهو أصدق القائلين : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله . والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا . وما يذكر إلا أولو الألباب » .

◆ وحيث إن لجنة الفتوى أخذت على المؤلف قوله إن مهمة الدين لا تعدو الهداية والإرشاد وأن الرسول لم يكن حريصاً على أن يمثل شخصية

الحاكم لولا الضرورات الاجتماعية التى ألجأته إلى ذلك لتحقيق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد . مع أن الشئون التى باشرها النبي صلى الله عليه وسلم من قيادة الجيوش والمفاوضات وعقد المعاهدات وغيرها إنما هى من مهمته الدينية وعنصر من عناصر الرسالة . على أن المؤلف — فيما قاله — لم ينكر ركناً من أركان الدين ولم ينتقص من قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال صراحة إن مقام الرسالة أرفع مقام . وإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحس إحساساً واضحا بمهمته ويعرفها حق المعرفة وهى أنه هاد وبشير وليس رئيس حكومة ولا جباراً فى الأرض . وقد أيد ذلك بأحاديث نبوية صحيحة . وهو مؤيد كذلك بقوله سبحانه وتعالى : « وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً » ، وقوله تعالى : « إنما أنت منذر » ، « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ، « ما عليك إلا البلاغ » ، وقوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، وقوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . وقد قال المغفور له الأستاذ الشيخ محمد مصطفى المراغى فى تعريفه بكتاب (حياة محمد) لمؤلفه الدكتور هيكل (باشا) : « إن الرسول أمر بأن يبلغ عن ربه ولم تبين له الطرق التى يتبعها فى التبليغ وفى حماية الدعوة وترك له أن يتصرف بعقله وعمله وفطنته كما يتصرف غيره من العلماء والعقلاء . وجاء الوحى مفصلا قاطعا فى كل ما يخص ذات الإله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ولم يكن كذلك فيما يختص بالنظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول . وقد صار النبي مبلغاً عن ربه داعياً إليه حامياً لتلك الدعوة ولحرية الداعين مدافعاً عنهم وأصبح حاكم الأمة الإسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضيها ومنظم جميع الصلات والروابط فيها وبينها وبين غيرها من

الامم ، وقد أقام العدل فى ذلك كله ، وألف بين أمم وطوائف ما كان العقل يستيغ إمكان التأليف بينها وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم فى كل ما صدر عنه من قول أو فعل . »

وحيث إن لجنة الفتوى أسندت إلى مؤلف الكتاب أنه عرض بركن من أركان الدين وهو الزكاة وخلع عليه ثوباً يقزز منه النفوس ويجعله مظهراً من مظاهر المذلة والهوان .

◆ وحيث إنه لاشك فى أن الزكاة ركن من أركان الدين الخمسة وقد أمر الله سبحانه وتعالى بها بقوله : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وبين سبحانه وتعالى مصارفها بقوله : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » وقد وضعها الله إلى جانب الإيمان به بقوله تعالى : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين » وقد قرنها الله بالصلاة فى كثير من المواضع ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » ، وقوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » ، وقوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون » ، وفى هذا ما يدل على أن الزكاة عبادة وفرض واجب ، فالمؤمنون إخوة ولا يتم إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

وفريضة الزكاة تتصل بهذا الإخاء ولا تتصل بالأخلاق وتهذيبها ،

ولا بالمعاملات وتنظيمها . وما اتصل بالإخاء اتصل بالإيمان بالله . ومن أجل ذلك قام أبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يطالب المسلمين بأدائها واعتبر نكولهم عنها ضعفا فى إيمانهم وتفضيلا للمال عليه وخروجا على النظام الروحى الذى نزل به القرآن وارتدادا عن الإسلام فكانت حروب الردة التى ثبت بها أبو بكر رسالة الإسلام كاملة .

◆ وحيث أن المؤلف لم يجحد الزكاة ولم ينف أنها ركن من أركان الدين . وهو لم يحقر الصدقة ذاتها بل حقر المسألة . فقد قال إن الصدقة فى عصر الرسول وفى لغة القرآن تعنى ضريبة مفروضة هى ضريبة الزكاة التى نزلت فيها الآية « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وأنها مباحة الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم أودهم ويسد رمقهم . وقد أورد المؤلف ذلك فى مقام الرد على أولئك الذين يقولون بأن الصدقة نظام اقتصادى واف ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر وإسعاد الشعب . فقال إنه لا يمكن معالجة حقوق الشعب فى الحياة بالصدقات وإن الدين يمجد العمل ويأمر بأن يأخذ العامل حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شيء . وإن المستمع لأصحاب ذلك الرأى ليكاد يخدع فيصدق أن الصدقة هى كل ما يستطيع الإســـلام أن يقدمه للشعوب من عدالة ومساواة ، مع أن الإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعى لم تكن الصدقة فى حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . وأن هؤلاء القوم إذ يجعلون الصدقة نظاما اقتصاديا مشروعا إنما يفتحون باب المسألة على مصراعيه مع أن الرسول عليه الســـلام ذم المسألة إذ قال : « المسألة كلوح فى وجه صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة ، فإنما هى رضف من النار ملهبة » .

◆ وحيث أن ما ورد بالكتاب عن ذم المسألة والتعفف عنها صحيح ، فقد جاء بالجزء الثالث من كتاب فتح البارى ومتن الجامع الصحيح للامام البخارى أن رسول الله قال : (ومن يستعفف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاءاً خير وأوسع من الصبر) وأنه قال أيضا : (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه) وأنه قال (ما زال الرجل يسأل حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم) وأنه قال : (اليد العليا خير من اليد السفلى) . وقد فسروا هذا الحديث الأخير بأن أعلى الأيدى هى المنفقة ثم المتعففة عن الأخذ ثم الآخـــذة بغير سؤال ، وأن أسفل الأيدى : السائلة والمانعة .

ويؤخذ مما روى عن النبى من الأحاديث المتقدم ذكرها وغيرها أنه كان يحض الغنى على الصدقة ، كما كان يحض الفقير على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ، ولو امتهن المرء نفسه فى طلب الرزق وارتكب المشقة فى ذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال ، ولما يدخل على المسئول من الضيق فى ماله إن أعطى كل سائل وأما من يسأل مضطراً فلا جناح عليه وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم كذلك أنه قال . (الصدقة أوساخ الناس ، وأنها لاتحل لآل محمد) . وفى رواية أخرى (إنا آل محمد لاتحل لنا الصدقة) . ولعل الحكمة فى ذلك أن الصدقة إنما يصرفها المتصدق على محتاج يريد بها وجه الله .

◆ وحيث إن لجنة الفتوى نسبت إلى المؤلف أنه قال إن الدين لايصح أن يعتمد — فيما يعتمد عليه فى إصلاح المجتمع — على العقوبة . وقد

تبين من مطالعة الكتاب أن المؤلف كان يرد على القائلين بوجوب قيام حكومة دينية تتولى القضاء على الرذائل ، فقال : إنه لا سبيل للقضاء على الرذائل إلا بتطهير النفس وتعويدها على احترام ذاتها ، وإن الدين وحده — من غير أن يكون دولة — هو القادر على أن يوقظ فى الضمائر واعظ الله ، إن الدولة لا تستطيع بقوانينها أن تهب الناس نقاوة النفس . وإن نفوذ الدين وأثره فى مكافحة الرذيلة ليكون أرسخ قدما وأقوم سبيلا حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادىء والمنطق الرصين .

◆ وحيث إن المؤلف لم ينكر ما أمر الله به من حدود ، وإنما قال إنه لا ضرورة لقيام حكومة دينية من أجل إقامة هذه الحدود خاصة . ولا سيما أن هذه الحدود نادرة التطبيق عملا ، إذ أن حد السرقة يوقف إبان المجاعات ولأن حدى الزنا والخمر يصعب إثباتهما شرعا — وأن ماذكره المؤلف عن هذه الحدود صحيح فى جملته . فقد جاء بالجزء العاشر من كتاب (المغنى) أن عمر بن الخطاب قال : (لاقطع فى عام سنة) وأن أحمد بن حنبل قال : (لاقطع فى مجاعة) وأن الإقرار بالزنا نادر الحصول وبينته أربعة شهود عدول مسلمين . ويشترط فيهم أن يشهدوا بأنهم رأوا ذكر الرجل فى فرج المرأة كالمرود فى المكحلة والرشاء فى البئر . وأن بينة الخمر شاهدان بأنهما رأيا الشارب يشرب مسكراً . ولا يشترط فيهما — على خلاف ما ذكره المؤلف — أن يشهدا بأن الشارب شرب مختاراً عالماً بأنه مسكر ، لأن الظاهر أن الاختيار والعلم وما عداهما نادر بعيد . هذا إلى أن الشريعة الإسلامية تميل إلى التشدد فى الإثبات والتحرج فى إقامة الحدود بدليل قوله عليه الصلاة والسلام (تعافوا الحدود فيا بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب) . وقوله :(ادرأوا

الحدود بالشبهات ما استطعتم ، فإن كان له مخرج فخلوا سبيله فإن الإمام إن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة) .

◆ وحيث قد تبين مما تقدم أن المؤلف لم يطعن فى الدين ذاته ولم يجحد كتاب الله وسنة رسوله ، بل مجد الله وكرم الرسول فى أكثر من موضع من كتابه وقال : إنه يجب تقديم الدين للناس وضيئا متألقا كيوم نزل من لدن عزيز حكيم عليم . وهو لم يخرج فيما كتب عن حد البحث العلمى والفلسفى . وإذا صح أنه أخطأ فى شىء مما كتب فإن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شىء ، وتعمد الخطأ المصحوب بنية التعدى شىء آخر . ويشترط للعقاب بمقتضى المادة ١٦١ عقوبات أن يكون الجانى قد تعدى على الدين أى أهانه وامتهنه أو ارتكب ما من شأنه المساس بكرامته أو انتهاك حرمته والحط من قدره والازدراء به وأن يكون قد قصد ذلك وتعمده ولما كان شىء من ذلك لم يتوافر فى حق مؤلف الكتاب فلا جريمة ولا عقاب .

◆ وحيث أنه فيما يتعلق بالجريمتين الأخريين اللتين أسندتهما النيابة العامة للمؤلف ، فقد تبين من مطالعة الكتاب أن المؤلف قال : إن المجتمع المصرى كسائر المجتمعات العربية تعتمل فيها جميعا كوامن الكبت والحرمان ، وبدا التذمر على كل لسان ووجه ، هذا التذمر خطر على حياة الأمة ، ولا يمكن أن يستهين بعاقبته حاكم له بصر بالأمور ، وأن المسئولية الكاملة لتجثم على كاهل الرجعية الاقتصادية التى تمتص الحياة من الشعب وتعرقل كل اتجاه نحو اشتراكية يانعة وأنه يجب مكافحة سياســـة التجويع التى تمثلها تلك الرجعية الاقتصادية فى بلاد العرب قاطبة ومكافحة الاستغـــلال الفردى لأنه مهب كل عاصفة

وكل إعصار وبيل . وقال : إن الملكيات الزراعية موزعة توزيعا سيئا وإن أجور الأطيان الزراعية مرتفعة ارتفاعا فاحشا مرهقا للمستأجرين ، وإلى ذلك ترجع أكثر أسباب الغلاء الذى يئن الشعب منه . وأنه يوجد تفاوت كبير بين طبقتى المجتمع ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت الكبير أنه يقسم الأمة على ذاتها ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أعلاهما الأدنى ويمقت أدناهما الأعلى ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمراً له كل كراهية وسوء . ومهما نحاول إرضاء هذا الفريق برفع مرتبه وتحسين دخله فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ؛ ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ، ويرغدون أكثر مما ينبغى أن يرغدوا ويجلسون فوق أهرامات من الذهب بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها . وإن كثيرين من هؤلاء السادة سارعوا عند ما قررت الحكومة مجانية التعليم الابتدائى منذ أربع سنوات إلى سحب أولادهم من مدارس الحكومة حتى لا يخالطون فيها الفقراء والرعاع . وإن وراء هذا التصرف المخجل إيماناً عريقاً بالأرستقراطية وحرصاً شديداً على الامتياز والاستعلاء وجاهلية نابية لا تقرها أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا ، وضرب مثلا بما حصل فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إذ جاءه وفد من مكة وقالوا له : « يامحمد لقد رضينا أن نستمع إليك ولكنا لا نجالس هذه الأخلاط من عبيدنا وصعاليك مكة الفقراء فاجعل لنا يوما ولهم يوما » . فاستمهلهم الرسول حتى يأتى أمر ربه . وسرعان ماجاءه الوحى الرشيد بآيات باهرة إذ قال تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم

من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، فأحسن الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم وخاطبهم بقوله : «أهلا بمن أوصانى بهم ربى » وقد علق المؤلف على ذلك بقوله : « ما أحوج هؤلاء الذين يستنكفون عن زمالة الشعب إلى هذا الدرس البليغ الصارم ليطامنوا من صلفهم وينتهوا من كبريائهم » . ثم قال المؤلف إنه إذ ينقد الرأسمالية لا ينسى أنها عامل من عوامل الرقى وأحد الأطوار التى يمر بها التقدم وهو ماض إلى غايته وهو لا يسألها إلا أن تفسح الطريق لاشتراكية عادلة يطلبها الشعب ويريدها ، وبذلك تظفر لنفسها بحسن الختام . وقال إنه يجب علينا أن نعمل لسلامنا الخاص أولا وقبل كل شيء ونوجه كل جهودنا وإمكانياتنا لخدمة أنفسنا ومصالحنا الخاصة وإذا بقى من جهدنا فائض ومزيد لانحتاج إليهما فلا مانع من إسباغهما على الآخرين .

وإنه يجب على الحكومة أن تعمل على ألا يوجد بيننا جوع ولا جياع ، ولا يجوز لها أن تسلك سبيل الشح على رعاياها الذين يدفعون لها الضرائب ، وإنه ليس للحكومات فى هذا العصر من رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب وإن الشعب بطبيعته يريد دائما أن يرقى ولا ترى الحكومة الحصيفة أى تثريب عليه فى ذلك ما دام العقل والحكمة والنظام هم حداته إلى حقوقه وما دامت هى نفسها تعينه على حفظ النظام. وقال إن الحرص على سلامة بلادنا وتجنيبها ويلات الفتن والاضطرابات يقتضينا أن نعمل على مكافحة الجريمة والقضاء على العوامل التى تيسر نشوءها . . . وإنه يمقت الجريمة مهما تكن بواعثها وأسبابها ويعتقد أن عبور الحياة فى زورق جميل مهما تطل رحلته خير من عبورها فى مدرعة ، ولو أبلغتنا الهدف فى لحظات . ثم قال إنه لا يدعو إلى إزالة

كل فارق وحاجز بين الناس فهذا أمر مستحيل وإنما يدعو إلى تقريب المسافة البعيدة الفاصلة بين طبقتي الأمة وتوزيع الفرص على المواطنين توزيعاً يقضي على التفاوت القصي الذي يشطر وحدتها النفسية والفكرية ، وإنه لا سبيل إلى إصلاح الأمور إلا إذا تسلحنا بروح الإنصاف وآمنا بضرورة حدوث تحول اجتماعي شامل وبذلنا جميعاً حكومة وشعباً محاولة صادقة لإتمام هذا التحول دون أن نريق قطرة دم واحدة ومن غير أن يكفر بعضنا ببعض ويلعن بعضنا بعضا . ولا شيء يحسم الفوضى التي نعانيها مثل أن نخطو خطوة كتلك التي خطتها انجلترا مثلا فتتحول من مجتمع رأسمالي متطرف إلى مجتمع اشـــتراكي شامل رشيد وديع معتدل تنتظم الإشتراكية كل مرافقه أوجلها وتتحرر فيه قوى الإنتاج المحبوسة في أيدي الرأسماليين المتطرفين ، وإن العدالة الإجتماعية فطرة أحست بها الإنسانية منذ أحست بوجودها ومنذ سمعت وجيب الوعي والحياة يخفق بين جنبيها وهي ليست روسية الجنسية ماركسية الدم وليس ضربة لازب أن يكون المؤمنون بها الداعون إليها بلاشفة يعذبون ويضطهدون . وإن انجلترا ليست شيوعية وهي التي صعدت بالضريبة التصاعدية إلى ٩٤ ٪ وراحت في سرعة البرق تؤمم الملكيات الإنتاجية الكبرى . وإن النظام الذي يحقق العدالة الاجتماعية في العهد الحاضر هو الإشتراكية ولا شيء سواها . وإن حق الملكية الشخصية أمر مفروغ من ثبوته شرعا وعقلا وعرفا وتعترف به البلاد قاطبة لرعاياها ومواطنيها غير أن هذا لا يمنع الحكومة من أن تختار نوعا معينا من الملكية وهو الملكيات الإنتاجية وتحرره من أيدي الأفراد وتشرف عليه لصالح الأمة . إذ التأميم هو الوضع الطبيعي الذي أخذ المجتمع الإنساني يسارع إليه فهو يؤدي إلى تحرير قوى الإنتاج المحبوسة في أيدي الرأسماليين ويقضي على الفروق الاجتماعية والتفاوت

الكبير فى الدخول المالية . وقال إن الحكومة المصرية أحسنت صنعاً بفرض الضريبة التصاعدية وضريبة التركات وبزيادة إعانة غلاء المعيشة . وأهاب بها أن تعمل على زيادة مرتبات صغار الموظفين ، والحد من التفاوت الكبير بين ما يكسبه رب العمل وما يكسبه العامل ، وإصلاح حال العامل الزراعى . وتساءل : لماذا لا تصنع الحكومة كما صنعت تركيا إذ اشترت الإقطاعيات الكبرى وباعتها للفلاحين وقسمتها عليهم قسمة عادلة فاضلة مرضية . ودعا الحكومة إلى أن تستصدر قانوناً بتحديد الملكيات الزراعية على غرار مشروع كان قدمه أحد الشيوخ المحترمين للبرلمان وإذا كان الحد الأقصى للملكية الذى اقترحه الشيخ المحترم وهو خمسون فداناً لا يرضى أصحاب الإقطاعيات الكبرى فلا مانع من رفع هذا الحد إلى مائة فدان . وإذا لم تر الحكومة الاستجابة إلى هذه الرغبة الآن فلا أقل من أن تسارع إلى استصدار قانون بتخفيض إجارة الأطيان الزراعية وتحديدها .

◆ وحيث قد تبين مما تقدم أن المؤلف استعرض الحالة الاجتماعية فى البلد ونقد منها ما رآه خليقا بالنقد وحسن ما رآه حسنا . فقد نقد الرجعية الاقتصادية والرأسمالية المتطرفة ، وأفصح عما تعانيه غالبية الشعب من فقر وحرمان وما بدا عليها من تذمر بينما قلة من الشعب تنعم بالثراء الوفير ، وعما بدا من كثيرين من هؤلاء السادة من تعال على الفقراء . وهذا الذى قاله المؤلف لا يعدو حدود النقد المباح وليس فيه ما يفيد تحريض طائفة على بغض طائفة أخرى أو أنه قصد إلى شىء من ذلك . بل يبين من ثناياه أنه قصد إصلاح هذا البلد وإسعاد الشعب وهناءته . وقد أورد المؤلف فى كتابه ما يراه من ضروب الاصلاح ودعا إلى اشتراكية رشيدة وديعة معتدلة وقال إن هذه الاشتراكية هى التى تحقق العدالة

الاجتماعية ولا شيء سواها وهو لم يحبذ الشيوعية ومبادئها أو أي مذهب من المذاهب التي تنطوي مبادئها على استعمال القوة والعنف لتحقيق هذه المبادىء ، بل صرح بما ينقض ذلك ودعا الشعب إلى التماس العقل والحكمة والنظام والرفق والتسامح والحنان والأناة والإنصاف ودعا الحكومة إلى العمل على تحقيق ما ارتآه من وجوه الاصلاح .

هذا إلى أن ما ذكره المؤلف عن الفقر وهبوط مستوى المعيشة وما إلى ذلك ليتردد على لسان كل من يسعى إلى الإصلاح ويبتغيه ، وقد سجلته اللجنة المالية لمجلس النواب فى تقديرها عن مشروع الميزانية العامة للسنة المالية الحالية إذ قالت : « إن تنمية موارد الدخل القومى وكفالة العدالة الاقتصادية هى السبيل إلى الاصلاح الاجتماعى الذى يبرىء المجتمع المصرى من أدرانه . وإن مصر تعانى من قلة الإنتاج وهبوط مستوى الدخل ماتعانى وإنه يجب العمل على رفع مستوى الغالبية العظمى من الشعب التى افتقرت ولا تزال تفتقر إلى مطالب العيش الأساسية لكى تحول دون انتشار النزعات المتطرفة إذ ليس ثمة شك فى أن انحطاط مستوى المعيشة وقسوة الفقر والمرض والجهل تربة خصبة لتفشى هذه النزعات وأن السبيل إلى مكافحتها هو رفع مستوى المعيشة لكافة أبناء البلاد فليست القوانين كفيلة وحدها بعلاج الداء ، بل إن العلاج الشافى هو استئصال الداء من منبته بالقضاء على أسبابه . وقد اتجه التفكير إلى تحديد الملكيات الكبيرة كوسيلة من وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية غير أن تجارب مختلف الأمم فى هذا الشأن قد دلت على أن العدالة الاجتماعية لاتتحقق من هذا الطريق وحده إذ فى متناول الدولة تحديد دخل كل طبقة من طبقات الأمة عن طريق فرض الضرائب بأنواعها وعلى الخصوص الضريبة التصاعدية على الإيراد العام .

وحيث إن حرية الرأى مكفولة فى حدود القانون . ولما كان الكتاب المضبوط لا ينطوى على جريمة ما ، فإنه لا يكونُ ثمة محل لضبطه تطبيقاً للمادة ١٩٨ عقوبات ، ومن ثم يتعين إلغـــاء الأمر الصادر بضبطه والإفراج عنه .

فلهذه الأسباب

قررنا إلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب « من هنا نبدأ » لمؤلفه الأستاذ « خالد محمد خالد » والإفراج عن هذا الكتاب .

صدر هذا القرار وتلى علنا فى يوم السبت ١٠ من شعبان سنة ١٣٣٩ هجرية — الموافق ٢٧ مايو سنة ١٩٥٠ .

رئيس محكمة القاهرة الابتدائية
« حافظ سابق »

قصة هذا الكتاب ...

وشاء ربك أن تكون لهذا الكتاب قصة .. تتمثل فيها محنة الفكر وروعة انتصاره ، وترتسم فى أفقها أهداف التقدمية الرشيدة — بيضاء مشرقة كضوء الفجر . . . وأغراض الرجعية البغيضة — سوداء مظلمة كقلب الحقود . . . وتنهض وقائعها شاهدة على صدق أكثر ما فى الكتاب من أفكار وآراء . .

وإذ قد صار الكتاب ملء وعيك البصير ووجدانك الحى ، فقد أصبح من حقك أن تعرف عنه ما لم تكن تعرف . وفى هذه السطور أقدم إليك قصة الكتاب الذى آثره الله ورعاه . . والذى مكنت له بحفاوتك وتقديرك ، فخرج يسعى فى طبعاته المتتالية مزهواً بنعمة الله وتقدير القارىء . . .

* * *

المصادرة الأولى

قبيل استقالة وزارة دولة إبراهيم عبد الهادى « باشا » بسبعة أشهر تقريباً ، وفى ضحى يوم جميل ، كان الكتاب فى طريقه إلى دار النيل للطباعة ، وييسر له مديرها الأستاذ إسماعيل شوقى مشقة التكاليف بما فطر عليه من صفاء نفس ونبل عاطفة .

وفى اليوم الثانى كانت صفحاته الأولى بين أيدى العمال ، وفى اليوم الثالث كانت أولى ملازمه فى إدارة المطبوعات بالداخلية . . ومكثت

هناك ثلاثة أيام ، استدعيت بعدها لمقابلة المسئولين حيث أنبئت أن الكتاب لا يمكن مراجعته « بالقطاعى » . . ولا بد من تقديم أصوله كافة حتى يتسنى الحكم عليه مرة واحدة .

وبعد يومين آخرين حولت الملزمة والملازم الأخرى التى لحقت بها إلى مسئول آخر فاشترط نفس الشرط الذى اشترطه سلفه . . . وقدمت أصول الكتاب جميعاً . . واستودعته إدارة المطبوعات . . . وبعد شهور ذهبت لأتسلمه وأعود به إلى المطبعة عود الظافرين . . . فإذا وكيل المطبوعات يزف إلى فى أسف صادق مرير أنه قد صدر الأمر بمصادرة الكتاب وتحريم طبعه . . . ووقفت أخيراً على أسباب هـــذا المنع — ولحواما أنه رئى فى الكتاب هجوم على رجال الدين وعلى الرأسماليين ، وهذه سمة الشيوعية والشيوعيين . . !

وزج بالفكر فى قبو الظلمات . . فلندعه الآن فى سجنه أو فى منفاه . ريثما نعود إليه أو يعود إلينا .

بلاد من ؟

وكان اسم الكتاب « بلاد من ؟ »

وكانت فصوله خمسة : إنسانيون — الدين لا الكهانة — الخبز هو السلام — أسوار المجتمع — الطريق .

أما فصل « قومية الحكم » فقد رفعته من الكتاب ووضعت مكانه ، أسوار المجتمع .

لماذا ؟ لأن أصحاب الفكرة التى أناقشها فى هـذا الفصل كانوا

يومئذ فى السجون والمعتقلات .. فلم يكن من الإنصاف مناقشتهم بالغيب .

* * *

إفراج

وفى وزارة رفعة حسين سرى (باشا) ـ التمست من الرقابة إعادة النظر فى الكتاب المضطهد الحبيس ، وأجيبت رغبتى ، وأذن لى بنشره وإخراجه ، واخذ طريقه إلى المطبعة من جديد ، وعملت فيه يد الاختزال والتركيز ، وعاد فصل « قومية الحكم » إلى مكانه بعد أن زالت البواعث التى زحزحته عنه من قبل .. واتسم الكتاب بسمة الإيجابية والتوجيه فكان أنسب الأسماء له « من هنا .. نبدأ » .

ووقف صرير المطابع .. وغادرها الكتاب إلى القراء يبث فيهم دعوة السلام والحب والمساواة والعدل والواجب — هادىء الفورة ... حسن السمت ... ثابت الوطأة .. كل غاياته أن ينفى عن الدين تحريف المبطلين . وعن المجتمع ظلم الظالمين ..

عواصف

وليس فى طبائع الأشياء أن يمر بسلام ، كتاب يتحدى حرص الناس ... ومآربهم الدنيا ، ومصالحهم المتيدة ، وتعصبهم المزمن لما لم ينزل به من الله كتاب ولا برهان ، فما إن صدر الكتاب حتى أزجت بعض النفوس جذاذات من الزوابع . تضامت وتآلفت وأمست ركاما قاتما يريد أن يحجب الضوء ويطمس معالمه .. ولكن طبائع الأشياء

أيضاً تأبى أن ينتصر الظلام على النور ، وتوكد أحق توكيد تلك الحكمة القائلة :

« إن ظلام العالم كله ليعجز عن إطفاء شمعة . . ! » وهذا هو الذى حدث .

فلقد مضى موكب الأضواء ممزقا هذا الركام من الضباب ، ساخراً به وبالظلمات . . آخذاً طريقه إلى الوعى البصير الحر يحدثه عن آلامه وآماله ، وينفخ معه فى الفحم الخامد . . ويعلى كلمة الله ، وكلمة الشعب .

محاكمة

وعلى حين غفلة انقض البوليس على المكتبات وضبط نسخ الكتاب تمهيداً لمصادرته ، ووقف الكتاب أمام القضاء متهماً بالخروج على الدين وترويج الشيوعية وتحريض الفقراء على الرأسماليين ! !

— وهنا أستأذنك فى أن أقدم إليك رجلا عظيما . . وقف ثلاث ساعات يناضل دون المصادرة ويكشف عن المؤامرة التى تدبرها الرجعية للإجهاز على الحرية والفكر ، ويستخرج من أغوار الخفاء البواعث الحقيقية التى أثارت شنآن قوم وبغضاءهم . . ذلكم هو الأستاذ الكبير « عبد المجيد نافع » المحامى .

إنه رجل جدير بالشكر الجزيل — فلقد أرجأ كثيراً من واجباته والتزاماته ثلاثة أيام كاملة نذر ليلها ونهارها لقضية هذا الكتاب ، رافضا كل مكافأة مادية . آبياً أن يجعل الدفاع عن « حرية الفكر » طريقا من طرائق الكسب مهما يكن مشروعا . . !

وأخيرا — جاءت كلمة القضاء كهدير المحيط . . قوية هائلة . . وأفرج عن الكتاب للمرة الثانية . . ومضى مستأنفاً رحلته المباركة شاكراً للذين أساءوا به الظن ، والذين أحسنوا .

ولكن . .

ولكنهم يتحدثون عن محاكمة أخرى ستجريها « هيئة كبار العلماء » !! أتراها تريد تكريم الكاتب الذى بذل من ذات نفسه كل جهد مستطاع لخدمة الدين والشعب ، لحرفت الإشاعة هذا التكريم إلى محاكمة !! .

أم أن الجزاء الوفاق اليوم لكل غيور على دينه من الكهانة ، وعلى أمته من الاستغلال ، أن يلتمس له العيب ، وتفتعل له التهم . ثم يقال له : ذق جزاء ولائك لله . . وولائك للوطن ؟ !

حيثما يكون الأمر :

فلن يرتاع من خوض السواقى فتى قد خاض فى البحر الكبير

وإنه لمن حسن الحظ أن التهمة التى تسدد إلى الكتاب هى تلك التى قذف بها كل مصلح جليل الشأن صادق العزم . . كانوا جميعا خارجين على الدين لأنهم أرادوا أن يرفعوه فوق منال المساومة والعبث والتسخير . . وأحيط بهم فما وهنوا ولا جزعوا .

كان زئير الإعصار يزيدهم تشبثا وتفاؤلا ، ويشد فيهم زناد القوة والنضال والاحتمال . وإن الذين جاءوا من بعدهم ليحاولون صادقين أن يسيروا على هذا النمط الرفيع ، وأن يكونوا امتداداً لهذه القوة

الزاخرة التى لاتخشى فى خدمة لله والشعب لوما ولا بأسا . .

وها أنا ذا ، أطوى القصة على ختامها بعد أن طالعتك باهرة متألقة ، إحدى وثائق الحرية والعدل والرق فى هذه البلاد ، ممثلة فى حيثيات الحكم الذى سيظل « منارا » يطارد الظلمات من طريق الحرية والأحرار . .

* * *

وبعد ، فلا يزال زئير العاصفة يلغط ويدمدم . .

ولكن لا بأس ..

فهناك حكمة عذبة تقول :

« خل العاصفة تزأر ..

« وسنخوض الإعصار ..

« ونرسو آخر الأمر على الشاطىء السعيد .

بين يدى الكتاب

انتهت التجارب إلى إجماع أكيد على أن : « الاستبداد هو الأب الشرعى للمقاومة ، وأن الرأى المكظوم يتحول داخل النفس إلى قذيفة خطرة . . . وأن أيسر الطرق لحضارة خصيبة ممرعة ، هو فتح منافذ الملاحة الفكرية ، والقضاء على كل بواعث التهيب فى الشعب .

وقديماً قال « توماس بين » : « حين يطرق الرق باب أمة من الأمم يسأل أهنا فكر حر ؟ فإن وجده دخل . . . وإلا مضى » .

هذه حقيقة أولى .

وهناك حقيقة أخرى تقابلها : هى أن الشعب إذا أساء استعمال حريته ، ومارس حقه فيها ممارسة طاغية ، فقد وقع وثيقة عبوديته ، وأتاح للحكومة فرصة وضعه تحت الوصاية من جديد .

وجدير بنا ونحن فى مبتكر طور حديث من أطوار نمونا ، وفى مؤتنف وثبة نحاول بها اللحاق بموكب الإنسانية الناهضة ، أن ندخل هاتين الحقيقتين فى حسابنا ، وننتفع بكل ما فيهما من معان ودلالات .

ولقد أتى على جماهيرنا الكادحة حين من الدهر لم تكن شيئا مذكوراً . فلما استيقظت من رقادها ، أدركت إلى حد ما حاجتها إلى مزيد من الوعى والانتباه لتستطيع أن تعرف من أمرها شيئاً .

وتقدم إليها من الرواد والدعاة خليط متنافر من ذوى النيات الحسنة ، والنيات السيئة . . . يحملون بضائع مختلفة من المناهج والمذاهب والآراء .

أترى هذه الجماهير التى طال على جهلها وتومها الأمد ، قادرة على التمييز والاختيار ؟ !

إن هذا الكتاب شمعة مهداة إليها لتبصر فى ضوئها وترى .. وكل ما نود أن ننصح به هو أن نبارك هذا الوعى ، وندعه ينمو ويتسلق ، وألا نحاول قط كبحه أو زجره . . . فإن ذلك هو السبيل كل السبيل إلى خلق المجتمع الحر الباسل الذى نريد أن نكونه .

قد تصيب مرة وتخطىء مرات . وتهتدى تارة وتزل تارات ، ولكنها أخيراً سوف تضع أقدامها على صراط الحقيقة والصواب . وتسير فوقه بخطى ثابتة أكيدة نحو أهدافها العادلة غير مخلة بواجب ولا مفرطة فى حق .

والويل للذين يلوثون أيديهم بخنق هذا الوعى الوليد . ويل لهم من الله ومن التاريخ ! فإنهم لا يقضون عليه وحده وإنما يقضون على أجيال بأسرها سيكون هذا الوعى فجر حياتها وبداية خلاصها !

إننا لن نقدم لمجتمعنا فى هذه الفترة الحاضرة خيراً من الحرية . كى يستطيع فى ضوئها وسناها أن يرى . ويفكر ويختار الطريق القويم . فلنذكر هذا جيداً . . . حاكمين ومحكومين .

والتحرر من الخوف — هو نقطة البدء فى طريقنا الطويل ورحلتنا الشاقة .

ومن أجل ذلك يجىء هذا الكتاب فى أوانه ، ليقول للمجتمع : لا تخف ! وليزيح من طريقه تلك الأشباح التى تخيفه ، وتخذله ، وتملؤه روعاً ورعباً — كما يهيب بالمواطنين جميعاً حكومة وشعباً وأفراداً ، أن يتحملوا تبعات الرشد فى شجاعة وغبطة ، وأن يتقبلوا

الواجبات الجديدة التى تفرضها علينا الحياة وظروفها ، وأن يكون كل مواطن منا أداة حية تساهم فى التحول الاجتماعى الرشيد الذى نتوق إليه ، والذى يجب أن يبدأ فورا ويتم سريعاً .

وقد تعجل ، فتسأل : ما هذا التحول الاجتماعى . وكيف يكون ؟

وإن هذا الكتاب ليحاول محاولة صادقة أن يجيب على السؤال ، وهو يرسم الخطوط الرئيسية لتحول اجتماعى وديع يفضى بنا إلى قومية شاملة لا تنافر فيها . . وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها . . . وإلى وعى ناضج سليم لا سلطان للرجعية ولا للكهانة عليه . . . وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حباً . . . وتربصه ولاء وأمناً ، وقلقه استقراراً وغبطة .

وإنى إذ أقدمه لمجتمعنا المصرى ، أقدمه لكل مجتمع عربى ، فإن ما بين مجتمعاتنا من تشابه ، وما بين أوضاعنا من تماثل ، يجعل الحديث عن أحدها حديثا عنها جميعاً .

ونحن مطمئنون للبواعث النبيلة التى أوحت بهذا الكتاب . . والتى تصورها أصدق تصوير كلمة « روسو » : « إن إيماننا بالله ، وولاءنا للانسانية هما اللذان يثيران فى طبيعتنا الخيرة أعمق الحوافز لنجعل من الحيوان البليد المسخر ، إنساناً بشرياً نابهاً » .

ولست أرجو من الذين سيقرأونه سوى أن يؤمنوا بحرية القول وحرية الفكر ، وأن يقرأوا بعقولهم ، لا بعواطفهم ، وألا يصدفهم الرأى المخالف عن تدبره وبحثه فى هدوء ، فعسى أن يكون الحق ويكون الصواب .

والآن لنبدأ معاً .. مزودين بالتفاؤل والتكافل وحسن الصحبة .. إن الليل يوشك أن يتقوض ، ويتولى .

وفجر المستقبل يكافح الظلام فى قوة آخذاً طريقه إلينا . . . ولكن حذار أن يخدعنا الفجر الكاذب الذى يسبقه !

إن السحب تنزاح عن سمائنا .. والغيوم تجرى ... تسوقها رياح الحرية إلى منفاها البعيد . . ومطالع الضوء تتسع رويداً رويداً ، مبشرة بالفجر الصادق والنهار البهيج .

خالد محمد خالد

الدين .. لا الكهانة

« رجل الدين الغبي الجاهل يثير احتقارنا ، ورجل الدين الشرير الردىء يولد الجزع فى نفوسنا — أما الناضج المتسامح ، البعيد عن الخرافات ، فهو الجدير بحبنا واحترامنا » .

« فولتير »

إن تصفية العلاقات بين المجتمع والدين، هى بداية الطريق المفضى إلى النماء والاستقرار .

وليس ثمة ما ينفر الناس من دينهم ، مثل إبرازه فى صورة قوية عائقة لنموهم ، مناهضة لحقوقهم ، مخذلة لطموحهم !

والدين فى المجتمع الإنسانى بأسره يمثل ضرورة اجتماعية لاغنى الناس عنها بيد أن الأمم تتفاوت فى طرائق الانتفاع به ، واستلهام مبادئه وتوجهاته كما تختلف فى حرصها على أن يظل كما أراد له ربه أن يكون : مصدر قوة وإخاء ومساواة ، لا ظهير أنانية وعدوان .

وبقاء الدين متربعاً على عرشه المجيد ، يتوقف على أمرين :

أولهما — تفاعله المستمر مع حاجات الناس ، حتى تستطيع البشرية أن تجد منه عوناً دائماً يمكنها من مواجهة مشاكلها المستحدثة ، وضروراتها الطارئة ، ويبارك محاولتها المستمرة للتقدم والوثوب .

ثانيهما — احتفاظه بخصائصه الذاتية الكبرى ، وأهدافه التى من أجلها شرعه الله وأنزله . . . وهى إسعاد الناس سعادة واقعية فى نطاق المساواة النبيلة التى جاء يعلنها ويحرض عليها .

وإنا اليوم لنسمع صراخا بوجوب العودة إلى الدين . . فإلى أى دين يدعو هؤلاء المتصايحون ؟ !

هناك شىء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى . . . وهى ذات تعاليم ومبادىء ضارة وقاتلة . . ! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبثت به ، بل واستطاعت أن تتطفل

عليه وتخالط بعض تعاليمه . ثم راحت تنفث سمومها المبيدة فى دأب ومثابرة، مباركة الرجعية الاقتصادية والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض . . . ! !

ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التى تحترم دينها ، وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة ، إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة وتنقية الدين من شوائبها ، حتى يظل ولاء الناس له وإعجابهم به . . وإن هذا الفصل الأول من الكتاب ليس سوى محاولة متواضعة فى هذا السبيل . . نريد أن نميز بها بين الكهانة الكئيبة والدين الرشيد . وبذلك نتيح فرصة للذين صرفتهم الكهانة عن الدين ، كى يجربوه مرة أخرى . . وسوف يجدون منه فى صورته الصحيحة زميلا مؤنساً مسعداً فى رحلة الحياة كلها .

وإنا لندعو المتصايحين بضرورة العودة إلى الدين ، والمتظاهرين بالغيرة عليه ، أن يسلكوا هـــذا الطريق ، فيعمل كل فى نطاق إمكانياته على بث تعاليم الدين الصحيحة ، وتطبيق مبادئه الإنسانية تطبيقاً يرفع عن المجتمع إصره وأغلال الضرورات التى تجعل حياته عبثاً لا يطاق .

والآن . إلى أى شىء يدعو الدين . . ؟

ولكن قبل ذلك . . ما هى الكهانة . .

السلالة المتشائمة :

حين ننصت إلى العلامة « هـ . ج . ولز » وهو يحدثنا فى كتابه

« معالم تاريخ الإنسانية » عن نشأة الكهانة ، ويصور لنا ملامحها ، يأخذنا العجب لكثرة المشابه القائمة بينها وبين الكهانات المتفشية فى بلادنا !! ونقف على تفسير على صحيح للرجعية المعمنة فى التقهقر التى تتميز بها الكهانة المعاصرة .

فإلى أى شىء تدعو الكهانة . . ؟

نستطيع أن نعرف الجواب ، من مناوأتها الحادة لرغبات المجتمع وطموحه . . . فعند ما اشتد إحساس الشعب ببؤسه وخصاصته ، وتضرم شوقه إلى « عدالة اجتماعية » يستجم فيها من وعثاء لغوبه الطويل ، وبدا كأن الفرص تستجيب له .

رأينا الكهانة المصرية تنتهج مذهباً عجباً . . إذ راحت تمطر الناس بخرافاتها ، وسال جشاؤها سيل العرم حاملا مبادئها الحزينة المدبرة داعية الناس إلى القناعة المقدسة . بيد أن الكهنة أنفسهم ألد أعداء القناعة ! ! وأسبق العالمين إلى اقتناص المغانم ، والبحث عن المال والجاه !

وهذا خلق لها قديم كشف عنه العلامة « ولز » فى كتابه الجليل .

وإنه لأمر يثير الاشمئزاز . أن يخرج العالم جميعه من الحرب الأخيرة مجنداً كافة مواهبه ورجاله وإمكانياته لإنعاش الشعوب وتهيئة حياة ممرعة لها ، ونرى كل أمة تعمل داخل بلادها وخارجها كى تحقق هذا الهدف ، ونسمع الدول الرشيدة جميعاً تنادى : بأن المعدة الممتلئة هى العلاج الحاسم لمشاكل العالم . . نسمع هذا ونراه ولكن الكهانة تأبى أن تسمع وترى ! ثم تبهر الناس باكتشافها البديع

الذي سيضمد جراح الإنسانية ، ويدفع عنها إصرها ، ويجعلها فى غنى عن كل النظم والمذاهب والنظريات .

أجائع أنت وعريان . . ؟

أمريض أنت أو جاهل . . ؟

وهل يستبد بك القلق والحيرة والتذمر ؟

لا تأسوا أيها المرضى والمحرومون والمستضعفون . . .
إن الكهانة ستبدل خوفكم أمنا ، وفقركم ثراء ، وسقمكم عافية بهذه النظرية الرائعة « جوعوا تصحوا » ! !

هذه هى دعوة الكهانة ورسالتها . . . ! وهى قادرة على أن تقنعك بأن « الفقر محبوب » ! الفقر الذى كان رسول الله يصبحه باللعنة ويمسيه . . والذى يقول فيه على بن أبى طالب : ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر . هذا السوط الممزق الكاوى ، تدعوه الكهانة « بالفقر المحبوب » وهى لا تألو جهداً فى التبشير به والدعوة إليه . . . ! !

ولا أزال أذكر ، يوم طالب الأزهريون ببعض حقوقهم المادية ، كلمة لأحد أولئك نشرها فى صدر صحيفة يومية وقال فيها : « إنه ليحزننا اهتمام الأزهريين بالأرزاق والدرجات . إن العلم والدنيا لا يجتمعان فى قلب واحد . . . فليختر الأزهريون لأنفسهم : إما العلم وإما الدنيا » . مع أن ذلك السيد يملك عمارة فخمة ، وموارد ثرة وتساقط عليه الأوقاف والعطايا . . فكيف اجتمع الدين والدنيا فى قلب هذا العبقرى الفذ ؟ !

ولقد قامت طائفة مثقفة من العلماء والكتاب بإطلاق « مدفعيتها الثقيلة » على الدعاية الخبيثة الضارة التي تستغلها الكهانة لصرف الشعب عن حقوقه في الحياة ، لذلك لا أجدني في حاجة إلى تكرار القول في هذا الموضع ، وحسبنا أن نكتشف البواعث التي تحفزها إلى إحاطة المظالم الاجتماعية بأسوار شاهقة من الأكاذيب والخرافات : ثم نكشف عن أهدافها وغاياتها الخفية التي تعمل لها ، ونقيم الدليل على أن تقويض المجتمع نتيجة لابد منها إذا ظلت هذه الكهانة سادرة في طريقها تؤيدها الحكومة وتعزز سلطانها .

والآن . . . نتقدم بهذه الأسئلة :

ماذا تريد الكهانة بدعوتها الناس إلى الفقر ؟

ولماذا تسخر نفسها للدفاع عن مصالح الكبار ؟

ولماذا تكافح كل محاولة لتحول اجتماعي يريده المجتمع ويتضرم شوقاً إليه . . . ؟

سندع العلامة ولز يجيب على هذه الأسئلة ، مكتفين بأن نقول: إن الكهانة تتجه هذا الاتجاه بدوافع تقليدية مزمنة . . إذ هي امتداد للكهانة الأولى التي تميزت بخصائص تركزت في طبيعتها واستقرت في أعماقها ، وأصبحت فيها كالغرائز تتوارثها سلالتها المتتابعة المتشابهة .

يقول ولز : «كان الكهنة يلقنون الناس أن الأرض التي يزرعونها ، ويدأبون فيها ، ليست لهم وإنما هي للآلهة التي في المعابد . . وقد يهبها الآلهة « للحكام » ويهبها « الحكام » لمن يشاءون من خدمهم وموظفيهم .

« . . واكتشف الرجل العادى شيئاً فشيئاً أن الرقعة التى كان يزرعها ، لم تكن له ، إذ كان الرب مالكها . . وعليه أن يدفع جزءاً من محصوله للرب . . أو أن الإله قد وهبها « للحاكم » وللحاكم أن يفرض عليها ما يراه من الضرائب . أو أن « الحاكم » قد منحها إلى موظف . هو سيد للرجل العادى . . وكان للرب أو الحاكم أو السيد فى بعض الأحيان عمل يجب قضاؤه . وكان لزاماً على الرجل العادى عند ذلك أن يترك رقعته ويشتغل لمولاه . . ! ولم يحدث قط أن تحدد فى ذهنه ولا أن اتضح لديه تماما أمر رقعة الأرض التى كان يزرعها . وإلى أى حد كانت ملكيته لها . . »

« . . وفى مصر كانت المعابد . أو « فرعون الرب » . أو من دون فرعون من النبلاء . هم الذين يتلقون الإيجار .. ولم يستطع الرجل العادى أن يحافظ على النسبة بينه وبينهم . فانحط بدرجات غير محسوسة إلى حال تقليدية مزمنة من التبعية والخضوع .. » .

« .. وبلغ الأمر أن كبار الفاتحين فى العصور الأكثر تأخراً ، كانوا حريصين على أن يضعوا أيديهم فى أيدى كهنة الشعوب والمدائن التى يبتغون طاعتها .. مظهرين بذلك ثقتهم بهم وإكبارهم إياهم . بسبب عظيم نفوذ هؤلاء الكهنة على عقول الناس » .

« .. وكان بعض الكهنة من القساة الغلاظ الأكباد . وبعضهم من ركب على الطمع والفساد .. وكان سلطان الكهانة يقوم فى نهاية الأمر على إقناعها الناس بأن كل أضرب نشاطها تتسم بالعطف والرحمة . ! » .

إذن ليس للرجل العادى من الأمر ، ولا من الحياة . ولا من الأرض شىء ؟

وإنما كل ذلك منحة ينالها بعض المحظوظين بالطريقة التى سبق ذكرها ..
وعلى الذين حرمتهم الآلهة من خيرات الحياة أن يسمعوا ويطيعوا ، ويتجرعوا الغصة فى صمت . ويطرقوا على المضض فى رضا وهوان !

هذه هى تعاليم الكهانة منذ آلاف السنين .. فهل تراها تغيرت ولو قليلا؟

إن الرجل العادى . رجل الشارع الكادح الدءوب .. لا يزال فريسة هذه الكهانة تدعوه إلى الرضا والتسليم ، بل وإلى الاغتباط بما هو فيه من سغب وشقاء ! ويتفاوت تأثيرها حسب تفاوت الوعى بين ضحاياها .

ففى اليمن مثلا نرى الكهانة صورة طبق الأصل لتلك التى حدثنا عنها «ولز» ، ونرى الرجل العادى هناك هو نفس الرجل العادى القديم .

ولقد حدثنى صحفى زار اليمن قبل ثورتها الأخيرة . أن أكثر ما راعه هو أن ينسب الناس كل شىء للامام . فيشير الرجل إلى بعيره ويقول : هذا بعير الإمام ، وإلى حماره : هذا حمار الإمام .. وبئر الإمام ، وأرض الإمام ، وغنم الإمام ! ..

وهكذا تعمل الكهانة على إذابة شخصية الأمة ، وتهوى بها إلى درك سحيق من التبعية والخضوع كيما يسلس قيادها ، وتسير من ورائها مرتلة :
ياعمرو ، أنت إمامنا وخليفة النفر الأوائل ..

وهى فى كل عصر وجيل تشعر بأنها حارسة هذا التراث الخالد ، والمسئولة عن ابقاء السادة سادة ، والعبيد عبيداً .

هذا هو منهجها ، وتلك شرعتها منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد وهى مدفوعة اليوم ، وكل يوم ، لالتزام هذا المنهج بدوافع شبه غرزية لا تعرف مأتاها . ولا تستطيع تفسيرها .. لكنها الآن فقط تستطيع أن

تعرف .. والكهنة المعاصرون قادرون ، بعد أن يقرأوا ما كتبه « ولز » على أن يضعوا أيديهم على الحوافز الشريرة التى تدفعهم لاقتراف آثام باغية ، وأن يحاولوا تعليتها وترويضها .

* * *

اشتراكية الصدقات :

ليس من الإنصاف أن نظلم الكهانة فننعتها بالجمود المطلق ، فإن لها مرونة خارقة تمدها دائماً بإمكانيات التفاعل مع التطور وتلبي — على طريقتها — حاجات المجتمع .. ؟

ماذا يريد الناس ؟ أيريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى الكهنة اشتراكية « جاهزة » ، وهم مستعدون أن يجودوا بها عليهم ليعيشوا فى ظلها أعزة شامخين كرماء !

تلك هى « اشتراكية الصدقات » !

فالصدقة فى نظر الكهانة نظام اقتصـــادي واف ، ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر وإسعاد الشعب ومطاردة متاعبه وشقائه ، وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان فى كل مناسبة حتى لتكاد تشك : هل أنت فى مجتمع أم فى ملجأ ؟ وإنى لأصفق بكلتا يدى لهذا الكشف الرائع الذى كشفه ولز فى طبيعة الكهانة حين قال :

« وكان سلطان الكهانة يقوم فى نهاية الأمر على إقناعها الناس بأن كل أضرب نشاطها تتسم بالعطف والرحمة » فالكهانة حين تسلب الناس أعز ما يملكون من كرامة وحق ، تحاول أن تعوضهم عن ذلك بإبداء

بعض مظاهر العطف والرحمة ، ولكنها رحمة لا تخرج عن نطاق سياستها المرسومة . وهى أن العبد عبد والسيد سيد : وغاية ما يستحقه العبيد من الرحمة والعطف إنما هى الصدقة . حيث تمتد اليد السفلى لتلتقط ما يهبط عليها من اليد العليا . والمؤلم أنهم يظلمون الإسلام ظلماً فاحشاً إذ يتكلمون باسمه ، ويكاد الذى يستمع إليهم يخدع فيصدق أن الصدقة هى كل ما يستطيع الإسلام أن يقدمه للشعوب من عدالة وبر ومساواة ..

ولكن هل هذا صحيح ؟

معاذ الله أن يرضى لعباده المذلة والهوان . إن الإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعى ، لم تكن الصدقة فى حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب .. بل هى شىء يشبه « أكل الميتة » فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك الرمق .. ولكنها لا تعالج هبوط المستوى المعيشى للأمم والجماعات .

هذه بديهة يعرفها الذى عرفوا محمداً ، ودرسوا نفسه العالية ، ودينه القويم .

فلقد وضع عليه السلام الصدقة فى مكانها اللائق بها حين قال :
« إنها أوساخ الناس .. إنها غسالة ذنوب الناس » .

فكيف نتصور أن يرفع الإسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ !

إننا نلقى على الأمة أعظم درس فى الهوان والضعة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هى الصدقات .

لقد رأى رسول الله حفيده الحسن يمد يده نحو تمرة من تمر

« الصدقة » ويدفعها فى فمه ، فانتزعها منه وهو يقول له : « كخ . كخ إنها لاتحل لمحمد ، ولا لآل محمد .. إنها أوساخ الناس !! » .

فهل كان آل محمد طبقة أرستقراطية خاصة تأنف الهوان وتستنكف عنه ثم تبيحه لبقية الناس . ؟

كلا .. وإنما هو مثل راح يضربه محمد بهذا المجتمع الصغير ، الذى هو أسرته .. للمجتمع الكبير ، الذى هو أمته ..

فإذا كانت الكهانة تدعو الشعب إلى التسول ، والأغنياء إلى التصدق عليه ، فالدين على نقيض ذلك .. إنه يقول للشعب : كخ كخ .. إن الصدقة أوساخ الناس لاتحل لأمة رفيعة كريمة .

ولقد كان الشافعى رضى الله عنه يفضـــل الأكل من شبهة على الأكل من صدقة ، ويقول عنها : « إنها تذر البطون عليلة ، والنفوس ذليلة » .

وكانت الصدقة[1] ـ بمفهومها الكريم ـ فى عصر الرسول وفى لغة القرآن تعنى ضريبة مفروضة هى ضريبة الزكاة التى نزل فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، وأما ما وراء ذلك من الهبات والتبرعات فكان الرسول يعالج بها ضرورات أخرى طارئة فى مجتمعه الذى لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظم المفصلات ، ولقد كان الرسول يخشى أن يفهم الناس أنّ الصدقة ـــ التى هى إحسان ـــ مصدر مشروع من مصادر

---

(١) هذه العبارة دفع لاعتراض قد يقوم بذهن القارىء ، وهو كيف نوفق بين تنفير الرسول من الصدقة وقول الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة » فأردت أن أبين أن الزكاة وإن سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف لأنها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافلة من نوافل البر والإحسان .

العيش والارتزاق فكان يدعهم عنها دعا ، ويزجرهم زجراً .

إن « سدنة الكهانة » حين يدعون باسم الدين إلى « اشتراكية الصدقات » يقعون فى شرك خطير .. فمعنى هـذا أنهم يجعلون الصدقة نظاماً اقتصادياً مشروعا ومعناه أيضاً أنهم يفتحون باب المسألة على مصراعيه .. لأن الذى يقول لى : الصدقة مصدر رزقك المشروع .. يقول أيضاً : احرص على هـذا المصدر واسع إليه ، وتهافت عليه ، وتشبث بوسائله وأسبابه . وما وسائل الصدقة الغالبة إلا المسألة والإلحاف .. مع أن الرسول عليه السـلام ظل يذم المسألة حتى كاد يجعلها كفراً .. فهو القائل :

« المسألة كلوح فى وجه صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة .. فإنما هى رضف من النار ملهبة » .

وبايع بعض أصحابه على : ألا يسألوا الناس شيئاً .. « وإن سقط حبل أحدكم فلا يسألن أحداً أن يناوله إياه ! » .

وفى الوقت الذى حقر فيه الصدقة والمسألة .. راح يمجد العمل وحده . فيقول لحكيم : « اذهب . بارك الله لك فى صفقة يدك » ويأمر الأنصارى الذى لم يكن يملك من أثاث منزله سوى « حلس نلبس بعضه .. ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء » أن يأتى بهما .. ويقف الرسول يبيعها بالمزاد . فينادى : من يشترى .. ؟ فيقول رجل : على بدرهم .. فيعيد الرسول الكرة من يشترى .. من يزيد ؟ ثم يبيعها بدرهمين .. ويأمر الرجل أن يشترى بأحدهما طعاما وبالآخر « آلة العمل » ويأمره أن يعمل .. فيعمل وينجح .

فالدين الذى يحقر المسألة . ويمجد العمل ، ويأمر أن يأخذ العامل حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شىء ، لا يمكن أن يعالج

حقوق الشعب فى الحياة بالصدقات ، كما تحاول الكهانة اليوم أن تفعل .

وإن اشتراكية الحقوق والواجبات ، لا اشتراكية الصدقات ، هى التى تستطيع أن تجتاز بنا الإعصار ، وتهزم العاصفة ، وتبلغنا المرفأ السعيد .

المغفلون النافعون :

واقد ظلت الكهانة ، ولا تزال ، ينحسر طوفانها عن طائفة ترسبت فى القاع نستطيع أن نسميها « المغفلين النافعين » يدعون بدعوى الجاهلية الأولى ، بل الجاهلية التى قبل الأولى .. ! ويتمادون فى الفلسفة الكهنوتية الكئيبة ، فيدعون الشرق كله ، والشرق وحده ، إلى نبذ المادة المضللة ، والاعتصام بالروحانية ، نتخذ منها كساءنا وغذاءنا ، ونسود بها الدنيا ، ونصبح ملأها الأعلى ، وملائكتها المقربين .. ! !

وقبل أن نتحدث بإيجاز عن هذه الفكرة الخبيثة المدمرة . . . أود أن أعتذر للمغفلين النافعين عن هذه التسمية ، وأوضح لهم معناها والمقصود منها .

فنحن — أولا — نريد بالمغفل ، الغافل .. من الغفلة .. لامن التغفيل .. ولعل من الطريف أن أسوق هنا اصطلاحا وأزهريا علميا ، يزيد هذا التفسير وضوحا .

فلقد كنا ، ونحن نطالع الكتب المؤلفة عن « رجال الأثر والحديث » الذين رووا أحاديث رسول الله ، نلتقى بعبارة تضحكنا كثيراً .. إذا يقول المؤلف أثناء عرضه لتاريخ راو من هؤلاء الرواة :

« .. فلان هذا .. صالح ، مخلص ، صادق ، قانت . ولكننا لا نأخذ بروايته .. لأنه كان — رضى الله عنه — مغفلا » ، يعنى غافلا .. فلا نضمن أن يلتى فى نوبة من نوبات غفلته وسهوه بأحاديث مصنوعة موضوعة ، وفتاوى مخطئة ، وأفكار مغلوطة .

والمغفلون النافعون الذين نتشرف الآن بالكتابة عنهم من هذا القبيل فهم قد يكونون مخلصين ، صادقين ، قانتين ؛ ولكننا لا نستطيع الاطمئنان إلى تفكيرهم ؛ لأنهم مغفلون ..

هذا .. أول ..

والأمر الثانى — أن هذا اللقب اصطلاح « دولى » تعرفه وزارات الخارجية فى الدول الكبرى ذات الأطماع الاستعمارية .. فلقد قرأت لكاتب أمريكى أن فى وزارة الخارجية البريطانية « ملفات ودوسيات » ضخمة تعرف بملفات « المغفلين النافعين » ، وهم الذين يخدمون الاستعمار خدمات جلى من غير قصد ، وبحسن نية ! ! وذلك بأن يذيعوا فى صفوف أمتهم أفكاراً ، أو يتصرفوا تصرفات من شأنها أن تفضى إلى تركيز الاستعمار وتهيئة الجو له ، دون أن يقصدوا هم هذه الغاية ، أو يعملوا لها .

فالعالم ، الذى ينحرف بالدين عن غايته التى هى إنهاض البشرية وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والإلحاد والاستعمار .

والرجعى ، الذى يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الشعب كالمومياء المحنطة لا تدب فيها الحياة ، ولا يجرى فى عروقها دم جديد ، مغفل نافع للاستعمار والجهل .

والصحفى ، والـكاتب ، والخطيب ، الذين يتخذون من أقلامهم وألسنتهم أمصالا يطعمون بها الشعب ضد الإحساس بالحياة وضد الشعور الجياش ، والحنين الوثاب إلى الحقوق المفقودة .. هؤلاء أيضاً مغفلون نافعون لقوى الشر التى تعمل ضد سلامة المجتمع وأمنه ورفاهيته . ولـكن شر سبط فى سلالة « المغفلين النافعين » وأبعدهم أثراً فى مصير الأمة ومستقبلها .. أولئك المبشرون بالروحانية الـكاذبة ، الداعون لها .

فلنتحدث إذن عن هذه الروحانية ، وهذه البدعة التى تطل علينا بوجهها الضامر كلما أذن بيننا مؤذن : حى على الحياة .. ! .

وأود أن يكون مفهوماً أننا لا نسوق الحديث عن هؤلاء سخرية وتفكها وإنما هو « خطأ » نريد أن نلفت الأنظار إلى مكافحته ، فإن هذه الفـكرة البلهاء ، التى تزعم أن الروحانية هى علاج الشرق الوثنى ، وأن « المادة » ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وليست أثراً من آثار المادية المنظمة المفعمة بالرغد والرفاهية .

هذه الفـكرة الساذجة تجد لها أنصاراً كثيرين ، وتخدع حتى بعض الذين كان يظن أن لهم من ثقافتهم وعقولهم عاصماً .

ففى أمسية غابرة شهدت بأحد الأندية الثقافية الممتازة بالقاهرة محاضرة عن « التربية القومية » وأثير ليلتئذ الحديث عن الروحانية كوسيلة هامة من وسائل هذه التربية ، وأتيح لى التعليق الخاطف على الموضوع . . حيث ذكرت أن الروحانية ، كما يفهمها « سدنة » الـكهانة اليوم ، ليست سوى « عملة زائفة » يراد بها طرد العملة الصحيحة من السوق . . . والعمـــــلة الصحيحة التى يراد

طردها بالروحانية ، هى إيمان الشعب بحقوقه ، وإيمانه بالحياة ورغبته النهمة فيها ، وإصراره عليها . ولقد روعت ليلتها حين اكتشفت أن خمسين فى المائة من المستمعين المثقفين قد طعموا ضد هذه الحيوية الباعثة ، والفكرة الخالقة ، وراحوا ضحية المصل اللذيذ المسكر الغاش ، مصل الروحانية المدبرة .

وقبل ذلك : منذ عامين تقريباً ، شهدت ميلاد فكرة ، تواثق بعض الأدباء على أن يتبنوها ، ويكفلوها ويبشروا بها ، وهى أن الشرق خلق ليكون ، مصدر روحانيات ، ويجب أن يظل كذلك ، وكذلك فحسب ، وأن « استيراد » المبادىء الغربية ، أيا كانت ، ضلالة لا تليق بجلال الشرق وسموه .

قلت لبعضهم ليلتها . واستيراد المخترعات أيضا . لا تنس أن تضيفه إلى قائمة المحظورات ، حتى يبلغ جلال الشرق مداه .. !!

لا روحانية مع الحرمان :

والآن فلنسأل : ماذا يريد « المغفلون النافعون » بالروحانية ؟

إنهم طبعاً لا يقصدون إطلاق البخور ، وتلاوة الرقى ، ومخاطبة الجن واستحضار الأرواح .

وهم ينشطرون شطرين ، يسير كل شطر منهما فى اتجاه . .

فيعنى بعضهم بالروحانية : العزوف عن الدنيا ومباهجها . . ويريد الآخرون بها : الفضائل النفسية ، والمعنويات النبيلة ، التى تجعل صاحبها إنساناً فيه من التسامح ، والإخلاص ، والإيثار ، وحب الغير ، ومحبة السلام شىء كثير .

وهذا الفريق الثانى هو الجدير بأن يناقش . أما الأولون فقد رثت حبالهم ، وأصبح كثير من الناس يدركون بالخبرة أو بالفطرة أن فسلفتهم هذه ليست سوى « دخان تقذف به مداخن متهدمة » ولسنا نزعم أن ضحاياهم صاروا من القلة بحيث لا يؤبه بدورهم ، فإن ضحاياهم لا يزالون يبلغون من الكثرة درجة مقلقة بشمة تبعث على الأسى والشفقة . ومن أجل هؤلاء الضحايا وحدهم سنقول لهذا الطراز من « المغفلين النافعين » كلمة ونحن نجرى :

إن عصر الزهد والموت قد انتهى وتقوض ونحن اليوم فى عصر الحياة ، وإذا كنتم مصرين على مذهبكم الباطل فادعو إليه باسم الكهانة لا باسم الدين ، فالدين لم يجىء ليجعل من الحياة البهجة المشرقة مقبرة نقضى أيامنا فى صوامعها ولحودها ، ولكنه جاء يهتف ، ويدق أجراس الصباح للنوام صائحا فيهم : إليكم زينة الله وطيبات الدنيا ومسرات الحياة .

وإذا كنتم تلوحون لنا بأحاديث رسول الله ، فإنا نحترم رسول الله ، ونحترم أحاديثه ، ولكننا نمتهن فهمكم لها ، فالصحيح من هذه الأحاديث ليس سوى « توجيهات استثنائية » لظروف استثنائية .

والراسخون فى العلم يعلمون أن هذه الأحاديث مجازية المعنى ، يراد بها «علاج وقتى» يبث فى نفوس المحرومين مع حفزهم فى الوقت نفسه على الاستيقاظ والاستمتاع بالحياة . . . وإذا أنتم رفضتم هذا التفسير الصحيح ، فإنكم تنكبون أنفسكم نكبة مروعة ، فإننا نستطيع بأحاديث أخرى صحيحة ، أن نجردكم من رصيدكم فى البنوك وإقطاعياتكم فى القرى .. ومن كل مظاهر الأبهة التى فيها تحيون وفيها تموتون .. !!

وإليكم بعض هذه الأحاديث :

يقول عليه الصلاة والسلام : « إن خليلي عهد إلى أن أيما ذهب أو فضة أوكئ عليه (كنز وادخر) فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل » .

وكان عليه السلام يقول : « إنى لألج هذه الغرفة .. ما ألجها إلا خشية أن يكون فيها مال فأتوفى ولم أنفقه » .

وأتى يوماً بجنازة ، ثم أتى بأخرى ، فقال : « هل ترك من دين ؟ قالوا : لا . قال فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : نعم ، ثلاثة دنانير . فقال الرسول وهو يشير بأصابعه : ثلاث كيات » .. !

وبعد فما قولكم دام فضلكم ؟ إذا كانت هذه الأحاديث تقرر مبدأ واجب النفاذ . فأطلقوا إذن سراح الأموال المكدسة فى خزائنكم وإن تك مجازات ذات دلالة وقتية طارئة فكذلك قولوا فى الأحاديث التى تكلمت عن الفقر البغيض .. الفقر التى تمجده الكهانة وتسوق الملايين إلى مذبحه الرهيب ! .

ولننتقل للآخرين الذين يريدون بالروحانية فضائل النفس وإشراقها لنسألهم : هل تستطيع النفس المغمومة المشتتة أن تجد حلاوة الإيمان وصفاء الروح ؟ .

هل يستطيع الإنسان الذى اختلت غدده ، واجدبت خلاياه أن يكون ذا سلوك وديع ؟ .

هل يستطيع المحروم الذى لم يجد من الفرص ما يثقف نفسه ويربيها ، ويطعمها ويسقيها أن يصير إنساناً فاضلا ؟

وهل تعلمون أن رسول الله كان يتعوذ ملء نفسه وإلحاحه من

الدين ويقول : إنه يحمل الرجل على أن يحدث فيكذب ، ويعـــد فيخلف ؟ .

وهل تعلمون أن تسعة أعشار مجتمعنا يرزحون تحت أعباء ديون ثقيلة مبهظة ، وهم لذلك يتحلون بفضيلة الكذب والإخلاف . . ؟ ! !

وأن تسعه أعشاره أيضاً ضعاف عجاف مهازيل قد جعلت منهم الأمراض وسوء التغذية نماذج حية للعقد النفسية والسلوك المنحرف ؟ ياليتكم تعلمون . . . ! !

لقد أثبت العلم بتجاربه التي لاريب فيها . أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته وتركيبه وأجهزته . . . وليست شيئاً يناله صاحبه بدعوة صالحة أو موعظة رقيقة . . . وليست شيئاً يهبط من السماء فيصيب أقواما ويخطىء آخرين ! وما السلوك البشرى كله : خيره وشره ، صالحه وفاسده ، إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقلية .

فالشخص المريض الذى هبطت طاقة خلاياه العصبية . لأنه لا يجد غذاء كافياً ، والشخص الجاهل الذى لا يجد فرص التربية الكافية . . . لا يمكن أن تصدر عن أحدهما تصرفات سليمة ، فضلا عن أن نعثر داخل إهابه على فضائل يانعة وروحانية مشرقة .. لأن المرض والحرمان يفقدانه سكينة النفس وغبطتها ويمتصان من روحه العزيمة والأمل .

وفى هذا يقول دكتور إدوار سبنسر كولز فى كتابه « لا تخف » : « إن كل تغيير فى الخلية العصبية مهما تقل درجته ، يتبعه لا محالة تغيير فى نفسية صاحبها » .

ويضرب مثلا ، رجلا سكيراً بلغ فى الإدمان درجة حطمت

كل مقوماته ، ومحت خصائص نفسه أو كادت ، وجردته من كل خلق وفضيلة ، وروحانية طبعاً .. ولما عجزت المواعظ والزواجر عن إنقاذ هذا المغلوب على إرادته وأمره ، صاح العلم : إن العلاج يجب إن يبدأ من الداخل .. حيث الخلايا المجدبة ، والأعصاب المنهوكة ، والغدد المختلة ! .

وهناك فى غرفة العمليات ، أجرى دكتور « كولز » عملية بزل السلسلة الفقرية التى تخفض الضغط فى السائل المخى ، فتتغير بذلك كيمياء المخ ، ونجح نجاحاً باهراً ، ورد للمريض ، ولا يزال يرد لأشباهه عافيتهم البدنية ، فتعود تبعاً لها عافيتهم النفسية ، وتعود الأخلاق الطاهرة والروحانية الغامرة .

وما هنالك ريب فى أن هـذا الذى ينطبق على الفرد ، ينطبق على الجماعات والمجتمعات : فالمجتمع المتمتع بعافية اقتصادية ، هو الذى تزدهر فيـه الفضائل أما المجتمع السغبان المضنى ، فلا وجود فيـه للفضيلة ، ولا للروح . . . إن الرخاء هو الجهاز وهو الغدد ، وهو الخـلايا التى تحيا بها الشعوب .

أليست الروحانية تعنى السلام والإخاء والمحبة ؟ وكيف السبيل إليها فى جماعـة يؤجج الحرمان فى أنفسهم نار البغضاء والحقد والتشاؤم من الحياة وأهلها ! . هـــذه حقيقة أدركها رواد الروحانية أنفسهم ، وعبر عنها أبو ذر الغفارى أجمع تعبير حين قال : « إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر خذنى معك ؟ » . كما عبر عنها توماس بين فى آيته الخالدة : « إن الفقر ليتحدى كل فضيلة » .

كما عبر عنها أيضاً « عبد الله بن المبارك » الصوفى الزاهد العالم ، الذى كان يقلب الذهب بكفيه فى غبطة ويقول : لولا هـذا لتمندل

بنا هؤلاء — مشيراً إلى قصور الأمراء — ولانخـذوا نفوسنا الشم سخرياً ! ؟ » .

قد تعرف الكهانة ذلك ، وقد تجهله أو تتجاهله . وأياً كان الأمر فالنتيجة واحدة ، لأنها لا تصدر عما تعلم ، بل عما تريد .. وهى تريد دائماً أن تكون لها الكبرياء ، والطريق لذلك هو تجريع الناس هذه الجرع التى تذهلهم عن أنفسهم ، وعن حقوقهم .. وهى كما قلنا من قبل تعمل بدوافع شبه غرزية لتمكن العالين فى الأرض من القبض على أعناق المجتمع الذليل ، وإبقائه منطقة نفوذ دائم لمصالحهم المادية .

وإن عجبنا من فلسفة « المغفلين النافعين » فى الروحانية لا يكاد ينتهى ، لأن فلسفتهم هذه لا تريد أن تؤذن بانتهاء !

لقد كتب أحدهم يوما ، ومن المؤسف أنه كاتب كبير ، يقول : « إن الروحانية أسعدت الشرق رغم فقره وقعوده ؟ والمادية أشقت الغرب رغم ثرائه ورقيه ! ! » .

وكتب كاتب كبير آخر : « إن الروحانية تدعو أبناءها أن ينظروا دائماً إلى السماء ، وأما المادية فتعلم أصحابها النظر إلى الأرض » !

وفات هذا الكاتب المبدع ، أو نسى ، تلك الحكمة القائلة : « إن الذين يقفون على الأرض ينظرون إلى السماء ، أما الذين فى السماء ، فينظرون إلى الأرض » !

فالروحانيون ينظرون إلى السماء ، كما يقول حضرته . ولكن لماذا ؟ لأنهم على الأرض ! .. أما الآخرون السعداء فينظرون إلى الأرض لأنهم فى السماء ..

إن الكلمة الأخيرة التي سنقولها للشعب دائما ، هي أن طاقته الروحية وليدة طاقته الإقتصادية ، وأنه مالم تطاوعه الفرص ، ويحي في غير حرج ولا فاقة ، فلن تكون له روح .

هذه روحانيتنا :

وقد يخطر لجماعة « المغفلين النائمين » أننا نغبط قدر الجانب الروحي ونضائل من قيمته . ولكن كل سطر من كلماتنا هذه يدل على مدى اعترافنا به وإدراكنا لفائدته . . فقط كما نفهم نحن لا كما يفهمون .

فالإنسان كما تقول المستشرقة الفاضلة كاترين هنري : « مفتقر دائماً ، إلى الوحي والإلهام في حياته الفردية والإجتماعية . والروحانية هي التي تكمل النقص من هذه الناحية وتطلق القوى الكامنة في طبيعة الإنسان من عقالها وتوجهها إلى متجهات في الحياة نحو اقه ونحو محبة الإنسان وخدمته » .

وإنا لنرى أن طبائعنا تظل بغير تهذيب وصقل حتى يتاح لها التمكن من هذه المحاولة الأدبية الرفيعة التي نسميها « بالروحانية » فتنقيها من شوائبها ، وتصقلها ، وتهبنا صفاء العقل ، وغبطة النفس ونور الشخصية . وتفتح لنا آفاقاً من المعرفة ربما كان العقل وحده عاجزاً عن كشفها . كتلك الإلهامات التي تومضها فينا أحيانا ، والتي أومضتها في نفوس العباقرة والمخترعين فكانت هذه الحضارة المتيدة ، وإنا لنؤمن بأن كل رقي لا يتخلل نسجه هذه الخيوط من النور ، فإنه يحجب وراءه تدهورا منتظراً ، وانحطاطاً سريعا .

هكذا نقول ، وبه نؤمن . . . ولكن الطريق إلى هذا الإشراق الروحي وإلى السكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة : ما هو ؟

أما في رأينا فهو الرخاء الاقتصادي الشامل ، ثم بعد ذلك ، أو معه ، التربية النظيفة الباعثة ، وما لم تتغير أوضاعنا الاقتصادية ، وتترق ، فهيهات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته .

وربما يستطيع بعض الأفراد أن يتغلبوا على مشاق بيئتهم وظروفهم ، ويكتسبوا لأنفسهم رغم متاعبهم وآلامهم حياة روحية وضيئة . بيد أن ذلك غير مستطاع بالنسبة للأمم والجماعات ما لم يكن لها من نظمها معين أي معين .

ولعل من تكرار القول أن نقيم على هذه الحقيقة شواهد وأدلة ، لذلك نكتفي بمثل واحد هو الحب . . . ذلك الخيط النوراني الوثيق الذي ينظم قلوب الناس فيجعل من حياتهم أغنية بهيجة ساحرة .

هذا الحب الذي يصوره لنا صوفي مسلم عظيم ويرسم حدوده فيقول ، وهو السري السقطي رحمه الله : (لا تتم المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا ! !) .

هذا الحب الذي نقضي في دفئه أسعد أيام الحياة ، والذي هو ذروة الروحانية وغاية سموها ، ، هل يمكن أن يوجد في مجتمع يعاني صراعاً عصبياً من جراء مخاوفه وهمومه وجوعه وأحقاده العميقة القرار ، وشعوره بالتبعية والدونية والخضوع ؟ ؟

إن الروحانية التي ندعو إليها لا تبدأ من نفسها بل هي تبدأ من المعدة الممتلئة ، فاذكروا هذا جيداً . . ؟

(٥ — من هنا نبدأ)

الـكهانة والعقـــل :

سنعود مرة أخرى إلى كتاب « معـــالم تاريخ الإنسانية » مقلبين الصفحات التى كتبها عن الـكهانة فى حذر !! خشية أن تباغتنا بعض أظفارها الجارحة ، أو ألغامها المبثوثة . ولقد بلغنا غايتنا ، فلنقرأ هذه السطور :

« ولم يكن أى إنسان ليستطيع أن يحصل قط على أية حياة عقلية ، كما لم يكن يستطيع الدخول إلى حظيرة الأدب أو ارتشاف العرفان إلا على أيدى الـكهنة . . . وكان كثير منهم أغبياء مستمسكين بالمبادىء النظرية ، وقد أعمى استمساكهم الجامد بالتقاليد بصائرهم » !

عن أى شىء تكشف هذه الـكلمات ؟

إنها تكشف عن جانب آخر خطير فى طبيعة الـكهانة وتبين فى صراحة وصدق أن مؤامراتها المحبوكة ضد الشعوب لا تهدف فقط إلى تجويع البطون وحرمانهم ، بل وتجويع العقول أيضاً !

وإذا المجتمع جاع بطنه وعقله . . فقد صار مطية ذلولا لها ، ولـكل مستكبر جبار . .

لقد منحت الـكهانة نفسها سلطة واسعة النطاق ، وساعدها فى ذلك كما قال « ولز » تأييد الفاتحين والحاكمين لهـا كى يستغلوا نفوذ الـكهنة على عقول الناس لدعم سلطانهم وإرباء مصالحهم . والعجيب أنها تفرض نفسها فرضاً على شئون المجتمع كلها . ما تعلم منها وما لا تعلم ! ولقد منحت نفسها سلطة الحارس المطلق الذى وكلت إليه حراسة النظم الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية ، فهى تطارد كل رغبة فى تحويرها أو ترقيتها . . ولما

كان العقل قوة محركة يدفع إلى التغيير ويحفز على التطور ، فقد وضعت يدها عليه من قديم الزمان كما سمعت ، ثم هي لا تزال متشبثة به ، وإن هذا الحجر العقلي الذي اتسمت به الكهانة طوال تاريخها الأسود ليرينا أي خصم أثيم ، ذلك الذي يعمل على تقويض المدنية كلها .

إنها لتحتكر عقول الناس ، وتضرب حولها حصاراً قاسياً ، ونطاقاً من حديد ، ولئن كانت في ماضيها البعيد لم تكن لتأذن لأحد أن يفكر بغير عقلها ، أو أن يتلقط المعرفة من غير أفواه سدنتها . . فإنها اليوم كما كانت بالأمس . . بل إنها اليوم شر من الأمس أنانية وأكثر تحكما وعسفا . !

إنها ترى في العقل الحر أعظم خطر يهدد وجودها لأنها لا تحتمل هجوما واحداً منه فهي لذلك تبذل أقصى جهدها ليظل العقل الخاضع لها مكبلا بالأصفاد . وهنا يبدو لنا فارق جلي تناهى في الوضوح والجلاء بين الكهانة الكاذبة ، والدين الحق الصادق .

فبينما لا تستطيع الكهانة أن تعيش إلا في الظلام . . إذا بالدين يدعو لإضاءة الأنوار . ويعلن سلطان العقل أيما إعلان ، ويدعوه إلى اقتحام كل مناطق الفكر دون أن يخاف ويخشى . . ذلك أن الله العلي الكبير الذي شرع الدين لعباده يعلم أن الحياة بغير عقول طوافة حرة شجاعة لن تتفوق كثيراً على بيوت العنكبوت . وستظل تتقاماً وتتقازم حتى تتلاشى معالمها .

لطالما قرأنا وسمعنا عن الكهانة حديثاً عجباً : يرينا كيف أضرمت نار عداوة طويلة الأمد بين الدين والعلم ، وكيف كانت تقف بالمرصاد لكل عقل مبدع ، ولكل اختراع نافع ، ولكل حقيقة

علمية باهرة ، وكيف ألبت الجماهير الغافلة على الذين كانوا ينفقون كل أعمارهم فى سبيلها من العلماء ، والفلاسفة والمخترعين .

يقول ولز : « إن الكهانة تتلذذ دائماً بانحطاط الغير عنها . . وهى نفسها تقف فى أول سلم الانحطاط من أدنى » .

وإذا الإنسانية بما فيها من حقائق وبحوث استسلمت لها ، فقد حق عليها التدهور السريع نحو القاع ، ولكن من حسن حظها ، أى الإنسانية : أن العقل قائم للكهانة بالمرصاد يعمل فى ثبات ومثابرة ، وما سمعنا ولن نسمع أبداً أنه هزم ، أو أنه سينهزم أمامها . والذى يسير عبر التاريخ يشاهد آثار الكفاح الطويل ، ويمر بآلاف الشواهد القائمة تحمل أسماء شهداء العقل والحرية . . ولكنه لن يعثر قط على نصب للعقل ذاته ، لأن العقل لا يزال حيا ، وسيظل كذلك إلى الأبد ، بل إلى ما بعد الأبد . وهذه هى الحقيقة التى نقدمها لسدنة الكهانة المعاصرة رجاء أن يؤمنوا بها فيوفروا الوقت العقل ينفقه فيما يعود على البشرية بالفائدة بدل أن تضطره إلى الدخول معها فى صراع ستلقى فيه حتفها لا محالة .

لقد حاولت أخت لها — من قبل — وهى الكهانة الغربية محاولتها الخاسرة ، وأبطرها الظفر الذى أحرزته أول الكفاح ، واستمرأت لحوم المباقرة ، حتى دفعت الثمن أخيراً : حياتها ووجودها وسار موكب العقل فى زحفه الميمون وسيظل يسير ... فماذا جنته تلك الكهانة بحماقتها ؟

هل ظلت الأرض مسطحة كما كانت تقول ؟

هل بقيت السماء قبة من النحاس الأزرق كما كانت تريد أن يؤمن الناس !

هل صار « الميكروسكوب » وغيره من المخترعات العظمى بدعا وفسوقا كما كانت ترى ؟

هل بقى أثر واحد من آثار تلك الكهانة دون أن تدوسه الأجيال بأقدامها ؟

لقد اتهمت « غاليليو » بالإلحاد كما اتهمت من قبل « كوبرنيكس » وحكمت عليه بالسجن حيث قضى فيه بقية حياته . . فما زاده ذلك إلا إصراراً وإيماناً . . وكان يقبض بكلتا يديه على القضبان الحديدية ويهزها فى عنف صائحاً :

« إنى أقسم بكل شىء مقدس . . أقسم بدقات قلبى التى أسمعها الآن ، وبالهواء الذى تنشقه رئتاى أن الأرض تدور . . تدور . . . » وكتب فى سجنه أعظم كتاب له وهو « قوانين الحركة » .

وماتت الكهانة — وبقى غاليليو حيا خالداً فى التاريخ ، وأصبح الأطفال فى المدارس يعرفون نظريته كما يعرفون أنفسهم وأسماءهم .

ولقد فزعت يوم اخترعت أول آلة للطباعة ، ورأت فيها مارداً عملاقا سيدمر كل بنائها ، فأخرجت مراسيم التحريم للقضاء عليها ، وأصدر البابا اسكندر السادس مرسوما عام ١٥٠١ م يقضى بإعدام كل من يطبع كتابا بغير إذنه . . !

ولكن ذلك البابا ذهب مكفناً فى كهانته ، وبقيت المطبعة أصدق حليف وأقوى نصير للعقل والعلم والمعرفة .

وقامت الكهانة أيضا بحرق « العالم برونو » وهو حى ، فى مشهد تتقزز منه نفس الشيطان ذاته حين قام يقرر نظرية خلود المادة .

ولكن الأيدى القذرة التى لوثت بأفظع جريمة يرتكبها وحش

فضلا عن إنسان . . . تقطعت وذهبت فى تراب الأرض بدداً . . بينما تظفر نظرية « المادة » فى مطلع شمس كل يوم بما يزيدها رسوخا وصدقا واتساعا :

أى الفريقين إذن خير مقاما وأبقى ذكراً وأكثر نفعاً ؟؟

الكهانة تتوسل بالمسجد والمنبر لتقويض المجتمع :

إن الكهانة تحارب العقل لأنه يرى الناس عوراتها ، ويبدى لهم سوءاتها ، ويعمل جاداً لفض سوقها . . . هى تخشاه لأنها لا تصبر على بحث ولا تصمد أمام نقد . أمام الدين الصحيح فيعلم أن العقل صديقه الوحيد الذى يهىء له النفوس ويمكن له فى القلوب .

ولقد أصبح من أهم واجبات المجتمع المصرى أن يميز بين الاثنين . بين الكهانة والدين ، فينفى عن نفسه وعن الأجيال ويلها وجهلها وضلالها فلقد كنا ولا نزال كلما حاول المجتمع أن يخطو إلى الأمام خطوة نبصر بالكهنة يثيرون فى طريقه النقع الكثيف ، ويحفرون له الخنادق كى يتردى فيها . . متخذين من الدين مسوحا يلبسونها وألسنة ينفيهقون بها ولقد نبأنا الرسول بهم ، وحذرنا منهم من قديم الزمن ورسم لنا بعض ملامحهم فقال : « هم من جلدتكم يتكلمون بلغتكم ، ويصلون صلاتكم ، تعرف منهم وتنكر » .

وهذه الكهانة تستغل انصراف رجال الدين عن واجبهم فى نشر الحقائق الدينية الباعثة ؛ وتذهب هى تبشر بأفكارها المدبرة عاملة على تعويق النهضة فى المجتمع . . فمثلا ، يوم نادى قاسم أمين بتعليم المرأة المسلمة ، وتحريرها من قيودها المزرية ، وإسارها الظالم . .

تصايحت الكهانة ونادى بعضها بعضاً ، وخرجت جرذانها من الجحور تسعى . . لتقرض الكتاب الذى دعم مؤلفه كافة قضاياه بنصوص قرآنية ونبوية ! . وراح الكهنة السذج يبذلون جهدهم لإطفاء هذه الشمعة . وذهب إليه بعض الذين سمت أخــــلاقهم حتى بلغت فى رفعتها الأرض السابعة . . يطالبون منه أن يعرض عليهم زوجه ليستمتعوا بعذب حديثها ، وإشراقه وجهها . . ! ! وأمطرت سماء الكهانة كأفواه القرب من الأحاديث المكذوبة الموضوعة التى تدخرها لمثل هذه المواقف ، واستجاب لها جيش الجماهير الغافلة الذين قال فيهم حافظ :

رأوا فى قبور الميتين حيـــاتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا

ولكن الأفكار أقوى من الجيوش — كما يقولون — ولقد أحرزت أفكار المصلح العظيم « قاسم أمين » نصراً باهراً لم يكن فى حسبان أحد .

وإننا لنستطيع أن نحمل هذه الكهانة وزر تأخر الشعب وجهله ، وما فى كثرته الساحقة من بلادة وكسل وفتور . . وذلك بما تبشر به من تعاليم فاسدة تزعم أنها دين ، أو أنها من الدين .

بل نستطيع فى غير تهيب أن نتهمها بأنها تعمل على أن تنقسم الأمة على ذاتها ، وتصبح ذات موازين نفسية متباينة متعارضة . . . وأقرب دليل على ما أقول تفكير القرية المصرية وإحساسها . فنى أربعة آلاف قرية تلتقى بملايين من المواطنين الذين يعتقدون أن المدن المصرية وسكانها هى سبب كل بلاء ينزل بالبلاد ، وسبب كل آفة زراعية وغير زراعية . وأن سكان المدن ولا سيما « القاهرة » و « الإسكندرية » قوم يستحقون طوفان نوح ، أو صيحة ثمود . . وكثيراً ما تسمع هذه العبارات

التقليدية : « الله يقطع اللى فيها . . ما عدا الصالحين ، يعنون القاهرة طبعاً !! كما تسمع « لولا أهل البيت ما بقى فيها بيت . ! » والضمير هنا راجع إلى عاصمة الدولة أيضاً . ! فإذا ما حاولنا معرفة السبب فى هذا الحقد المشبوب لم نجده فى غير الخطب المنبرية التى احتوتها « دواوين » مزمنة . . تجشأ بعضها جماجم كهنة غابرين ، حيث يقف خطباء المساجد فى القرى وأكثرهم طبعاً من الأميين ، فيجترون الخرافات ، ويحدثون ضحاياهم عن « سوء الحال . وفساد النساء والرجال ، وعما فى المدن من سفور وفجور وكفور وضلال . . ! » .

وبهذه الطريقة يتكون فى القرية على مر الأيام إحساس عام لا يدين بالتسامح فضلا عن التفاعل مع المدينة ، بل إن المدينة نفسها تنقسم على ذاتها فى مشاعرها وتفكيرها . فالجمهرة الكاثرة من أهلها الذين توجه تفكيرهم مؤثرات كهنوتية ، يحسون أنهم غرباء، أو كالغرباء فى المجتمع ، وذلك بسبب ما يسمعونه من السدنة الذين يدسون أنوفهم فى كل شيء ، ويقدمون للناس ثقافة مهلهلة مغلوطة باسم الدين تحول دون الفرد ومجتمعه ، كما تحول بينه وبين الحياة . .

ولقد آن الأوان لرسم سياسة المسجد ، وتنظيم رسالته وتهذيب وسائله ، فالكنائس فى الغرب تعمل مع المجتمع لا ضده ، وتمجد الرقى لا تلعنه ، وتدعو إلى الحياة لا الموت ، وتتطور مع العلم والزمن ، وتقدم للفرد — دائماً — كل حاجاته الروحية التى تمكنه من السير مع مجتمعه لا التخلف عنه والنفور منه . .

ولقد سمعت من أستاذ فاضل زار أمريكا أخيرا — أنه دخل هناك كنائس كثيرة .. رأى فيها جميعاً ، وسمع فيها جميعاً أسلوباً واحداً وطريقة عمل واحدة كل غايتها أن تربط الفرد بالله وبالمجتمع دون أن تبذر فى نفسه أدنى بغضاء للمجتمع الذى يعيش فيه مهما يكن هذا المجتمع زاخراً بالآثام ..

ولعل السبب فى هذه النهضة الكنسية هناك ، أن الجيل الداعى إلى الله من القسس ورجال الكنيسة ، جيل جديد مثقف ثقافة واسعة عالية يعرف كيف يستخدم الدين استخداما رفيقا فى إصلاح الفرد وبناء الأمة ! ! بل إن كبريات الكنائس هناك أصبحت مزودة بعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع . والإخصائيين فى مرحلة الطفولة ، والإخصائيين فى دور المراهقة ، فلا تكاد تدخل إحدى هذه الكنائس ، حتى ترى حلقات منثورة هنا وهناك : هؤلاء أطفال ومعهم رائد يناجيهم ويناجونه ، ويرصد ميولهم وانفعالاتهم ، ويقدم لهم ألواناً بهيجة من الثقافة الخفيفة التى تلائم عقولهم ..

وهؤلاء شبان مراهقون .. يجلسون إلى عالم نفسانى ، لا صلة له بالدين ولا بالوعظ ، ومهمته فقط أن يروض الغرائز المتوثبة المشبوبة ، ويعاون هؤلاء الشبان على حل مشاكلهم الجنسية والنفسية وتنظيم سلوكهم العام .. وهكذا تقوم الكنيسة بدور هام فى الخدمة الاجتماعية التى هى فى نظرها جزء من صميم رسالتها .. بل لعله أهم جزء فى هذه الرسالة !

أما المنابر عندنا فأكثرها يقوم بدور سلبى هدام .. وتسعة أعشار خطبائها لم يعرفوا بعد ، الرسالة التى يجب أن يعملوا لها .. فتراهم

يعالجون الفقر بالفقر ، ويمحون الخبيث بالخبيث ، ويدعون الناس إلى التشاؤم من المجتمع ، ويحرضونهم عليه لأنه فى نظرهم مجتمع مارق فاجر لا يستحق التوقير والاحترام ..

وهم يزكون أفكارهم المدبرة بأحاديث مصنوعة ، كتلك التى كان يسمعها ابن عباس رضى الله عنه من الكهنة المعاصرين له ، فيثور ، ويقول دائماً إياهم بوصمة الكذب والجهل : « كلما لحق أحدهم من الإسلام لعقة ، ذهب يقول : حدثنى رسول الله . ووالله ما حدثه رسول الله بشىء ، ولا هو ممن يفقهون حديثاً .. ! » .

وكثيراً ما تذهب الجرأة ببعضهم مذهباً يؤسف ويضحك .. فتراه على المنبر يعالج موضوعا اقتصاديا أو سياسيا أو اجتماعيا ، يعجز كل العجز عن فهمه ، بل عن تصوره فضلا عن نقده ومناقشته كما ينكرون فى عنف كل تقدم وتطور لم يألفوه من قبل مهما يكن شكليا ، بسيطيا . ولا أزال أذكر ذلك الشيخ الوقور الذى وقف فوق منبره يوم جمعة غضبان أسفاً لأن رجال الجيش قد استبدلوا القبعة بالطربوش .. ولا أزال أذكر وأحفظ مطلع خطبته العصماء .. ! « الحمد لله الذى أمرنا أن نأخذ من الشيطان كل حذر وحيطة .. ومن أجل ذلك حرم علينا لبس البرنيطة » ! ألا ليت هؤلاء السادة يستمعون إلى قصة « أبلز » ويعتبرون بها .. فلقد كان « أبلز » الرسام ، إذا رسم صورة عرضها حيث تراها المارة من الناس ، ثم يختبىء خلفها ليسمع آراء الناس فيها .. وفى يوم وضع صورة واختبأ وراءها فمر بها « إسكاف » ، وتأملها ثم قال : « إن سير الحذاء أوطأ مما يلزم . فسمع « أبلز » نقده ، وأصلح

السير . وفى اليوم التالى مر بها « الإسكاف » فرأى سير الحذاء قد أصلح فأخذته الجرأة ، وراح ينتقد الساق .. ! فبرز له « أبلز » من مكمنه وقال :

ـــ مكانك يا عزيزى .. إن نقد الإسكاف يجب ألا يجاوز الحذاء .. ! !

وهذا بالضبط ما نود أن نقوله اليوم للكهنة ..

نريد أن نقول لهم : إن نقدكم ، وتوجيهكم يجب ألا يجاوز حدود خبرتكم الضيقة ، وإدراككم القاصر ، ومعرفتكم الفجة .. وإلا صرتم لعنة لا تطاق .. !

الفرق بين الدين والكهانة:

أعتقد أن الفارق بين الدين والكهانة قد علن وحصحص من خلال السطور السالفة ، ولكننا فى هـــذه الحلقة الأخيرة من هـذا الفصل ، نريد أن نجمع تلك الفوارق ونركزها فى سطور ..

وأول هذه الفروق ـــ أن الدين إنسانى بطبعه وشرعته .. أما الكهانة فأنانية بغريزتها .. تتبدى لنا إنسانية الدين فى دعوته الحارة الى تكريم بنى آدم ، وتسخير السموات وما فيها والأرض بما فيها لذلك الإنسان الذى هو أثمن درة فى تاج الكون الكبير .. وتتبدى لنا أنانية الكهانة فى فلسفتها الخاطئة التى استنهلت بها حياتها الجافة اليابســـة .. تلك الفلسفة التى ادعت بها وزعمت أن الأرض ملك للآلهة الذين يرقدون داخل الهيــــكل ، وأن الآلهة قد منحوها طبقة من الناس يستغلونها لأنفسهم كما يشاءون .. وإنه لمن الحقائق التاريخية .

المظلومة ، أن الكهنة أسهموا فى خلق طبقة « رقيق الأرض » ، واسترقوا الجماهير الكادحة لحسابهم وحساب الإقطاعيين ، وظلوا لها مسترقين ومستبدين حتى جاءت الأديان برسالة التحرير والخـــلاص ، وصاح موسى عليه السلام فى وجوه الكهنة المصريين : « أدوا إلى عباد الله . إنى لكم رسول أمين » . ومعنى الآية الكريمة واضح ، وتصويرها للعبودية القاسية التى كان الإنسان يرسف فى أصفادها ، يأخذ بالألباب .. فهو يقول للكهنة والفراعين : أدوا إلى عباد الله . أى ادفعوا إلى ، وسلونى ، وأطلقوا سراح هذه السلع البشرية المحتكرة .. هذه السلع الآدمية المحتوشة التى طال على رقها الأمد ، وتكاءدها اللغوب ، وبهظها الحرمان .. !

ومن قبل موسى ومن بعده ، كانت رسل الله تترى .. صائحة نفس الصيحة ، مبشرة بذات المبدأ ، معلنة حقوق الإنسان .

وثانى هذه الفروق — أن الدين « ديمقراطى » النزعة ، وهو كما يجب أن يفهم ، لا يعترف بالفوارق المفتعلة التى تجعل بين أبناء الأسرة الإنسانية الواحدة ، قطعانا وذئابا ، وعبيداً وأربابا ، وما توحيد الإله ، وجعل الأمر كله له ، والسلطان كله ، والكبرياء كلها .. له دون سواه ، إلا هتاف علوى مقدس يشيع فى الإنسانية الأمن والإيناس ، ويذيب فى حرارة أنفاسه كل ما فى ضعفنا من خوف وتهيب وانكسار ، وكل ما فى قوتنا من عتو وتجبر واستكبار ، حتى تلتقى الإنسانية كلها على الحرية والإخاء والمساواة .

أما الكهانة فإنها لاتؤمن بالديمقراطية ، حتى ولا أضعف الإيمان ..

لقد تعود الكهنة أن ينحنى لهم الناس ، ويخروا على أيديهم سجداً ثم يشبعوها لثماً وتقبيلا .. وكذلك تعودوا أن يأمروا فيطاعوا لأنهم أبناء السماء ، أو أبناء الهيكل .. والويل لمن يقول لشيخه أو لكاهنه : لم .. ؟ وهم حريصون على هذا التراث الموروث .. بلى هم مدفوعون إلى الحرص عليه دفعا بحكم غرائزهم الجامحة فى غوايتها ، الموغلة فى غيها .. وإنا لندرك ما بين الدين والكهانة من بون شاسع وأمد بعيد فى فهم الديمقراطية والإيمان بها ، من هـــذه المقابلة العابرة بين أسلوبيهما فى مخاطبة البشر .

فالدين يناديهم : يا أيها الناس .. ويخاطبهم الحق جل جلاله : ياعبادى ..

أما الكهانة ، ممثلة فى « خلافة دينية وحكومة دينية » فإنها تكتب قديما لوالى مصر قائلة : بلغوا عبيد بابنا العالى .. !

والفرق الثالث — يتجلى فى إيمان الدين بالعقل وكفر الكهانة به كفراً بواحا .

إن الدين يكرم العقل ، ويجعله مناط المؤاخذة والجزاء ، ومعنى هـذا بداهة ، أنه يعطيه كل الحرية فى البحث والمناقشة كما يشاء .

ولقد أدرك هذه الحقيقة أعلام الفقه الإسلامى الخافقة .. أبو حنيفة والشافعى ومالك وأحمد وسواهم . فجعلوا من الرأى ، ومن حكم العقل تشريعاً ومنهاجاً .. حتى لقـــد سميت مدرسة أبى حنيفة رضى الله عنه « أهل الرأى » ، وألفنا الإمام الشافعى يغير مذهبه القديم ويبتكر حين قدم القاهرة مذهباً حديثاً . . . حتى إذا سئل

عن سر ذلك أجاب بأنه رأى شيئاً لم يكن يراه ، وسمع قولا لم يكن يسمعه .

وكذلك رأينا « مدرسة مالك » تبتكر قاعدة « المصالح المرسلة » ومدرسة أحمد بن حنبل ، تنادى بمبدأ « اعتبار المصلحة » وتقدم المصلحة على النصوص الدينية . . . وكل ذلك يدل على مدى إجلال العقل واحترامه والتسليم له بحقوقه .

أما الكهانة فهى — كما قرأنا للعلامة ولز من قبل — لا تسمح للعقل أن يقتات ويتغذى إلا بما تقدمه هى له من فتات وعفونات ا وهى تحارب البحث والتأمل والبرهان ، وتقيم مكانها الأوهام والخوارق التى تحاول أن تتعبد بها العقل الإنسانى وتستكرهه .

وإنا لنذكر ، فنضحك ، أنه بينما كان العقل « يذيع أنباء انتصاره الباهر فى اكتشاف كروية الأرض وحركتها » كان سدنة الكهانة المسيحية يزفون إلى الدنيا نبوءاتهم الطائحة بالكذب عن قرب فناء العالم وقيام الساعة — ليشغلوا الناس بذلك عن كشوف العلم وفوز العقل .. حتى لقد حدد بعض أولئك الكهنة اليوم والساعة التى ستقع فيها الواقعة ، كما زعم من قبلهم بعض رجال الكهانة الإنجليز فى القرن السابع عشر : (أن الثالوث خلق الإنسان فى يوم ٢٤ أكتوبر عام ٤٠٠٤ ق . م فى تمام الساعة التاسعة صباحا !) .

إن الدين الحق ليعلم أن العقل هو رئته التى يتنفس بها ، لذلك تجد القرآن الكريم يحض الناس فى مئات الآيات على استعمال هذه الرئة استعمالا دائباً ، وعلى التنفس بها تنفسا عميقا حتى ينفرد آخرها ويتمش أقصاها .. وما هذه الأنفاس التى يحرضنا الدين على تنشقها

إلا النظر العميق، والتأمل الهادىء ، والتفكر المستغرق فى كون الله الخصيب الرحيب . وما هذه الآيات الكريمة : أفلا تتفكرون . . . أفلا تعقلون . . سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق . . أعظكم بواحدة — أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا . . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وقول محمد عليه السلام : « تفكر ساعة واحدة خير من عبادة سنة . . . » — ما هذه التوجيهات جميعاً إلا ترويض للناس على احترام العقل والإيمان به والسير معه والاهتداء بهديه .

وقد تؤمن الكهانة بهذا ولكنها تقول : إن المراد بالتفكر هنا التفكر فى الموت ، وفى الموت فحسب . . فى الفناء ، وفى التراب الذى منه جئنا وإليه نعود . . . وهذا التأويل الهزيل يضع أيدينا على الفارق الرابع بين الدين والكهانة .

وإذن فالفارق الرابع بينهما — أن الدين يؤمن بالحياة ، ويحبها ، ويراها مكانا جديراً بالحب ، كلها مباهج وكلها أزاهير .. الكسل عنها غباوة ، والفرار من تبعاتها جريمة أما الكهنة فيجعلونها أبغض الأشياء إلى قلوب الناس حتى إذا انصرف الناس عنها ، خلوا هم إليها واحتالوا لأنفسهم طيباتها . !

والدين يتفاعل مع الحياة والعلم ويعلم أن حيويته متوقفة على استمرار التطور فيه بحيث لا يقف والفكر يزحف . . ولقد وجدنا كيف أنه كان فى العام الواحد وأحيانا فى اليوم الواحد . . ينسخ حكما بحكم ، ويقيم مبدأ مكان آخر متبعا فى هذا قانون التطور وهو التغير والانتقال من صالح إلى أصلح « ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها » . وخليق بنا أن نعلم أن هذا التطور المستمر ..

لم يكن مسايرة لمصالح الناس فحسب ، وإنما كان يعنى تدريب الناس على مسايرة الحياة فى تقلبها ، وإفهامهم أن التزام حال واحدة ونظام واحد وطريقة واحدة فى أسلوب حياتهم أمر مستحيل ، حتى لو تكون هذه الطريقة الملتزمة خاصة بالعبادة والدين . . كما حدث مثلا من نسخ قبلة المسلمين الأولى ، واستقبال قبلة أخرى .. بل كما حدث فى تطور الصلاة نفسها . هذا ، بينما الكهانة جامدة لا تتحرك ، ولا تسمح لنفسها ولا للناس بتطور أو نهوض .. فالمجتمع اليوم هو المجتمع منذ آلاف السنين .. هكذا يجب أن يكون ، وهكذا يجب أن يظل .. كل رقى بدعة وكل تطور ضلالة .. !

* * *

ورغم المسافة الهائلة التى تفصل بين الدين والكهانة ، فإن خطورتها على الدين تزعج الغيورين عليه .. إذ هى دائمة الزحف نحوه ، وكثيرا ما تختلط تعاليمها بتعاليمه ، والجماهير لا تتلقى توجيهاتها تلقى البصير الناقد لأنها لا تقدر على ذلك ولا تجد إليه سبيلا .

وهكذا تظل الكهانة تزحف ، وتمتزج بتعاليم الدين وتحتل عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يذعنوا له ولا يناقشوه ؛ وهنا ينجم ضرران خطيران :

الأول : استماع الناس لها ، واقتداؤهم بها حيث تسير بهم إلى الهاوية بعد أن تسكرهم بتعاليمه التى تريحهم عما يتعب الكرام .. وحيث يظلون عبيد نصوص ميتة ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب .

الثانى : أنه على مر الزمن ، لابد من ظهور طبقة مثقفة فى المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتهن الخرافة ، ترى الشعب

وهو يساق إلى الموت والظلام . . . فتقف سائلة عن هـذا الرائد الخبيث المضلل الذى يسوقه : من هو . ؟ فيقال لها هو الدين . . والواقع أنها الكهانة الدخيلة التى اندمجت فى الدين ، ثم أخذت تنمو فيه ، حتى اكتسبت شخصيته ، واتسمت بسماته وملامحه ، عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ، ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتمرد عليه . . هذا هو الذى حدث فى أوربا والغرب ، وهو الذى نخشى أن يحدث فى الشرق إذا لم نبادر بعزل الكهانة عن الدين ، وتنقيته من شوائبها ؛ ونقدمه للناس وضيئاً متألقا كيوم نزل من لدن حكيم عليم .

* * *

فلنحسم بوائقها :

وحسم بوائق هذه الكهانة ، وإماطة أذاها . . أمر عارم المشقة ، ولكن العزيمة الصارمة كفيلة ببلوغه إذا سلكت الطريق الصحيح ، والطريق إلى مكافحتها ، هو نفس الطريق إلى مكافحة كل وباء :

التحصين — العزل — التوجيه

فلا بد من تطعيم الشعب بمصل الحقيقة الدينية الخالصة ليستطيع أن يقاوم كل عدوى غازية ، وذلك بأن تعلمه أن رسالة الدين هى الحياة . . والحياة هى أن تعيش كريماً ، حراً ، سعيداً . لا أن تعيش مهاناً ، عبداً محروما ، فكل دعوة تدعوك إلى الحياة . . والسير فى موكب التطور . . . خذها بقوة . . إنها كلمة الله ، وكل باطل يدعوك إلى الجمود ويصرفك عن الحياة ، وعن حقك المقدس فيها . فإنما هو الشيطان يعدك الفقر ، ويريد تقويض الإنسانية

التى صنعها الله على عينه ، وسواها بيديه ، ونفخ فيها من روحه . فالمصل الواقى هو الثقافة النزيهة التى لا تضع نفسها فى خدمة أحد سوى الحقيقة فلتكن مناهج الدين فى المدارس بحيث تؤدى هذا الغرض ، ولنجنب التلاميذ النصوص التى لا يستطيعون أن يدركوا حقيقة معناها ! والتى قد يوحى ظاهرها بذم الحياة : أو فلنقدمها لهم مشروحة شرحا يكشف عن حقيقة أغراضها ، ومتجهاتها ، ويوازن بين معانيها المحتملة مؤكداً المعنى الذى هو حق وهدى .

* * *

دخلت يوماً على تلاميذى الذين أدرس لهم . وكانوا حديثى عهد بدرس « جغرافيا » . فسألتهم عرضا : ماذا كان موضوع درسكم اليوم ؟ فأجابوا : كروية الأرض ودورانها . وانتفض من بينهم تلميذ وقال بالحرف الواحد : ده كلام فارغ يابيه ! نصدقهم والا نصدق ربنا ؟

وسألته : من أين لك أن الله يرفض هذا ؟

فأجاب بأن القرآن وكلام النبى — لم يقولاه ..

— وهل قرأت القرآن وأحاديث النبى وفهمتهما ؟

— لا ولكنى أصلى الجمعة وأسمع من الخطيب ذلك .

ثم قص على أنه من قريب ذهب ليصلى الجمعة ووقف الخطيب يقول لعلكم تقرأون فى الصحف « الكافرة » أن العلماء سيتصلون بالقمر وأن المريخ كوكب عامر بالناس .. هذا كفر . والقمر ليس إلا مصبـــاح منير ، والشمس كذلك ، والأرضون سبع ثابتة

لا تدور . والسموات سبع : الأولى من نحاس ، والثانية من رصاص ، والثالثة والرابعة . . وانطلق الكاهن يهدم فى عشر دقائق كل ماتبنى المدرسة فى سنوات وقلت للتلميذ : يابنى ذلك رجل جاهل أمى ، لا يعرف عن الدين ولا عن الدنيا شيئاً . . . فخذ العلم من هنا . . . من المدرسة التى تتعلم فيها . قلت هذا وأنا متردد . فكم من أخطاء تقدمها المدرسة لبنيها ، ولكنى اخترت أخف الضررين وأيسرهما .

وما دمنا بحاجة إلى تقديم ثقافة دينية جديدة بريئة فلا بد من العمل على خلق جيل جديد من الوعاظ وأئمة المساجد . والأزهريون اليوم على تمام الاستعداد النفسى والذهنى للقيام بهذه الرسالة الجديدة ، وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ومناهج علمية سليمة تتفق والوعى الجديد ، وتعين على إنشاء مصر الحديثة والشرق الجديد . فإذا أبى شيوخ الأزهر ذلك ، أو عجزوا عنه . . . كان حتماً لزاماً على الدولة أن تنشىء فى كل جامعة من جامعاتنا العلمية القائمة والتى ستقوم ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادىء الصحيحة التى تهدف إلى ثقافة دينية ناهضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى التقدم والارتقاء . ويتخرج فيها وعاظ من طراز جديد . . كوعاظ الكنيسة فى أوربا ، ولا بد من الإهابة بالعلماء الراشدين كى يعرضوا كل قضايا الدين من جديد عرضاً وافياً خالقا . . وإذا كنا نقدر خطر تعاليم الكهانة على حياتنا ، ونؤمن بأن الأفكار أقوى من الجيوش ، فإن الدولة ستهتم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان ، بالقضاء على الكهانة ومكافحتها ، فتؤلف « مجمع العلماء » ليقوم بالمهمة التى ذكرناها : وهى عرض التعاليم

الدينية الصحيحة عرضاً جديداً ، ويؤلف الكتب فى ذلك . ويشترك فيه علماء الدين واسمو الأفق مع صفوة تختار من رجال الفكر والأدب والاجتماع .

* * *

لقد أخرجت وزارة الأوقاف منذ أعوام كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ، وملأ هذا الكتاب قرى مصر ومدنها ، وتجد الناس هناك يرونه المرجع الأول بعد كتاب الله وأحاديث الرسول . وتعليل ذلك واضح ، فهذا الكتاب « ميرى » والذين أشرفوا على تأليفه وإخراجه علماء من أصحاب المراكز والصيت ، يتوج هذا أن إحدى وزارات الحكومة هى التى أخرجته ، وهى حيثيات كافية لأن تجعله فى أعين جماهير المتدينين شيئاً ذا قيمة نفسية — فإذا ما وجد مثل هذا المجمع الذى أشرنا إليه ، وقام بالمهمة التى نرجوها ، فإن الفائدة التى سنجنيها أعظم من أن تتصور . قد يقال : إن بعض المفكرين الأحرار من رجال الدين يقومون بهذا الجهد . . وهو قول صحيح — بيد أن العمل الفردى لا تصاحبه قوة التأثير التى تصاحب عملا جماعياً ذا طابع مهيب مقنع كالذى أشرنا إليه — بدليل ما ترى من إعراض جمهور القراء عن بعض تلك المؤلفات الحرة بل اضطهادها ، استجابة لنداء الكهانة التى توهمه بأنها مؤلفات بدعة وإلحاد .

مواكب الجمعة :

ومواكب الجمعة شديدة التأثير ، فياضة الإلهام فى نفوس المصلين . وكثيراً ما تترك خطب المنابر فى تفكير الناس أخاديد عميقة : وليس فى مكنتنا أن نضع فى كل مسجد خطيباً يؤتمن على دين الله . وعلى

عقول البشر . . . أعنى أننا لن نجد لكل منبر رجلا ذا فهم واسع وإدراك رشيد يحسن اختيار أفكاره وعرضها دون أن يعمد إلى الدواوين المترعة بالجهالات .. وإذن فالحل الحاسم الذى ننصح باتخاذه فوراً ، والذى يؤيدنا الدين فيه كل التأييد ، لأنه يحقق حكمة مشروعية الجمعة : هو حصر صلاة الجمعة فى المساجد الكبيرة فى كل حى ، بأن نختار منها عدداً يتسع لأهل الحى وسكانه ، ونعهد بمنابرها إلى وعاظ مجددين نختارهم على علم وبهذا نثق من أن الثقافة التى يوجه بها الشعب كل أسبوع ثقافة تنبض بالحياة والقوة وفى الوقت نفسه نكون قد حققنا الحكمة المقصودة من الجمعة ، وهى حشد المجموعات الكبيرة فى مساجد محدودة مادام لا يمكن تجميع هذه المجموعات فى مسجد واحد . وحتى هؤلاء الوعاظ على قلتهم ننصح بأن تقام لهم دراسات خاصة لتوجيههم توجيهاً سديداً .

أما مساجد القرى التى يعلو منابرها أميون لا يفقهون . ويجرعون الملايين ، كل صنوف السموم وألوانها — فالحل العملى بالنسبة لهم . هو تأليف لجنة ذات ثقافة دينية نظيفة ، تضع لهم الخطب أولا بأول ، وتمدهم كل شهر بمنهج جديد ، ليتيسر لها أن تعالج فى هذه الخطب المشاكل المستحدثة والموضوعات الطارئة ، فتنسخ بذلك خرافات الكهانة ، وتحكم آيات الله وآيات الحضارة .

ولا يهمنا أن يقوم بهذا العمل وزارة الشئون ، أو الأوقاف ، أو الأزهر وإنما يعنينا فقط أن تتم هذه الخطوة سريعاً . وأن يراقب الله والوطن من سيوكل إليهم تنفيذها ، فيقدموا للشعب المصفد ثقافة دينية رشيدة تضع عنه إصره وأغلاله ، وتنقذ القرى من دواوين الخطب المنبرية التى تكفى ورقة واحدة منهما لإبادة شعب بأسره ! !

وبعد — أترانى نسيت الكنيسة .. ؟

كلا .. وكل هذه المقترحات التى أدعو إلى تنفيذها بالنسبة للمسجد ، لابد من أن تنتظم الكنيسة أيضاً — فيؤاف من بين رجالها الراشدين من يشرفون على توجيه رسالتها توجيها يخلق الشعب الذى يحيا بالدين ولا يموت .

ولكى تثمر هذه الخطة ثمرتها فلا بد من الدعاوة الواسعة النطاق عن طريق الإذاعة والمسرح الشعبي ، وإقامة مسابقات أدبية ذات جوائز مغرية للمؤلفين الذين يصوغون تعاليم الدين صياغة تنزع بالناس إلى تمجيد الدين وتمجيد الحياة .

هذا .. إذا كنا نريد أن نحيا ، وإذا كنا جادين فى الغيرة على ديننا ، وإذا كان يسعدنا ويرضينا أن نرى الشعب قوياً ناهضاً متمتعاً بما منحه الله من حقوق الإنسان .

* * *

وقد يرى بعض المتشائمين فيما نقول ، خيالا .. . مع أنها حقائق مستطاعة .. ويستطيع الإنسان الآلى .. الذى اخترع أخيراً .. أن يقوم بها جميعاً — إذا عجزت المخلوقات الآدمية عن إنفاذها ..

وقد تعوق الكهانة هذه الأفكار والمقترحات ، وتشن عليها هجوماً طويلا وذلك بأن تهون من شأنها لننصرف عنها ، أو تزعم للناس أنها إلحاد وضلال يريدان هدم الدين وتهشيم المقدسات .. لكننى مؤمن أن كل هذه الأفكار ستنفذ يوما ما . الآن .. أو غداً .. وكل إرجاء لها فإنما هو إرجاء لمشرق نهضة نافعة .

وقد بلغت . وما على الناصحين إلا البلاغ .

الخبز .. هو السلام

إن الفقر ليتحدى كل فضيلة وسلام .
لأنه يورث صاحبه درجة من الانحطاط
والتذمر تكتسح أمامها كل شيء .. ولا يبقى
قائماً غير هذا المبدأ : كن .. أو
لا تكن .. ! »

« توماس بين »

الخبز . . والزبد :

بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ، لم يتح لرؤساء الدول المنتصرة أن ينعموا بإعجاب شعوبهم طويلا . . . ولم تكن هتافات التكريم تنبعث من حناجر الملايين خالصة . . . بل كانت تختلط بها أصداء مولولة لم تلبث حتى أجلت هتاف الإعجاب عن الحناجر والشفاه ، وانبعثت هى مدوية راجفة : نريد الزبد .. نريد الطعام !

والزبد — كلمة أجنبية . . . ! يقابلها عندنا : الخبز ! وكالسهام المقذوفة انطلقت كل حكومة هناك لتوفر الزبد ، وتوفر الطعام .. ماد صاحب الكلمة العليا « الشعب » يريد الزبد ويريد الطعام . ! وسارت حياة الناس سيراً مسعداً ، واستقبلوا أياما جميلة ، لا يمر منها يوم إلا والذى بعده خير منه .

ولكن كيف جاءهم هذا الرخاء ؟

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » . ولا بد أن يكون هذا هو الذى حدث . . . وإن السياسة التى سلكتها حكومة العمال بانجلترا لتشهد بذلك ، فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى ، وتتبعت أسباب ذلك فرأتها تكمن فى « الرأسمالية المحتكرة » التى تسخر كل إمكانيات المجتمع لمطامعها ! ولم تفكر حكومة العمال طويلا ، وقررت فوراً الانتقال بالمجتمع الإنجليزى — لأول مرة فى تاريخه — من اليمين المتطرف إلى اليسار المعتدل أى من الرأسمالية الكنود الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المتسامحة

ولم نعد نسمع صيحات الجوع التى أزعجت بريطانيا العالم بها عقيب النصر ، كما لم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للعمارات ومصالح الحكومة واحتلالها لينام فيها ويسكنها ، لأن النظام الاشتراكى الذى طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبداً ، وللمشردين مأوى .

وما كان يسعها أن تصنع غير الذى صنعت ، فالحكومة التى لاتطعم شعبها لا تستحق الاحترام ولا البقاء .

ولقد قامت أمريكا بإرسال فيض من الإعانات للدول التى تعجزمواردها عن سد حاجاتها .. فلماذا ؟ إنها ليست عاطفة الرحمة ولا الوازع الإنسانى بل لأن أمريكا تعلم أن صيانة السلام فى تلك البلاد صيانة لها ، وهذا السلام لا يوجد إلا إذا طعمت الشعوب وشبعت واستمتعت بأكثر فرص الحياة .

ولذلك غلت يدها وعونها عن الأمم التى تعيش فى ظلال حكومات إقطاعية . . حتى تغير ما بنفسها ، لتضمن الفائدة التى ترجوها من وراء إعارتها المبذولة ، وهى السلام الذى يصون مصالحها .

ونحن .. منذ وضعت الحرب أوزارها ، بل وقبل أن تعلن . . ننادى ونصيح نريد خبزاً .. وطعاماً ، وكلما اتجهنا إلى السماء نشكو إليها بثنا وحزننا ، قذفتنا بهذه الآية الزاجرة « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ! ثم نرجع إلى أنفسنا ، وندير أعيننا فيها فنرانا جد خاطئين .

ولا نستطيع أن ننكر أننا نسير إلى الأمام ، وأننا نتقدم ، ولكن

عيبنا المؤلم أننا نحبو حبو السلحفاة فى عالم يقطع الحياة قفزاً ووثبا ، وأننا نجبن عن الانتفاع بالفرص الكبيرة التى جربتها أمم عظمى لجنت منها أطايب الثمار ، وأننا نأتى البيوت من ظهورها لا من أبوابها .

وإن أخش غلطة نقترفها خلال سعينا للسلام ، هى التماسنا له ، وبحثنا عنه فى الخارج لا فى الداخل ، فنظن أن المعاهدات ودوراننا فى فلك دول أكبر ، أو منظمات أقوى .. سيملآن بلادنا سلاماً وأمناً مع أن تجاربنا الأكيدة بالنسبة للمعاهدات وللمنظمات تجعلنا أول اليائسين منها ، المستريبين فى فائدتها وجدواها . ولعل الدروس الأخيرة ، والغزيرة ، التى تعلمناها من معاهدة ١٩٣٦ ومن منظمة هيئة الأمم ومجلس الأمن خلال نظر قضيتنا الوطنية ، وقضية فلسطين الشهيدة .. كفيلة بأن تلهمنا رشدنا ، وتهدينا سواء السبيل .

لقد قام مجلس الأمن بمهمة « المحلل » حين عرضنا عليه قضيتنا ، وأثبت أن الدول الكبرى قد اصطنعته لهذا الغرض . . . ليكون « محللا شهماً » .. يضفى على الصفقات المسلوبة والحقوق المنهوبة صفة الإباحة والحل ، وبذلك تستطيع تلك الدول الكبيرة التى أصبحت تخجل من السرقة بإكراه .. أن تسرق بقانون .. ! وكان موقفه فى قضية فلسطين واضح الدلالة على إمعيته وتبعيته .. إذ وقف مندوب بريطانيا يوماً يعلن أن الحالة فى فلسطين غير مهددة للسلم وقالت أغلبية الأعضاء : نعم . . . وبعد أسبوع واحد .. وقف المندوب البريطانى نفسه يعلن أن الحالة فى فلسطين مهددة للأمن .. وقالت نفس الأغلبية الرشيدة : نعم .. مع أنه لم يكن قد حدثت أية

مضاعفات تستدعى من حضراتهم هذه الموافقة — غير أن بريطانيا أرادت ، فلم يسع « المحلل الشهم » إلا أن يحقق ما تريد !

على أننا لا نضائل من قيمة المعاهدات ، والمنظمات الدولية بصورة عامة فقد يكون فيهما خير للذين يقدرون على اهتبال الفرص . . لكنه ينبغى ألا يغرب عنا — حتى ولو كانت فائدة المعاهدات والمنظمات محققة بالنسبة لنا — أن سلام الأمم ينبع أولا وقبل كل شيء من داخلها . . من حاجتها الملباة ، ورغباتها المحققة .ونفسيتها المستقرة . . فإذا كنا حريصين على إقرار الأمن والسلام فى بلادنا فلنبدأ من هنا .

* * *

نذير رشيد . !

وليس هذا الذى نقوله ونزعمه . شيئاً جديداً . بل هو إحدى الحقائق الكبرى التى انتهت إليها التجربة الإنسانية من العصور الأولى . ثم بلغت اليوم ذروة الواقعية واليقين. وإنا لنتسمع أصداء المعركة القائمة فى الغرب بين رجال الاقتصاد والاجتماع من جانب ، ورجال السياسة من آخر ، إذ يتهم الأولون الآخرين بأنهم ألد أعداء السلام ،لأنهم بدل أن يملأوا بطون الناس بالطعام ذهبوا يملأون بطون المصانع باليورانيوم والبارود .

ولقد وقف عالم عظيم يؤكد أن لا سلام مع الجوع . . . وأن الطريق الأوحد المفضى إلى سلام جميل هو الرخاء ، ذلكم هو العالم الزراعى الإنجليزى « سيرجون لويد أور » الذى رأس مؤتمر منظمة الشعوب المتحدة للغذاء وللزراعة فى أبريل سنة ١٩٤٨ بوشنطن ، وقف فى هذا المؤتمر مبشراً

العالم بمصيره الأسود الذى تسوقه إليه الأنانية المفرطة فقال : « إذا وجد الخبز وجد السلام ، فهما معنى واحد ، أما الموز والحرب فهما رفيقان لا ينفصلان أبداً ، وليس أمام العالم اليوم إلا الاختيار بين أحد أمرين : فإما المدفع ، وإما الزبد . . وإذا لم يختاروا الزبد ، فسيواجه العالم الخراب . حتى لو لم تكن هناك حروب . . .

« إن الجوع وارتفاع أسعار الطعام ، يقودان دائماً إلى الثورات الاجتماعية. ونحن نذكر أن عجز المحاصيل فى فرنسا عام ١٨٤٠ فى تلك الفترة التى سميت « المسغبة الأربعينية » كانت نتيجته ارتفاع أسعار الغذاء وندرة الحصول عليه ، ولا سيما الخبز . وكان الشعب فى شمالى انجلترا يهزج ويصيح : « استلوا خناجركم ، وأعدوا مدافعكم . فإما الرغيف وإما الدماء . . . وإما الحياة وإما الفناء » .

هذا رجل مسئول مفكر يصرح بأن الجوع يقود دائماً إلى الفوضى والاضطراب والثورات . . . وأن الخبز هو السلام ، وهو الاستقرار وهو النظام .

وإنها لكلمات جليلة ، نضعها أمام أعين الذين يريدون لشعوبنا القلقة المتحفزة — أمناً وسلاماً .

إن مجتمعنا المصرى ، ومثله سائر المجتمعات العربية ، يجتاز اليوم دور المراهقة العنيف ، وتعتمل فيه وفيها جميعا كوامن الكبت والحرمان ولقد هبطت طاقة شعوبها ، فهبطت معها الحواجز النفسية وأصبحت نهب الأحاسيس المتدفقة المروعة ، وإنا لنجد التذمر على كل لسان ووجه . . . وليس من الإنصاف ، ولا من الممكن ، أن نحظر على

الناس أن يتذمروا . . ولقد كان «كونفشيوس» يقرر حقيقة خالدة حين قال : «إنه لأشق على الإنسان أن يكون فقيراً دون تذمر ، من أن يكون غنياً دون غطرسة . . »

وإذن فما دام فى جانب من المجتمع ثراء متغطرس فلابد أن يكون فى الجانب الآخر فقر متذمر . . !

وهذا التذمر النامى المتراكم ، من أخطر الأشياء على حياة الأمة ولا يمكن أن يستهين بعاقبته أو يسكت عن علاجه حاكم له بصر بالأمور . وغير مجد أن نقلم فروع الشجرة الخبيثة ، دون أن نجتذب جذورها الضاربة الموغلة ، وأعنى بالشجرة الخبيثة ، تلك العوامل التى ملأت المجتمع حقداً وتذمراً وضجراً . وإن المسئولية الكاملة لتجثم على كاهل « الرجعية الاقتصادية » التى تمتص الحياة من الشعوب ، وتعرقل كل اتجاه نحو اشتراكية يانعة . .

هـذه الرجعية التى توقد نار الحرب بين الأمة الواحدة لتمزقها وتحرقها . . وهى لا تملأ بالحقد الاجتماعى ، قلوب المحرومين وحدهم . . بل إنها لتثير كل مواطن له قلب وضمير مهما استمتع بليان العيش .. ورفاهية الحياة — لأن نهمها وكزازتها ، وسيطرتها الشاملة على مصادر الأرزاق ، وينابيع الحياة ، تجعلنا نشعر أننا غرباء فى بلاد ، وأن الملايين من أبناء الأمة قد حكم عليهم بالإعدام جوعا ، من أجل أن تتخم قلة عاطلة .. ولكى يتأكد لدينا أن التذمر الناشىء عن الفوضى الاقتصادية قد شمل المجتمع بأسره ، فلنقرأ ما سطره كاتب مصرى ، لا يمكن أن يكون الحرمان باعث تذمره وضجره .. ذلكم هو الأستاذ إحسان عبد القدوس الذى كتب فى العدد ١٠٣٥ من مجلة روز اليوسف

يقول : « نظرة واحدة إلى ميزانية الدولة المصرية تكفى لتحريضك على اعتناق الشيوعية ، أو على الأقل تقنعك بأن الشيوعية على حق[١] ، وبأن الثائرين على نظام الطبقات فى مصر ليسوا مجرد حاقدين . . وإنما هم علماء فى علم الأرقام ، فأرقام الميزانية تسجل أن قيمة الضرائب المفروضة على أصحاب الأراضى الزراعية تبلغ ٠٠٠ر٧٠٠ر٤ جنيه ، فى حين أن ميزانية مصلحة الرى التى تقوم على خدمة هذه الأراضى وتنظيم ريها تبلغ ٠٠٠ر٢٠٠ر٦ جنيه ، أى أن مصر تتبرع سنويا للسادة أصحاب الأملاك بمبلغ ٠٠٠ر٥٠٠ر١ جنيه .

« . . . وهذا المبلغ الضخم الذى تتبرع به مصر سنويا للسادة الكرام أصحاب التفاتيش والعزب والأطيان ، يشترك فى دفعه الشعب لأنه يدفع من حصيلة الضريبة غير المباشرة ، الضريبة على الدخان ، وعلى الأقمشة ، وعلى الأطعمة ، وعلى كل ضرورات الحياة ، فكل سيجارة يدخنها أى صعلوك من صعاليك مصر يعطى منها دون أن يدرى نفساً أو نفسين للبدراوى (باشا) عاشور ، وكل ثوب يكسو أى عامل من عمال مصر يتقاضى عليه عبود (باشا) ضريبة خاصة تزيد زراعته ازدهاراً ، وتزيد تفاتيشه طولا وعرضا .. ونظرة أخرى إلى الميزانية (لا يزال الأستاذ إحسان هو الذى يتكلم) ترينا أن قيمة عوائد الأملاك المبنية تبلغ ٠٠٠ر٩١٢ جنيه ، فى حين أن ميزانية مصلحة التنظيم التى تشرف على تجميل هذه المبانى تبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ جنيه والفرق تدفعه مصر من الضريبة غير المباشرة أيضا . . . وفى كل نظرة تقع عيناك

---

(١) كتب الأستاذ إحسان هذا المقال قبل حركة ٢٣ يوليو بأربعة أعوام وكانت أموال الأمة نهبا لإقطاع نهم مسعور .

هل رقم يصرخ فى وجهك بأن الثورة على النظام الاقتصادى حق ، ويؤكد لك أننا نعيش فى بلد يصرف فيه الفقير على الغنى ، وتبنى فيه الثروات بالظلم الرسمى والجهل الحكومى . . . . .

* * *

وأود أن نلاحظ مرة أخرى ، أن الأستاذ إحسان ، صاحب هذه الكلمة السالفة ، ليس روسياً . وإنما هو مواطن مصرى حريص على أمانة المواطنية ، قائم بواجباتها .. كما أنه ليس محروما يائسا حتى يكون الحرمان هو الذى استورى زناد غيظه وتذمره .

وصحيح أن إقرار الضريبة التصاعدية جدير بأن يبعث فى نفوسنا شيئا من التفاؤل والرضا .. لكنها لن تغنينا عن الخطوة الحاسمة التى يجب أن نخطوها والتى سنعرض لها بعد قليل .

* * *

المجال الحيوى للجريمة :

هل نحن حريصون على سلام بلادنا وسلامتها ؟

وهل نرغب فى تجنيبها ويلات الفتن والاضطرابات ؟

إذن ، فلنكافح الجريمة . وأفضل من ذلك أن نقضى على العوامل التى تيسر نشوء الجريمة . فالوقاية — كما يقولون — خير من العلاج وإننا حين نتتبع سير الانتفاضات المنيفة التى وقعت فى التاريخ ، لانكاد نجد لها سوى سبب واحد هو : أمة تريد . . . وحكومة تأبى والشعوب دائما تريد ثم تريد . . . ، وليس لما تطمح إليه غاية ولا نهاية — وتلك سنة الله ، وإلهام الوعى الكامن فى الحياة ،

والذى يدفعها بكل كائناتها إلى التغير والتطور والسير إلى الأمام .

فلولا طموح الأمم والجماعات ، ما انتقلت الإنسانية من عهد الهمجية المظلم ، ولما خفق للإنسان لواء ، ولا سمعنا عن ديمقراطية واشتراكية .

إذن فالشعب بطبيعته يريد دائما أن يرقى ، وهو على الدوام طالب حق وكلما أفسحت له حكومته السبيل ، ازداد توثبه ، واضطرمت رغبته فى حقوق أخرى وسبيل آخر .

ـ حدث فى فرنسا منذ ثلاثة أعوام ، وأثناء حكم « رماديه » أن تفاقمت الأزمة العمالية ، فانتزع رماديه من فم الميزانية التى أنهكتها الحرب والإفلاس عشرين مليونا من الجنيهات مرة واحدة ، لينعش بها حال العمال .. والتهم العمال هذه الوجبة الدسمة ، ولم يمض من الزمن غير أيام معدودات حتى صاحوا : هل من مزيد وجديد ؟

فلما قيل لهم : لاجديد ولامزيد ، رفعوا عقائرهم فى شوارع باريس هاتفين « اشنقوا رماديه فى أقرب عمود نور » ! !

وأطل عليهم « رماديه » من شرفة مكتبه ، وحياهم باسما . ثم أوى إلى المكتب فوراً ليبحث عن بضعة ملايين أخرى من الجنيهات تباعد بينه وبين عمود النور .. !

. الحكومات الرشيدة تتفاءل دائماً بزحف مواطنيها نحو حقوقهم ، ولا ترى الحكومة الحصيفة أى تثريب على الشعب ما دام العقل والحكمة والنظام هم حداته إلى حقوقه ، وما دامت هى نفسها تعينه على احترام النظام .. أما الحكومة التى تبخل بالاصلاح والعدل على دافعى الضرائب

وتصدر فى سياستها الاقتصادية عن شح بغيض .. فتلك هى خالقة الجريمة وحامية حماها .. بل إنها ، ومن وراءها من أصحاب المصالح الكبيرة الخاصة يمثلون المجال الحيوى الذى تترعرع فيه الجريمة وتزدهر . وما أحرانا أن نتدبر حديث الرسول عليه السلام : « اتقوا الشح . فإنه أهلك من كان قبلكم ، دعاهم إلى أن يسفكوا الدماء فسفكوها .. ودعاهم إلى أن ينتهكوا الحرمات فانتهكوها .. »

فالشح إذن وباء .. ولا سيما إذا كان كما ذكرنا من قبل ، شح الدولة على رعاياها الذين يدفعون لها الضرائب .

ونحن نمقت الجريمة مهما تكن بواعثها وأسبابها . ونعتقد أن عبور الحياة فى زورق جميل ، مهما تطل رحلته ، خير من عبورها فى مدرعة .. ولو أبلغتنا الهدف فى لحظات .. بيد أن رحلة الزورق الوديع ان تظل شيئاً محبباً مقبولا إلا إذا تجنبتها العواصف والأعاصير : وهذا هو الذى يحدونا إلى مكافحة سياسة التجويع التى تمثلها الرجعية الاقتصادية فى بلاد العرب قاطبة .

نحن نكافح الاستغلال الفردى لأنه مهب كل عاصفة جائحة ، وكل إعصار وبيل .

إن الشعب القلق على لقمته عقله فى بطنه . . ومن أجل ذلك قال العرب مثلا قديماً : « لا تنم بجوار جائع فيأكلك » لأن العقل آنئذ لا يفكر فى غير القضم ، وتفسير الجريمة تفسيراً كافياً لإقناع الضمير بأنها واجب لا جريمة .. هذا إذا كان الجوع سيدع فى ضحاياه ضمائر . ولعل من أعراض هذه الفلسفة المتنمرة ، تلك الصيحة المضحكة التى تصايح بها ثوار الحرب الديمقراطى فى روسيا « شقوا بطن القيصر . . وأخرجوا منها الكمثرى لنأكلها . ! » فهم لم يتجهوا بتفكيرهم ووجدانهم وسخطهم إلا إلى مخزن الكمثرى فى ذلك البطن السعيد !

ولدينا رجل من أجل من حملت الأرض على ظهرها ـ هو أبو ذر الغفارى ـ صاحب رسول الله ـ يصور مشاعر المجتمع الذى زايلته المساواة فيقول: «عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته ـ كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه» !!

إنى رغم إعجابى الشديد بأبى ذر العظيم ، لا أتمنى ذلك الذى تمناه .. وهو أن يخرج الجياع شاهرين سيوفهم . وإنما أتمنى شيئاً آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجهزة بالإرادة والعزم ، هو ألا يوجد بيننا جوع ولا جياع . وإنا على ذلك لقادرون إذا انتهجنا نهجاً اشتراكياً صحيحاً شاملا .

نحن نعيش فى عصر ، ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب ، وإزاحة كل العوائق التى تعترضها وتصدها عن غايتها المقدسة .

أما عندنا ، فمن الخير أن نعترف بأن جماعة من أصحاب المصالح الكبيرة وكثيراً ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ، يتربصون بكل وعى حر وكل محاولة عادلة ! ولعلنا لم ننس بعد ، الصراع الشاق الذى دار بين حكومة النقراشى « باشا » والجماعة المذكورة بشأن الضريبة التصاعدية .

هؤلاء المواطنون — وإنا لنرجو أن يقدروا جلال هذا اللقب ، ويحققوا لأنفسهم معناه — يلعبون بالنار ، ويتحملون مسئولية مباشرة فى كل جريمة تقترف ضد سلام المجتمع وسلامته . وإن الشريعة الإسلامية ، التى يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم لتعتبرهم شركاء فى الجريمة .

وإليهم هذه الواقعة الصحيحة التى برىء فيها « مقترف الجريمة » وعوقب « المتسبب فى الجريمة » .

سرق غلمة لحاطب بن أبى بلتعة ، ناقة رجل من مزينة واعترفوا بجنايتهم ،

ورفع الأمر إلى عمر . . فرأى نفسه أمام جريمة استوفت كل عناصر الإدانة من سرقة ، وسارق ، واعتراف لا يشوبه ضغط أو إكراه . . فبم يقضى . . ؟

ألقى على وجوه المتهمين نظرة . . ثم تلا قول الله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله» ونادى كثيراً بن الصلت : يا كثير قم فاقطع أيديهم .

ومضى بهم ابن الصلت إلى مكان التنفيذ . . وقبل أن يبلغه ، كان صوت عمر يشق الفضاء وراءه :

«يا كثير . . ارجع إلى بهم » فعاد وعادوا معه .. ووقف الغلمان أمام عمر الذى راح يفحص وجوههم من جديد . . فماذا رأى ؟

رأى وجوهاً أملقت من الدم . . وعيونا انطفأ فيها كل ومض وبريق .. وجسوما خرعة أعياها البؤس والسغوب فسأل : من سيد هؤلاء ؟ ائتونى به .

فلما جاء سيدهم ، عبد الرحمن بن حاطب . قال عمر: «لقد هممت أن أقطع أيدى هؤلاء . . لولا ما أعلمه من أنكم تدئبونهم وتجيعونهم ، حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه ، لحل له ! . وايم الله إذ لم أفعل ، لأغرمنك غرامة توجعك وتزجرك . . .»

ثم سأل صاحب الناقة المسروقة :

كم تساوى ناقتك يا مزنى ؟ فقال : أربعمائة . . قال عمر لعبد الرحمن سيد الغلمان المتهمين : اذهب وأعطه ثمانمائة . . ومرة أخرى ألقى على الغلمان نظرة نابعة من فطنته ورحمته معاً وقال : أما أنتم ، فاذهبوا . . ولا تعودوا لمثلها .

سلام على عمر . . فى الأولين والآخرين ! . ولهؤلاء الذين يتخذون من

الإسلام « برقانا » يسترون به مظالمهم ، عزاؤنا . . فقد فقدوا بهذا المبدأ الذى شرعه أمير المؤمنين، كل أمل فى النجاة من المسئولية التى تحاصرهم وتحيط بهم.

ويماثل حكم عمر ما يقوله العالم الكبير « ا . كوتيليت » البلجيكى فى كتابه « الانسان وتطور خصاله » :

« يحمل المجتمع فى رحمه جنين كل جرم يقترف فيه . . فهو الوعاء الذى يحتوى الظروف التى تيسر نشوء الجريمة ، وتمهد لها الطريق — أما المجرم ، فليس سوى آلة التنفيذ » .

فلنعمل على الا يحمل مجتمعنا فى رحمه سوى الأجنة الصالحة الخيرة ، وأن يحتوى دائماً أو غالباً ، الظروف التى تيسر نشوء السلام لا نشوء الجريمة .. وذلك يتحقق فى نظرنا بثلاثة أمور :

الاول — أن نعمل اسلامنا الخاص أولا وقبل كل شىء ، ونوجه كل جهودنا وإمكانياتنا لخدمة أنفسنا ومصالحنا الخاصة . . ثم إذا بقى من جهدنا فائض ومزيد لا نحتاج إليهما ، فلا مانع من إسباغهما على الآخرين .

الثانى — استقصاء كل عوامل القلق والرجعية والظلم الاجتماعى والكشف عنها ، ومواجهتها فى شجاعة وصراحة وإزالتها من طريق المجتمع .

الثالث — تجديد الأوضاع الاقتصادية لا ترقيعها ، وتنفيذ سياسة اشتراكية شاملة واضحة تعطى كل ذى حق حقه ، وتقضى على التفاوت البعيد ، وتدك حاجز التمييز بين الطبقات .

والآن . لنتكلم عن هذه الثلاثة . . ولنعالجها بالروح الكامنة فى مطامحنا

جميعاً ، محاولين أن نتغلب على مشاكلها لنتغلب تبعاً لذلك على البغضاء التى بثها الحرمان خلال الزمن الطويل .

* * *

سلامنا أولا :

طاف كاتب أمريكى ببلاد الشرق الأوسط ثم كتب عنه فيما كتب هذه العبارة : « فى الشرق الأوسط : فى هذه الرقعة المضطربة تصطدم رغبات روسيا بالمصالح الحيوية لبريطانيا والولايات المتحدة وأنت ترى ملايين من العرب يتململون فى سورة انبعاث قومى ، وهم لم يقرروا بعد : أيتجهون إلى الشرق أم يتجهون إلى الغرب ، إلى الشيوعية أم إلى الديمقراطية .

« ولباب الحقيقة فى شأن العرب اليوم ، هو أنهم فى غمار تحول عنيف سريع فهم ينتقلون فى مدى جيل واحد من حياة كحياة الإقطاع فى القرون الوسطى ، إلى حضارة القرن العشرين » .

وهذه الكلمات الوجيزة تفتح أعيننا على حقيقة أمرنا ، وحقيقة أمر أولئك الفضوليين الذين يفرضون أنفسهم علينا ويتخذون من بلادنا ومصالحنا ميداناً يصطرعون فيه ويتعاركون .

فمن جهتنا نحن . . . ملايين تتململ فى سورة انبعاث قومى . . يقابل ذلك، دول كبرى تتململ فى سورة جشع واستعمار . . ! كل دولة تريد أن تكون لها الكبرياء فى أرضنا ، والامتياز المطلق فى منتجاتنا وخيراتنا . . وهذا التنازع علينا ، والتنافس فينا .. هو السلام الذى ينشدونه ويدعون إلى دعمه وحمايته. !

ما أبلغه من درس قمين بالتدبر وإعمال الفكر . . فالسلام كما تفهمه هذه الدول الكبيرة ، هو أن تجد لبضائعها أسواقا ولطائراتها بترولا ولأطماعها مجالا ومناطق نفوذ . . ولا تثريب عليها إذا هي احتربت وتصارعت من أجل هذه الأطماع ، لأنها حرب من أجل السلام ، أى من أجل ضرورتها ، ومطالبها ومصالحها ..! وأسفهم على السلام لا يعنى إلا الأسف على سلامهم الخاص. أما السلام العالمي فهو خرافة ، وهو دمية جميلة يعابثون بها ويخادعون الأمم الصغيرة التي لا يزال وعيها في دور الطفولة الغريرة .. وكل دولة من تلك الدول ذات السيادة والنفوذ ، على أتم الاستعداد لأن تذبح السلام العالمي وتسحقه إذا كان في ذلك ضمان سلامها الخاص . وإذا كنا قد نسينا كل العبر الغابرة فما أظننا نسينا درس فلسطين الذى يوكد هذه الحقيقة أعمق توكيد .

فعندما رأت انجلترا إصرار الشرق على التخلص من صداقتها الجبرية المفروضة . دعمت « إسفين » الصهيونية في فلسطين ومن قبل هذه الخطة . أو في ثنيها . توجت صديقها الأكبر — الملك عبد الله — على شرق الأردن .. وهي تعلم علم اليقين أن شرق الأردن لا تصلح أن تكون « دائرة انتخابية » فضلا عن أن تكون مملكة . والملك عبد الله نفسه يعلم ذلك .. يعلم أنها قرية ضئيلة يحدها من الشمال شرق الأردن ومن الجنوب شرق الأردن ، ومن الغرب والشرق . شرق الاردن .

جلالته يعلم أنها دولة « جيب » ويظهر أنه كان متألماً من هذا الوضع بدليل أنه قام بعد إعلان تنصيبه ملكا ، بدعوة جديدة إلى سوريا الكبرى .. ولأنه كان على وعد مع أصدقائه الكبار بأن دولة « الجيب » هذه ، ستصبح « بولمان » عما قريب : وليس على حكومة جلالته الآن إلا أن تمتثل أوامر المخرج وتنفذها بأمانة وجرأة ، وفي الوقت المعلوم .. أعطى المخرج الإشارة للصهيونية فتحركت ، وفي مطلع الفصل الثاني من الرواية أعطى إشارة أخرى للقيادة الأردنية فوثبت على خشبة المسرح ولعبت دورها بمهارة بين إعجاب المخرج وتصفيق الممثلين.

ولست أعيد تفاصيل المهزلة ـ فكلنا يعلمها .. وإنما أومض ذكراها فقط لنعيد تلاوة الحقيقة فى ضوئها : فانجلترا تعلم ولا ريب أن تمكين الصهيونية فى فلسطين تمكين للفتنة والبغى والعدوان ، وتهديد مستمر لحياة السلام . وهى أيضاً تعلم أن إحداث فجوة عميقة بين الملك عبد الله ، وبقية دول العرب أو تقسيم العرب إلى معسكرين هاشمى ، وغير هاشمى ، أو « تدويل » القرية الأردنية وتضخيمها على حساب جاراتها .. لن يفيد السلام فى شىء بل سيمزقه ويجعله وهما وأحاديث ، ويثير نقع فتنة عاصفة .

وكذلك تعلم أمريكا .. كما تعلم روسيا أن تدليلهما الصهيونية ونصب شراعها فى محيط العرب المسالمين ليس سوى تقويض للسلام فى جزء كبير من الدنيا ، ومع ذلك رأينا كل دولة فى هذا « الثالوث » الحامى حمى السلام ، تسابق الأخرى فى سكب البترول على النار ـ لماذا ؟ لأن كل واحدة منهن تبحث كما قلنا عن سلامها الخاص . وتحاول أن تستكثر من « مراكز التنفس » لنفسها ، ولو كان ذلك على حساب حياة الآخرين وسلامهم . ؟ !

بل إن أمامنا شواهد أخرى تنادى بأن ذلك الغرب لا يريد للشرق حياة ، ولا سلاما ، وأنه يعمل على بقاء القلاقل والكوارث فيه ليبقى له نفوذه الأثيم ، وحججه الكاذبة التى يدعم بها هذا النفوذ .

فبينما تتظاهر دولة كبرى بدعوة حكومات العرب والشرق الأوسط إلى رفع مستوى المعيشة للشعوب .. إذا بهم يعملون بكل الوسائل على تعويق النهضة التى تريدها شعوب الشرق .

ولنستمع لشاهد من أهلها وهو مراسل انجليزى يقيم على مقربة من وزارة خارجيته ، ويعرف حقيقة اتجاهاتها أو بعض هذه الحقيقة .

كتبت صحيفة مصرية يومية فى ٨ يونيه سنة ١٩٤٧ تقول :

— « . وقد دأب المستر «بيفن» منذ أن تولى السلطة على القول بأنه يهدف فى سياسته بالشرق الأوسط إلى رفع مستوى شعوبه — ولكن كيف ؟ !

— « يمكن أن تقدم لنا مسألة امتيازات زيت البترول فى المملكة العربية السعودية جوابا جزئيا على ذلك . . فإن فى عمليه استخراج البترول من تلك الأراضى ، من الربح ما يسمح لانجلترا وأمريكا أن تعطيا الملك ابن السعود منحة سنوية كبيرة جداً . ولكى يوضع الملك ابن السعود فى حالة تدفعه إلى الرضاء دعت انجلترا وأمريكا ولده ووزراءه وحاشيته لزيارتهما حيث أكرمتا وفادتهم إكراما ملكياً . وقد حضرت بعض ما أقيم لهم من مآدب وشاهدت بنفسى ما بذل فيها من بذخ ..

— « هذا هو ما يسميه المستر بيفن رفع مستوى شعوب الشرق الأوسط .

— « .. وفى نفس الوقت أرغم آلاف العمال فى آبار البترول الإيرانية فى البحرين بقوة السلاح على العمل ، وأرسلت فرقة هندية إلى الحدود الإيرانية مزودة بما يلزم لتحطيم إضراب عمال آبار الزيت الوطنية الذين طالبوا بزيادة قرش واحد على أجورهم اليومية الضئيلة .. ! ؟

— « لا . . ليست أراضى دول الشرق هى التى سوف تفيض فيها أنهار العسل واللبن كنتيجة لاستغلال ثروتها المعدنية : بل هى أراضى أبناء العم سام وجون بول المرفهين المدللين .. » اهـ .

إن المسألة ليست فقط مجرد استهجان لاعتداء « امبراطورية » على بضعة آلاف من العمال يريدون قرشا واحداً من بترولهم وأرضهم .. ! ولكنها رمز أى رمز على مدى ما فى دعوى الغرب من الحرص على رفع مستوانا من زور وبهتان

إن زعماء الغرب حين يفكرون داخل حدودهم ، فإنما يفكرون بعقول اقتصادية علمية . لأنهم لا يستطيعون أن يحرموا جوفا واحداً من الزبد ، والويل لأحدهم إذا فعل . إن الشعب ليسقطه فى مثل لمح البصر .. ولكن حين تغادر عقولهم حدود بلادهم فإنها تفكر تفكيراً استعماريا سياسيا لا غير دون أن تستجيب لأية عاطفة رحيمة نبيلة .

ولذلك نجد بلادهم تموج بالمسرات والمباهج والنعم .. وأمامى الآن إحصاء نقلته منذ عام ونصف تقريبا ، نلاحظ فيه أن بلداً كالولايات المتحدة رغم أن أهله يكونون ٦ ٪ من مجموع سكان العالم إلا أنهم يملكون :

٧٠ ٪ من مجموع سيارات العالم .
٥٠ ٪ « « تليفونات العالم .
٤٥ ٪ « « راديوات العالم .
٣٤ ٪ « « السكك الحديدية فى العالم .

ويستهلكون :

٥٦ ٪ من حرير العالم .
٥٣ ٪ من جميع بن العالم .
٥١ ٪ من جميع كاوتشوك العالم .

* * *

ووراء هذه الأرقام السعيدة ، نبصر شعبا سخرت له الحياة .. تجرى بأمره رخاء حيث أصاب .. وفى مستوى مماثل لهذا ، أو قريب منه تعيش كل الدول التى تتنافس فينا ، وتتآمر على وجودنا وغذائنا وكسائنا .. !

والعجب أنهم يستخفون بنا استخفافا ساخراً ، ويستغلون سذاجتنا استغلالا بارعا .. فتراهم كلما حاولنا إثارة حقنا فى الاستقلال المطلق ، وفى التحلل من الاتفاقيات التى أصبحت غير ذات موضوع، يخلقون مظاهرة كاذبة ولكنها صاخبة .. ويوهموننا بأن الحرب ستقع بعد أيام وربما بعد ساعات .. وتستجيب لدعايتهم صحافة قصيرة النظر ، أو مغرضة القصد ، وفى هذه الضوضاء المفتعلة يتبدد الصوت الذى انبعث يطلب حقا مضيعاً مسلوبا .

وإنك لتستطيع الآن بعد قراءة هذه السطور ، أن تذهب إلى دار الكتب وتقلب الصحف التى كانت تصدر أيام عرض قضيتنا على مجلس الأمن ، أو أثناء قضية فلسطين . فستراها تحدثك عن الحرب .. الحرب التى ستنقذف شرارتها بعد ساعات .. وتحدثك عن وجهة نظر زعماء أمريكا وانجلترا فى الخلاف المصرى الانجليزى وكيف يجب أن ننتهى إلى حل قبل وقوع الكارثة تماما — كما يحدث اليوم ، لأننا نريد إثارة قضيتنا من جديد .. ! !

والواقع أنه لا حرب .. الآن على الأقل ، لا لأنهم انقلبوا بنعمة الله إخوانا .. بل لفزعهم من الحرب المقبلة وإيمانهم جميعاً بأنها ستلتهم الغالب والمغلوب معاً .

فلنملأ بهذه الحقيقة نفوسنا ولنرفع مستوانا من غنيمة باردة تتزاحم عليها الذئاب . إلى قوة مهيبة تحترمها الذئاب وتخشاها . وإنا ، ولا ريب ، عاجزون عن إقناعهم باحترامنا . حتى نحترم نحن أنفسنا .. والطريق لهذا — أن نصنع كما يصنعون . فنبحث عن سلامنا الخاص ونمكن لشعوبنا فى الأرض وفى الحياة ونملأ بلادنا بالرخاء والرغد .. ما أحوجنا إلى جرعة قوية من الأنانية التى تحصرنا فى أنفسنا ، وفى مصالحنا — فلا نفكر لغيرنا حتى ننتهى من التفكير لأمتنا وشعبنا ، والتى تجعلنا فى النطاق الدولى أصحاب ذاتية مستقلة ، تدور

حول نفسها ، وحول مصالحها .. ولا نخلق لأنفسنا عداوات نحن فى غنى عنها أو نزج بها فى خلاف كبير ، لا نوق لنا فيها ولا جمال .

* * *

هذه عوائقنا :

١ — التفاوت البعيد :

فى طليعة العوامل التى تحرم مجتمعنا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذا التمايز البعيد الذى يشطره شطرين غير متكافئين .

ولقد أصبحت هذه الفروق الشاسعة بين طبقتى المجتمع من الموضوعات التى يكثر فيها اللغط ، ويقل الفهم الصحيح والإدراك السليم .

واتخذها الساخطون وقوداً يسعرون به سخطهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أو مفيد ، ونريد الآن قبل تفنيد مضار هذا التفاوت ، أن نفهمه على وجهه الصحيح .. فليس معنى نقدنا له ، أننا ندعو لإزالة كل حاجز وفارق بين الناس فذلك أمر مستحيل : وإنا لنجد فى مثل أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيداً ضخماً من المال ، ومن لا يملك شيئاً .. بيد أنهم لا يضارون بهذا التفاوت كما نضار به . وكما نرزح تحت كاهله وضراوته : ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضروراتها ، وفى منتصف المسافة ، أو أكثر إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية . والمجتمع هناك . غير قلق على مستقبله ولا ضائق بحاضره ـ وهو لهذا راض عن نفسه . سعيد بنظمه . لا يثير التفاوت بغضاءه لأنه مكفول الرغد . مطرد التقدم والاقتراب من السعادة الغامرة ولكل

فرد من أفراده الحق، فى كافة الفرص التى يمكن أن تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً ـ فهو لذلك لايجد من الوقت ما ينفقه فى الحقد والبغضاء . لأنه متجه نحو الفرص المترعة بكل مقدرات النجاح والفوز يتقبلها وينتهزها .

ثم إن التفاوت هناك يخضع غالبا لعوامل طبيعية شريفة . وليس نتيجة استغلال جشع كالذى عندنا !من أجل هذا تراهم مؤمنين ببلادهم وبأنفسهم إيماناً يحلق بهم فوق العواصف والأخطار . فهذه السيدة الأمريكية التى وقفت تودع أبناءها الخمسة إلى ميدان القتال وتقول لهم : «إذا خامركم خوف أو تردد، فاذكروا أن الموت رحلة جميلة . . ! ! سوف تلقون فى نهايتها أباكم ! ! » . وكان أبوهم قد استشهد فى إحدى المعارك .

والمرأة الروسية التى صمدت أمام جنود الألمان . وقاتلتهم فى « مطبخ » دارها بسكين الثوم والبصل حتى فاض أخيراً روحها الباسل وهى تقول: «لا بأس أن أموت ! أما روسيا فلن تموت أبداً » .

وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانوا يسارعون إلى حومة الوغى كأنهم ذاهبون إلى مواعيد حب جميل ! أى سحر ذلك الذى أنساهم رهبة الموت وقسوة المصير ؟ !

إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذى يعيشون فيه إخواناً وسواسية ـ ليس فيهم قطعان وذئاب. ولا عبيد وأرباب المجتمع الذى منحهم كل إمكانياته وفرصه فمنحوه كل ولائهم وقلوبهم . وبادلوه وفاء بوفاء وتقديرا بتقدير .

ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها. ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أعلاها الأدنى . ويمقت أدناها

الأعلى ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمراً له كل كراهية وسوء . . ومهما نحاول إرضاء هذا الفريق الأدنى برفع مرتبه وتحسين دخله ، فإنه لن يرضى . . لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هـذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون . فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ، ويرغدون أكثر مما ينبغى أن يرغدوا ، ويجلسون فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها ولغوبها . . ! !

ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكنه الأعلون لأمتهم ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم . . . ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى أتخمتهم نعمه وطيباته... فعندما قررت مجانية التعليم الابتدائى منذ سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من مدارس الحكومة حتى لا يخالطوا فيها أبناء الفقراء والرعاع . . ! ! ثم أدخلوهم مدارس أجنبية تليق بمجدهم ومجد آبائهم . وإن وراء هذا التصرف المخجل لإيماناً عريقاً بالأرستقراطية ، وحرصاً شديداً على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نابية لا تقرها أخلاق الدين ، ولا أخلاق الدنيا .. !

ولقد ذكرونا بنظرائهم فى الجاهلية الأولى . إذ ذهب وفد من أعيان مكة إلى رسول الله وقالوا له :

« يا محمد . . لقد رضينا أن نستمع إليك . ولكننا لا نجالس هذه الأخلاط من عبيدنا ، وصعاليك مكة الفقراء — فاجعل لنا يوماً ، ولهم يوماً » ؟

واستأناهم الرسول إلى غد . . . حتى يأتى أمر ربه ؛ وسرعان ما جاء الوحى الرشيد بآيات باهرة :

« . . . واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » .

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ماعليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء . فتطردهم فتكون من الظالمين » .

وجاء العالون فى الأرض .. فألفوا محمداً قد فرش للفقراء والعبيد رداءه وأجلسهم عليه، وراح يربت على مناكبهم واحداً واحداً ؛ ويحييهم وفى عينيه دموع الغبطة والرضا قائلا : «أهلا بمن أوصانى بهم ربى »وتلا عليهم آيات ربه وانسحب « وفد الأعيان » يجرر أذيال الخيبة والهزيمة . فقد سامتهم السماء احتقارها ، وبسطت ذراعيها تحتضن بهما الفقراء الكادحين .

ما أحوج هؤلاء الذين يستنكفون عن زمالة الشعب إلى هذا الدرس البليغ الصارم ، ليطامنوا من صلفهم ويتهنهوا من كبريائهم !

* * *

إن الحرص على سلامة المجتمع ورخائه، يقتضينا أن نواجه هذه الحقيقة — وهى أنه لا استقرار، ولا غلبة لأى إصلاح اجتماعى إلا بتقريب المسافة البعيدة الفاصلة بين طبقتى الامة وتوزيع الفرص على المواطنين توزيعاً يقضى على التفاوت القصى الذى يشطر وحدتها النفسية والفكرية: وإن مقارنة عابرة بين جاردن سيتى مثلا وبين آلاف القرى ، ومعها الأحياء الشعبية فى القاهرة وغيرها .. لتفتح أبصارنا على الخدعة الكبرى التى ينطوى عليها مجتمعنا المكدود وديمقراطيتنا الزائفة ! وتذكرنا بما كتبه الأستاذ الصاوى فى صدر الأهرام : « إن مائة أسرة فقط هى التى تنعم بخيرات هذا البلد وطيباته .. » كما تذكرنا بكلمته فى « أخبار اليوم » عن الملايين التى ليس لها فى الحياة حظ ولا نصيب. «هناك ترى آية انحطاط الشرق .. ترى ما تقشعر منه الأبدان من القذارة. ترى مخلوقات بشرية تعيش كأنها لا تعرف الهواء ولا النور، وتتغذى بالذباب والتراب،

٢ — الملكيات الزراعية الكبرى :

وثانى العوائق التى تحول بين المجتمع ونموه وسعادته — هذه الملكيات الزراعية الواسعة . وإذا كانت مصر بلداً زراعياً ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكا لمائة أسرة أو مائتين . فماذا يبقى إذن للشعب من ثروة بلاده وأرضه ؟ !

هذه ظاهرة محرجة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد فى مواجهتها ، مثل ما ننفقه فى مكافحة الضائقين بها لأفدنا كثيراً .

وإنا لنعلم كيف بدأت قصة التفاتيش والضياع ، يوم كان الفلاح المصرى عاجزاً عن زراعة المساحات المتوسطة ، فضلا عن الشاسعة ، فرئى إقطاع بعض القادرين هذه التفاتيش ليزرعوها ويعمروها .. ؟ !

وفى هذا المعنى يحدثنا « قلينى فهمى (باشا) » فى مذكراته ، عن ذكرياته أيام كان موظفاً كبيراً بالدائرة السنية ، فيقول فى العدد « ١٢٢٦ » من مجلة المصور :

« .. كان إسماعيل يملك مئات الألوف من الأفدنة فى أنحاء البلاد ، ومنها جميع أراضى مديريتى بنى سويف والمنيا ، عدا خمسة عشر مصنعاً للسكر كلفه كل منها مليون ونصف مليون من الجنيهات ، وكانت هذه الأراضى مقسمة إلى تفاتيش ، كل تفتيش لا تقل مساحته عن سبعين ألف فدان .

« فإذا أراد سموه أن يكافىء أحداً على إخلاصه فى العمل ، أقطعه جزءاً منها » هكذا ولدت الملكيات الزراعية الواسعة .. ثم طفقت بين مد وجزر حتى

تبلورت أخيراً فى هذا الإحصاء المروع[1] :

فالذين يملكون أكثر من خمسة أفدنة إلى عشرة أفدنة — يبلغ عددهم ٨٥ر٦٢٢ — ويملكون نحو ستمائة ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من عشرة أفدنة إلى عشرين فداناً — يبلغ عددهم ٤١ر٤٥٥ — ويملكون نحو ستمائة ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من عشرين فداناً إلى ثلاثين فداناً — يبلغ عددهم ١١ر٩٠٧ — ويملكون نحو ثلثمائة ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من ثلاثين فدانا إلى خمسين فدانا — يبلغ عددهم ٩١٧٩ — ويملكون نحو ثلاثمائة وخمسين ألف فدان

والذين يملكون خمسين فدانا إلى مائة فدان — يبلغ عددهم ٦٧٧٣ — ويملكون نحو أربعمائة وخمسين ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من مائة فدان إلى مائتى فدان — يبلغ عددهم ٣١٤٨ — ويملكون نحو خمسمائة ألف فدان

والذين يملكون أكثر من مائتى فدان إلى أربعمائة فدان — يبلغ عددهم ١٤٤٨ — ويملكون نحو ثلاثمائة ألف فدان

والذين يملكون أكثر من أربعمائة فدان إلى ستمائة فدان — يبلغ عددهم ١٤٢ — ويملكون نحو مائة ألف فدان

---

(١) منقول عن جريدة المصرى (وراء العناوين) للأستاذ محمود كامل المحامى

والذين يملكون أكثر من ستمائة فدان إلى ثمانمائة فدان — يبلغ عددهم ١٦١ — ويملكون نحو مائة ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من ثمانمائة فدان إلى ألف فدان — يبلغ عددهم ٩٢ — ويملكون نحو ثمانين ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من ألف فدان إلى ألف وخمسمائة يبلغ عددهم ٩٠ ويملكون نحو مائة ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من ألف وخمسمائة فدان إلى ألفين يبلغ عددهم ٤٠ ويملكون نحو سبعين ألف فدان .

والذين يملكون أكثر من ألفي فدان يبلغ عددهم ٦٨ ويملكون نحو ثلاثمائة ألف فدان ! !

ووراء ذلك يوجد « ١٦٫٨٩٤٫٠٨٣ » من المواطنين لا يملكون شيئاً مما جعل تهذيب أوضاع الملكية الزراعية فريضة لازمة وكتاباً موقوتاً .

ولقد وقف رئيس حكومة مسئول فوق منبر البرلمان وصرح بأن وباء الملاريا الذى غيب فى تراب الأرض الآلاف من أبناء الشعب الأسيف ، كان نتيجة حتمية لسوء توزيع الملكية الزراعية ، حيث ضرب الناس بالجوع والإفلاس[1] .

* * *

(١) نص الخطاب الذى ألقاه رئيس الحكومة المشار إليه ، نقله من مضبطة مجلس النواب ، الأستاذ عبد المجيد نافع فى كتابه القيم « السلام الاجتماعى » .

ترى هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها فى هذا المحنة الطاغية ؛ فإنك لتجد الحياة فيها جميعاً ضرباً متماثلا من الشذوذ والفوضى وبينما تلتقى فى مصر بمن يملك قرية كاملة .. إذا بك تلتقى فى العراق بمن يملك مائة ألف فدان ، ويبلغ دخله ربع مليون ريال فى السنة .. ! ! وبجانب هذا الواحد المصرى ، أو العراقى يوجد مليون بطن تقرقر أمعاؤها من الجدوب والسغب !!

ياحسرة على العرب . . . وعلى الشعوب التى أوهنها الحرمان الأليم !

إننا لنعرض مشاكلنا هذه ، بضمير المواطن المخلص الغيور ، وكل رجائنا أن يتقبلها الآخرون بنفس هذا الضمير ، فذلك أجدر ألا تبقى لنا مشاكل وأحرى أن تجرى حياتنا مع تيار العافية والسلام .

وقمين بنا أن نعلم أن بقاء حق التملك الزراعى بدون تحديد — أمر لا يمكن أن يطاق ، وهو بعد ذلك وزر اجتماعى لاتقره إنسانية ، ولا يقره دين .... وخاصة بعد أن بلغ الشعب عشرين مليوناً يريدون أن يخرجوا من نطاق الرق ويسلموا من قبضة الاحتكار .. وسوف نبدى رأينا فيما ينبغى عمله لوضع هذه الأوزار .. وإماطة أذاها عن المجتمع فى نهاية هذا الفصل من الكتاب .

٣ — صكوك الموت !

وثالثة الأثافى — هى الإجارات الزراعية ، وإن هذه العقود التى تبرم كل عام بين المالكين والمستأجرين لتحمل بين سطورها أشنع مأساة مفردة .. وهى صكوك موت حقاً ، يوقعها الفلاح وهو كاره صاغر ذليل .. ، وفى كل قرية من قرى مصر — نتسمع الشهقات المكظومة التى تريد أن تصرخ وتستغيث من جشع الملاك الذين يعاملون المستأجرين بغرائز نهمة .. ثم يصرفها عن الصراخ ما تعلمه من أن عاقبة شكواها ستكون خسراً .

وإنى لأعرف « تفتيشاً » أنزل بالناس عذاباً أليماً ، والفق لهم التهم الكواذب ، وجلد ظهورهم بالسياط . لأنهم رفعوا إلى وكلائه ورؤسائه ملتمساً يرجون فيه تخفيض الإيجارات ، وإعفاءهم من التوقيع على بياض . !

ولقد أدركت بعض الحكومات المصرية ما فى ارتفاع الإيجارات الزراعية من ظلم : وما وراءها من متاعب فادحة للمجتمع بأسره ، فألفت لجنة لدراسة الموضوع . . وأذكر أن اللجنة قررت وجوب تخفيضها وتحديد أسعار مناسبة لها ، ثم وئد القرار ، ولم نسمع له ركزاً . . مع أن التخفيض بداية كل إصلاح مرتجى ورخاء مرتقب — فالغلاء الذى نئن تحت مطارقه .. إنما ترجع أكثر أسبابه إلى الغلاء الفاحش فى تأجير الأرض الزراعية. .وأولئك الفلاحون الذين يكونون تسعة أعشار الشعب لا يجدون ما يسدون به أنفسهم وأبناءهم، لأنهم يستأجرون الفدان بخمسين أو أربعين او ثلاثين جنيهاً ، وينفقون عليه مثل ذلك ثم يعجز محصوله عن الوفاء بمجموع هذه النفقات !

ولقد سمعت أذناى الأستاذ أحمد حسين « بك » ، وزير الشئون الاجتماعيه يقول فى محاضرة له أيام كان وكيلا للشئون: إن وزارة الأوقاف باشرت بنفسها زراعة بعض تفاتيشها التى كانت تؤجرها للأهالى ، فخسرت خسارة فادحة . . بيد أنها حين عادت فى السنة التالية وأجرتها للمزارعين فراراً من الخسارة لم تأخذها بهم رحمة ولا نصفة ، فجعلت أسعارها باهظة . وهى تعلم علم اليقين أن محصولها فى أجود حالاته لن يفى بالإيجار والتكاليف أبداً !

فإذا كانت الحكومة نفسها تضرب الأمثال لبقية المالكين بهذه القسوة والكزازة ، فلمن يتجه الفلاح بظلمته وشكواه ؟

إن بقاء هذا الوضع القاسى فى بلادنا يحول بيننا وبين كل هدف وغاية وإذا كنا حتى اليوم نجامل القلة المالكة على حساب الملايين المعذبة المصفدة بعقود الإيجارات

الزراعية.. فقد آن الأوان لأن نراجع ضمائرنا .. ونرسل البصر فى رحلة سريعة إلى أربعة آلاف قرية ليرجع البصر خاسئاً وهو حسير ، يحمل صورة المأساة التى تجل عن الوصف . . صورة الفلاح المواطن الذى يتوسل إلينا بمصريته وبآدميته ، وبالتراب المقدس.. تراب الوطن الذى يسقيه بدمعه وعرقه، فيصير ذهباً ينساب إلى جيوب المالكين — يتوسل إلينا بذلك كله أن نمكن له فى أرضه ، ونمنحه فرصة يتذوق بها طعم الحياة !

وهذا سؤال نتوجه به إلى السادة أصحاب التفاتيش والضياع : هل فكر أحدكم مرة فى أن يزور مزارعى ضيعته ليرى كيف يعيشون . . أو هل سأل نفسه عقب حفلة ساهرة حمراء..عن المعجزة الخارقة التى يوائم بها الفلاح بين دخله ومصروفاته .

ليتهم يشرفون بزياراتهم تلك الحظائر التى تموج موجاً بالحيوان البليد المسخر وليتهم يفكرون من أجله كل عام ساعة واحدة ، عندما تتكدس أمامهم مئات الألوف من الجنيهات التى انصدعت عنها أرض ضربها الفلاح بساعده ، وأبلى فيها أحسن البلاء !!

إذن لعلموا أى وزر أثيم يجترحونه حين يؤجرون الفدان الواحد بخمسين جنيها ، أو أربعين . فلا يستطيع المستأجر الذى سينفق مثل هذا المبلغ ؛ أو دونه ، على الأرض إلا أن يواجه الموت كل عام ثلاث مرات — عندما تهل مواسم التحصيل والتى هى للأسف مواسم الحصاد موسم الذرة وموسم القمح وموسم القطن .

وإذا قبلنا — جدلا — من رجل يملك عشرة أفدنة أو عشرين . أن

يؤجر الفدان بثلاثين جنيها أو أربعين .. فكيف نقبل ذلك من تفتيش يتكون من آلاف الأفدنة وينتظم قرى كاملة ويستطيع إذا أجر بسعر متواضع معقول ، أن يجمع أموالا طائلة تناسب ملكه المريض الكبير ؟ !

لكن لهؤلاء السادة منطقا آخر مدعماً بالبراهين الدالة على أن الفلاح سعيد جداً فى ظل هذه الإجارات التى تتطفل نحن بنقدها وتجريحها . !

ويضربون لك مثلا بالجاموسة ، وبيض الدجاج . ! فهم يقدمون بلغة الأرقام التى لا يأتيها الباطل ، إحصاءا دقيقاً ينبئنا أن الجاموسة وحدها تدر للفلاح كل عام من لبنها ، وسمنها ، ونتاجها ما لا يقل عن خمسين جنيها .

ولقد أتعبوا بهذه الوثيقة المضحكة وزارة الزراعة التى جندت قسم الإحصاء التابع لها لتبحث هذا الكشف الرائع الخطير .. ولم تدم فرحتنا وا أسفاه ! إذ تبين لقسم الإحصاء أن نفقات الجاموسة من برسيم وتبن وفول وخدمة ، تستغرق معظم ما تدره وتنتجه ولا يتبقى لصاحبها فى أحسن الظروف أكثر من سبعة جنيهات فى العام !

هذا إذا سلمت الجاموسة من العوارض الجائحة التى تتربص بها دون أن تجد من الطب البيطرى معونة أو نفعاً .

* * *

٤ — العامل والموظف الصغير :

وإذا نحن جاوزنا المستأجر الزراعى إلى العامل الزراعى ألفيناه شرا مقاما وأفدح عبئاً .. ولقد قامت « مصلحة الفلاح » ببحث حالة العمال الزراعيين الذين يعملون فى الحقول والتفاتيش ، فإلى أى شىء أفضى بحثها .. ؟

لقد اكتشفت حقائق مؤلمة ومخجلة .. ففى بعض التفاتيش وجدت الرجل يستأجر بخمسة قروش فى اليوم ، بينما يستأجر الحمار بعشرة قروش .. ومعنى هذا أن المساواة لم تتحقق بعد ، بين الإنسان المصرى .. والحمار المصرى !!

كذلك وجدت أن أقل ما يجب أن يظفر به العامل الزراعى يوميا لكى يعيش أدنى وأحقر معيشة — هو ثلاثة عشر قرشا ، بيد أن أغلبية هؤلاء العمال تتراوح أجورهم بين خمسة قروش وعشرة فى اليوم .. والمستمع لوكيل وزارة الشئون الذى تولى الوزارة بعد ذلك يعلق على هذه الموازنة فيقول : « وإذن فالعامل الزراعى مضطر لكى يعيش فى أحط مستوى ، أن يقترض كل يوم ما بين ثمانية قروش وثلاثة قروش » !

وكذلك وجدت مصلحة الفلاح ، أن المدة التى يشتغلها العامل الزراعى لا تتجاوز ستة أشهر فى كل عام ! كما ألفته محروما كل الحرمان مما يتمتع به زميله العامل الصناعى من التشريعات والتشكيلات النافعة !

فليست لهم نقابات ، ولا يباح لهم أن يؤلفوها .. وليس لديهم قانون ساعات العمل ، ولا قانون التعويض عن إصابات العمل ، ولا قانون تشغيل الأحداث والنساء ، ولا غير هذا من القوانين التى دعمت شخصية العامل الصناعى إلى حد كبير وحرم منها ذلك المواطن المنسى المسكين !

أليس إرهاق هذه المجموعة النفيسة من المواطنين وإهمالها ، إهداراً لكرامة الوطن ، وتعويقاً لنهضته ، وتكديراً لسلامه ؟

وحين نغادر العامل الزراعى إلى العامل الصناعى ، نجد هذا الأخير لا يزال فى حضيض الفاقة والإهمال ، رغم ما أحرزته الحركة العمالية من نماء ونجاح ورغم ما ظفروا به من حقوق وتشريعات !

وحين نغادر الاثنين إلى الموظف الصغير . . نجد مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !

نجد الشقاء ، والدين ، وفوضى المعيشة — قد تضامت جميعا ، وتداخلت وصيغ منها هذا الكائن المرتجف المقرور . . الذى لايموت ولايحيا . . !

أعرف موظفاً ـ هو صورة لآلاف مثله ـ خدم الحكومة خمسة وعشرين عاما ، ولا يزال فى خدمتها ، له بنون وبنات . . ودخله الشهرى سبعة جنيهات مصريةمع أنه يقوم بعمله الكتابى خير قيام ، ويحمده كل رؤسائه وزملائه..! ومنذ عام أشيع أنأمثاله من المنسيين سينالون الدرجة التاسعة..وفرح المسكين فرحالم يفرح مثله قبله.. وملأت أمه الجو بصياح الغبطة ! ومضت تبشر الناس أن ابنها سيأخذ « نمرة ٩ » . . ومضى عام كامل ، ولا يزال المسكين ينتظر . . لكن ولاءه لواجبه لم يتغير . . فيراه ينهض صباح كل يوم فيغدو إلى « الديوان » لينجز أعماله . . ثم يروح إلى البيت ، ليواجه أثقاله وأحماله ..!

ألا سحقا لهذه المحنة التى نسميها حياة !

كيف يعيش هذا المخلوق ، وكيف يعيش الآلاف من نظرائه أيتها الدولة الرشيدة ؟ !

إنه لوقضى هذا العصر المديد يتاجر فى الفقر ذاته لكان اليوم ثريا عظيما لكن حظه السيء أوقعه فى خدمة الحكومة ، فهو ـ بعد خمسة وعشرين عاما ـ قد رجع لابخفى حنين . . بل بخفى الحكومة !

وبات ينتظر هذا المسكين ـ ومن على شاكلته ـ إعانة الغلاء الجديدة

المرتقبة لتنقذ من مأساتهم ما يمكن إنقاذه . وإنا لنرجو أن تأتى محققة لبعض آمالهم ومصالحهم .

* * *

إن الوظيفة هى « العقدة الحيوية » فى جسم المجتمع . . هى مركز التنفس الذى ينظم دورات الدم ، وحركات الأجهزة ، ويسلم الجسم إذا سلم ، ويعطب إذا عطب . . وهذا الجيش اللجب من صغار الموظفين ـ يمسك بيده مصاير الأمة ومصالحها ، وما لم تشعرهم بأنهم موضع عناية الدولة ورعايتها ، فلن يؤدوا واجباتهم إلا فى جو من الضجر والفتور . . وهذا هو سر البطء القاتل الذى يتسم به الروتين الحكومى عندنا ، والذى يعطل مصالح المجتمع ، ويفسد عليه أموره ـ كما أن المحسوبية التى تصطفى من بينهم من لا كفاية له ولا موهبة سوى قرابة أو مصاهرة أو تبعية ؛ ثم ترفعه فوق نظرائه درجات . . قد أفسدت ذمما كثيرة ، وجعلت الاختلاس عند كثيرين فضيلة يتنافسون فى إحرازها . . وصرنا نسمع عن كاتب بسيط يستطيع أن يختلس مائة ألف من الجنيهات . ! !

حقاً إن المجتمع يحمل فى رحمه جنين كل جرم يقترف . وإن الحكومة حين تتخلى عن واجباتها إزاء رعاياها ومواطنيها ، تهيء لنفسها مصيرا قاسياً أليما . . وهى بحرمانها الموظف الصغير من ضرورات الحياة ، وإغداقها مئات الجنيهات وآلافها على كبار الموظفين ، تحض على الفساد والفوضى .

* * *

هذه مهاب العواصف التى تهدد سلام المجتمع ، وتتوعده بكارثة محققة ـ وليست السلامة أمراً معجز الدرك ، أو صعب المزاولة . . بل إنا لقادرون على

أن نأسو كلومنا أسواً جميلا ، ونبدد تلك المواصف السافية والعاتية ، إذا تسلحنا بروح الإنصاف والإيثار، وآمنا بضرورة حدوث تحول اجتماعى شامل، وبذلنا جميعاً — الحكومة والشعب — محاولة صادقة لإتمام هذا التحول دون أن نريق قطرة دم واحدة، ومن غير أن يكفر بعضنا ببعض ويلعن بعضنا بعضا.

والآن .. وقد استبان لنا أن الخبز هو السلام، وأن مرد كل تأخر وانهيار وتذمر ، إلى الفقر وما يعانيه الشعب من خصاصة وحرمان .. فقد آن لنا أن نضع أقدامنا على الطريق الذى يفضى بنا إلى الغاية النبيلة التى يتحقق ببلوغها معنى وجودنا وحياتنا — فأين هذا الطريق .. ؟

* * *

لاشيء سوى الاشتراكية :

عندما نزلت عبارة «العدالة الاجتماعية» ضيفاً على مجتمعنا المصرى عقيب الحرب .. وأخذت ألسنة المواطنين تتداولها ، وتتلمظ بها ، كنت أجد لمذاقها لذيذاً . وجرسا منغما عذباً دون أن أعرف حقيقة مدلولها ، وما تمثله من نظم ومناهج .. حتى رأيتها تجرى على ألسنة الطبقة الكانزة التى يشكو المجتمع من استغلالها وجشعها وكزازتها ، وسمعت قوارين هذه الطبقة ورؤساءها يرددون فى ضوضاء وصخب نفس العبارة التى يرددها المحرومون وهى « نريد العدالة الاجتماعية » فبدأت أشك فى مدلولها ومعناها .. وقررت أن أقف على تفسير علمى صحيح لها خشية أن نكون قد وقعنا فى غرام هدف يضرنا ولا ينفعنا !. فألفيت الراسخين فى العلم يعرفون العدل الاجتماعى بأنه « طائفة من المبادىء والنظم التى ثبت بالتجربة أن المنفعة الاجتماعية تبلغ بها حدها الأقصى، والتى اعترف الناس بأن لها من الأهمية ما ينسخ جميع الاعتبارات الوقتية » ..

ويظهر أن زعماء الرجعية الاقتصادية لا يعنون بالعدالة الاجتماعية هذا الذى عناه العلماء وإلا ما نادوا بها ، وأنهم يهدفون بترديدها والهتاف بها إلى مداراة الوعى ، وملء قلوب الشعب بالمنى والآمال .

والآن نستطيع أن نطرح هذا السؤال :

هل العدالة الاجتماعية روسية الجنسية ، ماركسية الدم ؟ . . أم هى فطرة أحست بها الإنسانية منذ أحست بوجودها ، ومنذ سمعت وجيب الوعى والحياة يخفق بين جنبيها . . ؟

وهو سؤال نوجهه لأولئك الذين يرجفون بالتهم على كل من يرفع عقيرته مستحثاً سير الإصلاح فى بلادنا الحبيبة . . حتى إنهم ليعتبرون كل كلمة من أجل المساواة والعدل ، نفثة من نفثات ماركس وآية من إنجيل الشيوعية . . ناسين أن أراجيفهم هذه تفيد الشيوعية ذاتها ، وتضفى عليها ألواناً زاهية من التكريم وهى فى نفس الوقت لن تعوق رواد العدل الاجتماعى عن غايتهم — لأنهم يؤمنون به وبالشعب إيماناً لا يوهنه عواء الذئاب .

* * *

إن التاريخ الإنسانى مترع بالمحاولات التى بذلها العقل ليخرج العدالة فى أحسن تقويم وأوفى نظام .. وما من رائد مر بالتاريخ إلا وقد خلف وراءه آثار كدحه فى سبيل الظفر بمستوى أرقى ، وتعاون أسمى للبشرية جميعها .

وفى كفاح موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، نرى التحاما شاقا مستمراً بينهم وبين ذوى الأنانية المفرطة . ونبصر فيضاً من التوجيهات الداعية إلى تنفيذ مشيئة الله فى أن يعيش الناس إخواناً وسواسية .

إذن فالعدل الاجتماعى ، والاشتراكية ، التى هى أصدق مظهر له — فطرة عريقة يحسها الجنس البشرى كله إحساساً قوياً واضحاً ، وليس ضربة لازب أن يكون المؤمنون بهما الداعون إليهما ، بلاشفة يعذبون ويضطهدون !

ولنعد لتعريف العدل الاجتماعى مرة أخرى .. « طائفة من المبادىء والنظم ثبت بالتجربة أن المنفعة الاجتماعية تبلغ بها حدها الأقصى .. » ثم لننظر ذات اليمين وذات الشمال باحثين عن النظام أو المبدأ الذى يحقق هذه الغاية .

لقد انعقد إجماع العالم المتحضر كله على أن النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى ، فى الوقت الحاضر — هو الاشتراكية — ويتجلى هذا الإجماع العالمى الرشيد فى أخذ الدول الناهضة جميعها بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله .. ولكنه فى شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة وإن مواكب الأمم الراقية لتخطف الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قمم الاشتراكية العليا دون أن تتهم نفسها ، أو يتهم بعضها بعضاً بتلك التهم المعروفة التى نملك منها رصيداً ضخماً !

أترون انجلترا شيوعية — وهى التى صعدت بالضريبة المتصاعدية إلى ٩٤ ٪ وراحت فى سرعة البرق تؤمم الملكيات الإنتاجية الكبرى ؟

أم ترون أمريكا شيوعية — وهى التى لا يقل أدنى مرتب لأدنى فرد فيها عما يعادل عندنا خمسين جنيها مصرياً .. !

لنذكر جيداً هذه الحقائق الثلاث :

أولا — أن العدل الاجتماعى ضرورة لازمة نادى بها الشعب والحكومة واتفق المجتمع كله عليها .

ثانياً — أن العدل الاجتماعى هو النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى .

ثالثاً — أن النظام الذى حقق هذه الغاية فى الفترة الحاضرة هو الاشتراكية ولاشىء سواها .

أما سياسة « الترقيع » التى نسير عليها .. مثل صرف إعانات الغلاء .. أو بدل تفرغ . أو « بدل شحاذة » كما عبر بعض الموظفين ، فإن ذلك كله وإن كان يخفف من خفق الصداع وآلامه إلا أنه لن يستأصل شأفة العلة الخبيثة والمرض الدفين .. ولاشىء يحسم هذه الفوضى التى نعانيها مثل أن نخطو خطوة كتلك التى خطتها انجلترا مثلا . فنتحول من مجتمع رأسمالى متطرف إلى مجتمع اشتراكى معتدل ، تنتظم الاشتراكية كل مرافقه أوجلها وتتحرر فيه قوى الإنتاج المحبوسة فى أيدى الرأسماليين المتطرفين . وطبيعى أننا لن نجد من الدين ولا من العقل ولا من الظروف معارضة لهذا التحول الرشيد ، بل سنجد منها جميعا ، ولاسيما الدين ، عونا وتعضيداً .. فإن كل توجهات الرسول لتنزع إلى الاشتراكية فى كل نظام يبتكره الناس ويحقق منافعهم ومصالحهم ، ولطالما كان عليه السلام يقول : (إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو أو قل فى أيديهم الطعام .. جمعوا ما عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم . فهم منى ، وأنا منهم) .

فلنخط هذه الخطوة الأولى فى شجاعة وثقة ؛ فإن من ورائها المجد والعافية والسلام .

من هنا تبدأ اشتراكيتنا :

منذ أربعة أعوام وقف « أريك جونستون » رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومذاك ، يلقى خطبة وداع نشرتها مجلة المختار فى حينها .. وكانت تلك

الخطبة نصيحة نفيسة ، يقدمها للرأسمالية الأمريكية ، أحد أقطابها العاقلين ..
ولقد قال فيها : « نحن نقول : إننا نريد تعزيز المكانة الاقتصادية للطبقة المتوسطة وهذا يعنى أن يقل عدد الذين فى الحضيض ، وعدد الذين فى القمة ، وأن يكثر عدد الذين فى الوسط . إذن فما عيب تحديد حد أدنى للأجور يحفظ على الإنسان كرامته ؟ فهذه إذن وسيلة لرفع مستوى الذين فى الحضيض ، أليست كذلك ؟ وهى أيضاً وسيلة لزيادة عدد الذين فى الوسط ، ونحن نقول إنه يؤسفنا أن نرى الكساد فى الحين بعد الحين ، وتعطل العمال عن العمل فى فصول بعينها ، ونقول إننا نطلب عملا ثابتا للعمال . إذن فما هو عيب الأجر السنوى ؟ إنه يكفل للعامل عملا ثابتا سنة كاملة ، أليس كذلك .. ؟ ؟

« ونحن نقول : إننا نريد حقا أن نرى نعم الحياة أوفر انتشاراً بين الناس إذن فما هو عيب نظام المشاركة فى الأرباح ؟ وما هو عيب ابتكار الحوافز للعمال حتى يزيدوا إنتاجهم — فيزيد ربحهم ، وربحك أيضا ؟

« ونحن نقول : إننا نريد لجميع الناس بيوتا أفضل وتعليما أرقى ، وإننا نطلب مستوى صحيحاً أعلى يكفل حسن العيش للجميع حين تتقدم بهم السن وإننا نريد جميع أسباب الرخاء الحقيقى لجميع الناس .

« فإذا كنا نريد ذلك حقا ، فيجب أن تكون ثمة وسائل لتحقيقه ، ولست أزعم أن الوسائل التى ذكرتها هى الدواء لكل داء ، بل أقول إنها أشياء ينبغى لنا معشر رجال الأعمال أن نفكر فيها ، إذا أردنا أن نكفل لأنفسنا مستقبلا بما تكفله لسائر الناس من مستقبل ..

« إن تعريف الرأسمالية فى المعجم أصبح ميتاً كالحيوانات المنقرضة : الرأسمالية حشد رأس المال ، نفوذ رأس المال متى انحصر فى أيدى رجال قلائل ..

« وقد عاش رجال الأعمال أمداً طويلا فى ظلال هذا التعريف ، وهو لا ينطبق إلا على ما مضى من عهد السلب والنهب والسالبين والمحتكرين ..

« أما الآن فتلبوا نظركم فى أرجاء الأرض تروا ماتم فيها ، فقد زالت الرأسمالية القديمة أو كادت — صفيت فى روسيا ، وهى فى حشرجة الموت فى أوربا ، وتكاد تختنق فى بريطانيا .

« ولقد كانت فترة رياستى للغرفة التجارية فترة تجربة ودراسة . وقد اقتضانى عملى فيها أن أتجول فى أقطار الأرض ، فرأيت مصرع الرأسمالية بعينى رأسى وقد اقتضانى عملى أيضاً أن أتجول فى أمريكا مراراً لا حصر لها ، فخرجت من رحلاتى كلها بهذه العبرة : إما أن نساير المبادىء الحرة ، وإما أن نواجه خطر الانقراض ، هذا هو ناموس الحياة : المسايرة أو الانقراض » ا. هـ

* * *

هذه الكلمات الصريحة الجليلة قيلت فى أمريكا من رجل يمثل الرأسمالية تمثيلا عريقا .. حتى لقد دفعه ولاؤه لها إلى الحرص على اسمها ، فوضع مقترحاته السالفة ودعوته الجديدة تحت عنوان « الرأسمالية الجديدة ، أو الرأسمالية الديمقراطية » .

ونحن ننقل هنا هذا القدر الكبير من خطابه لسببين :

الأول — أنه شاهد من أهلها .. يعلن أن عهد الرأسمالية — عهد السلب والنهب ، والسالبين والمحتكرين .. قد مضى وتقوض

الثانى — أننا ونحن نحاول الآن تقديم المواد التى تصاغ منها اشتراكيتنا — نفضل أن نعالج الموضوع بالطريقة التى عالجه هو بها — إذ حدد الأهداف التى يجب على المجتمع أن يسعى إليها ، وهى أهداف لا تنحرف عن صميم

الاشتراكية قيد أنملة — وإن سميت بغير اسمها . وترك الوسائل للمرونة والتجربة ، بشرط أن تنسجم مع المبادىء الحرة وتسايرها وتطابقها، وضرب الأمثال ببعض الوسائل التي يراها ضرورية لتحقيق منفعة المجتمع كمشاركة العامل صاحب العمل في الربح !

وهذا بالضبط ما نريد الآن أن نصنعه — فبعد أن حددنا الهدف العزيز الذي ينبغي أن نتعاون جميعاً على بلوغه ، وهو الاشتراكية الوديعة الشاملة . لا نرى ضرورة لالتزام نظام بعينه ، أو الجمود والتعصب لوسائل معينة .. ولا بأس من أن نختار من الوسائل ما يوائم مزاجنا وطبيعتنا مادامت تساير مبادىء التقدم والحرية وتفضى إلى تعزيز المكانة الاقتصادية للطبقات المهضومة . وعلى كل مواطن — حاكما كان أو محكوما — أن يساهم في البحث عن وسائل تحقيق هدفنا المشترك ..

وإنا لنقدم هنا ما نعتقد أنه نقطة البدء في كل اشتراكية صالحة ، وما لا يمكن في نظرنا أن تقوم عدالة اجتماعية ، أو تشاد مدنية رشيدة إلا به .

وإذا كنا قد أتينا من قبل على العوامل الشريرة التي تعتاق نمونا ، أو تعكر سلامنا — فإن الوسائل التي نحبذها لتكوين اشتراكيتنا المنشودة ، هي ما يقابل تلك العوائق ، ويعمل في الوجهة المضادة لها . وتتلخص فيما يأتي :

التوصيات

١ — التقريب بين الطبقات :

وذلك بمكافحة الحواجز التي تفصل بين أبناء المجتمع الواحد . وتتيح لبعضهم كل الفرص ؛ وتحرم الآخرين منها . وإني الآن أعد هذه الصفحات لأدفعها إلى المطبعة ، وأصوات باعة الصحف تجلجل وتدوى مبشرة الناس بإقرار مجلس الوزراء المشروع الجديد لإعانة الغلاء وإنها لخطوة جريئة موفقة تستأهل الحمد والشكر - فاليوم فقط سيتاح للموظف الصغير الذي نعنيناه

منذ قريب . أن يحس أنه كائن حي موجود . . سيتاح له أن يتزحزح ولو قليلا عن شفا الهاوية التي كان يوشك أن يتردى فيها . إذا لم تطارده الذئاب المسعورة من التجار الجشعين الذين يتربعون على عرش الأسعار ، يعزن بها ويذلون ، ويحيون ويميتون !

ولكن هذه الإعانة الضخمة رغم أنها مفرحة ومرضية فهي غير كافية . . ذلك لأنها أولا - لاتزال دون ضرورات ذلك المواطن الصغير . وأما ثانيا ؛ فلأن المواطن المحروم لايتذمر لحرمانه فقط بل هو على حد تعبير الأستاذ التابعي : « . . لايقول أنا جائع . وإنما يقول : أنت أيها الغني تأكل أكثر مما ينبغي أن تأكل ، وتملك أكثر مما ينبغي أن تملك ، وتنفق على شهواتك أكثر مما ينبغي أن تنفق » .

لابد إذن من تقريب المسافات الشاسعة والتخوم البعيدة التي تفصل بين الموظف الذي يتقاضى عشرة جنيهات ورئيس الوزراء الذي يتقاضى ثلثمائة جنيه . . والتي تفصل بين «فراش الأزهر» الذي يتقاضى حتى مع إعانة الغلاء الجديدة سبعة جنيهات وشيخ الأزهر الذي يتقاضى قرابة ألف جنيه ما بين مرتب وأوقاف ! .

وإنا لنطالع بعيون مبهورة أخبار تلك الدول الرشيدة المتحضرة ، فنرى الفارق بين أضخم مرتب في الدولة وأصغر مرتب فيها لايزيد عن أربعة أمثال أو خمسة ففي سويسرا - مثلا - يتقاضى « الكناس » مايعادل عندنا خمسة وعشرين جنيها ، ويتقاضى رئيس الجمهورية خمسة أمثاله فقط . . . وفي أمريكا يتقاضى « شرطي المرور » ما يعادل عندنا مائة جنيه وأكثر في الشهر . ثم يتقاضى «ترومان» أربعة أمثاله أو تزيد قليلا ؛ وكذلك في انجلترا فرنسا وروسيا وفي كل مكان له من الحضارة والرقي حظ ونصيب .

فالخطوة التالية التي نرجوها بعد إعانة الغلاء الجديدة التي تميزت برفع

مستوى الصغار دون الكبار ، هى التقريب بين المرتبات على أسس جديدة وذلك بتخفيض المرتبات الضخمة وإضافة الفرق إلى المرتبات الصغيرة .. وسواء علينا أن يكون هذا الحل عظيم الفائدة المادية للموظف الصغير أو ضئيلها ، فإن أعظم ماسنجنيه من ورائه هو تصحيح وضع خاطىء قاس ، وهو — كما قال « إريك جونستون » من قبل — سيقلل عدد الذين فى الحضيض ، وعدد الذين فى القمة ، وسيكثر عدد الذين فى الوسط .

* * *

وكذلك لابد من تقريب المسافة التى تفصل بين من يملك عشرات الألوف من الأفدنة ، ومن لا يملك شيئاً .. بين من يملك قرية كاملة ، ومن يملك حفنات من تراب .. بين صاحب العمل الذى يذهب بكل الربح وكل الخير وكل الفائدة ، والعامل الذى يعود آخر النهار بيدين قد أجلتا ، وجسم يترنح من وطأة الإعياء .. وفى حديثنا القادم عن الملكيات الزراعية والصناعية سنقدم المقترحات التى تعيننا على التقريب بين الطبقات .

ولكننا قبل مغادرة هذا الجزء من الحديث ، نريد أن نلفت النظر إلى عنصر أصيل فى تحقيق المساواة ودك الحواجز الظالمة والفوارق العاتية .. ذلك هو تحقيق المساواة بين الناس أمام القانون ، فنحن نلاحظ أن الشريف الذى يختلس ويسرق لا يناله القانون بسوء ، بينما المواطن الذى تمتد يده لقروش تافهة يساق إلى مصير مظلم كله عذاب ونكال ، مردداً قول خليل مطران :

ما بين لصوص ولصوص فرق فى الأعلى والأدنى ،
لصغارهم الشنق المزرى وكبارهم الشرف الأسنى

وهذا التمايز هو أخطر أنواع التمايز الظالم البغيض الذى يقضى على هيبة القانون وسمعته . ما أروع ذلك المبدأ الحر الذى أعلنه محمد بن عبد الله فى رحاب الجزيرة : « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » ! وحين جاءه أحد ولاته ، فرآه الرسول مشتملا ببردة جميلة نفيسة ، فسأله : من أين لك هذا ؟ فلما أجاب بأنها أهديت إليه ، قال له :

— أرأيت لو جلست فى دارك لم تبرحها أكان الناس يهدونك شيئاً ؟ إن كل ما يأتيكم وأنتم لنا ولاة ، فإنما هو حق بيت المال . قم فأودعها فيه ! !

إن اللصوص الكبار أخطر على الأمة ، وعلى أرزاقها من صغار اللصوص فالأولون يسرقون الملايين محتمين بالوظيفة الكبيرة التى يحتلونها ، أو بالجاه العريض الذى يشتملون به — وما قصة « اسماعيل المفتش » الذى كان يلقب بالخديوى الصغير ، بغائبة عنا ولا بعيدة منا .

لقد كان وزيراً المالية ، وما إن طرده (الخديوى إسماعيل باشا) ، حتى اكتشف سرقة أربعين مليون فرنك من مال الدولة .

ولقد وصف قنصل أمريكا فى مصر آنئذ ، ملك هذا اللص العظيم ، فقال : « لم يكن ملك سليمان يضم كل هذه القصور والحدائق والجوارى والجوهرات » .

كان فى قصوره سبعمائة جارية ، وله ثلاثون ألفاً من أجود الأفدنة ، واشترى مرة لزوجه مروحة مرصعة بالجواهر استوردها من باريس بما يقرب من نصف مليون فرنك ، كل ذلك غير الأربعين مليوناً السابقة .

أتظنون أن إسماعيل المفتش هذا ، قد مات ؟

لا . . إنه لم يمت .. مادام يوجد بيننا من طرازه عشرات وعشرات .

إن قانون « من أين لك هذا » هو الوسيلة الناجعة للمساواة بين المواطنين أمام القانون : وهو الكلمة الرهيبة التى ستجلجل فى روع اللصوص الكبار حين يحاولون السلب والنهب ، فيكفون أيديهم خوفا وحذراً — فأين هذا القانون وما مصيره . . ؟ ؟

إن الحاكم النزيه هو وحده القادر على أن يجعله حقيقة ماثلة ونافذة وصارمة فأين هذا الحاكم لنحييه تحية الولاء والإعجاب . . ؟

* * *

(ب) مشروع محمد خطاب :

وتبدأ اشتراكيتنا كذلك بتحديد الملكيات الزراعية ، وتغيير الأوضاع الإقطاعية تغييراً يمكن رقيق الأرض من التحرر والخلاص ، وصحيح أن الحكومة بدأت تستصلح بعض الأرض وتبيعها للفلاح بيعاً يشبه المنحة والهبة ، وهى خطوة محمودة أيضا ، بيد أنها لن تمحو عن مجتمعنا وصمة الإقطاعية المقيتة ، ولن تقدم للظامىء السغبان إلا قطرات لن تبلغ فاه ، ولقيمات لا تقيم صلباً ولا أوداً .

ولقد زال السبب الذى من أجله قسمت الإقطاعيات الزراعية قسمتها الأولى يوم كان الفلاح عاجزاً عن زراعة المساحات الواسعة ، وكان تعداد الفلاحين نزراً ضئيلا .

أما اليوم فكل قادر على أن يزرع . وهو يريد أن يطلع عليه نهار غده ، وفى يده عشرة أفدنة أو خمسة ، يعمل فيها سيداً ، لا عبداً ولا أجيراً .

فلماذا لا نمكنه من هذه الرغبة فيسترد كرامته وشخصيته ، ويبذل من الجهد الرضى ما ينمى ثروة الوطن ويضاعفها ؟

لماذا لا نصنع كما صنعت تركيا العاقلة التى اشترت حكومتها الإقطاعيات الكبرى ثم باعتها للفلاحين ، وقسمتها عليهم قسمة عادلة فاضلة مرضية ؟

إن لدينا مشروعا « جاهزاً » هو مشروع محمد خطاب (بك) الذى أعلنه تحت قبة البرلمان وهو أحد شيوخه الموقرين وأبلى فى الدفاع عنه أحسن البلاء ونستطيع أن نعدله فنرفع الحد الأدنى خمسين فدانا أخرى إذا كان ذلك يقنع الإقطاعيين ويرضيهم على أن يكون ذا أثر رجعى .

لابد من تصفية هذه الإقطاعيات عن طريق الحكومة . . ونحن نؤمن بواسطة الاستقراء ، أن تصفيتها آتية لاريب فيها ، وهذه الشمس شمس مصر الصافية الجميلة ستشرق يوما ما ، وقريبا جداً ، على المزارع المبثوثة فى أرض الوادى الأخضر ، تمثل سيادة الفلاح ، وترمز إلى تحرره واستقلاله .. فلماذا إذن نرجىء هذا اليوم الجميل ؟

فلتتقدم الحكومة ، أو ليتقدم البرلمان ، أو ليتقدما معاً .

إن وثيقة الرقى التى ستسجل نهضة مصر الحقيقية ، لاتزال بيضاء خافقة — تنتظر الحكومة المخلصة القوية التى تكتب فيها هذا السطر الواحد : لاملكية زراعية فوق المائة فدان .

هذا السطر الذى سيدفع الوطن مائة عام إلى الأمام ، والذى سيحقق لسكان أربعة آلاف قرية تكافؤ الفرص قدر المستطاع ، والذى سيثير منافسة عادلة وهائلة ، يختفى فيها الغلاء ، وتمهد لتحسين أحوال المعيشة فى الأمة كلها .

(ج) تحديد الإجارات الزراعية فوراً :

وإذا لم يستجب أولو الأمر لهذه المشيئة التي أجمع عليها الشعب ورأوا لأسباب مفتعلة أن يرجئوها ، فسنأسف إلى حين ، على الفرصة الخالدة التي يزهقونها . . وعليهم فوراً باسم الشعب الذي حباهم بثقته وتأييده ، أن يرفعوا عن الفلاح ذلك الإصر المبهظ الثقيل — إصر الإجارات الزراعية الطائشة الجشعة ... الآن لا غداً .

فربما فات قوماً جل أمرهم   من التأني وكان الحزم لو عجلوا

* * *

من هم هؤلاء الذى يعيشون هناك ، وراء الستار الحديدي للتفاتيش والضياع ، ويوقعون الإجارات على بياض ، وتفيض أعينهم من الدمع حزنا ، ألا يجدوا ما ينفقون . . . ! ؟

إنهم آباؤنا ، وأمهاتنا ، وإخوتنا . . إنهم ذخر هذا البلد وشرايينه وحياته — وسوف يستروحون نسمات من الراحة إذا نحن ذكرناهم فى كفاحهم المضنى وشقائهم الرهيب — فقدمنا لهم هذه الخدمة اليسيرة وهبطنا بأجور الأرض التي يستأجرونها إلى حد مستطاع معقول .

فلنصنع كما صنعت « سويسرا » إذ ألفت لجانا فنية قسمت أرضها الزراعية إلى اثنتى عشرة طبقة ، ثم جعلت لكل طبقة منها أجراً معلوما .

ولنصنع كما صنعت « ايرلندا » التي أنشأت محاكم خاصة لتشرف على تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر ، وتفصل فى كل نزاع يقوم بينهما ، وتتفرغ لمراقبة المالكين حتى لا يتحايلوا على القانون ويستغلوا المستأجر استغلالا غير مشروع .

ما أيسر هذه الخطوة، وما أجل نفعها ، فهل نبخل بها على ملايين المواطنين الذين يهبوننا الحياة . . ؟

وهناك اقتراح آخر عظيم الفائدة — الأستاذ توفيق الحكيم فلقد كتبت إليه فى « يونيه ١٩٤٨ » كتاباً خاصاً بموضوعنا هـــذا ، وكنا يوم ذاك فى موسم الحصاد الذى أحالته الإجارات المرتفعة إلى « مأتم الحصاد » فنشر الرسالة وعلق عليها باقتراحه الجميل — وهذه هى رسالتى إليه :

« . . فمن هو بطل المعركة فى فلسطين؟ ومن الذى يصنع هناك المعجزات، ويشترى المجد بدمه وعصبه وحياته ؟ . . أليس هو جندى الجيش ؟ إن جنود الجيش هؤلاء هم أبناء خمسة عشر مليونا من الفلاحين الذين يجتازون اليوم محنة جاوزت طاقتهم . . خمسة عشر مليونا كتب عليهم أن يموتوا كل عام مرتين ومتى ؟ فى مواسم الحياة والنشور ! . . فى مواسم الحصاد . . إنك لو هبطت اليوم أغلب تفاتيشنا ، لهالك منظر خفرائها وهم يكنسون القمح من «الأجران» كنساً . ويأخذونه نظير الإيجار ، دون أن يتركوا قمحة واحدة لذلك الذى سقاها بدمعه وعرقه . . ولسنا بالطبع نطالب أصحاب هذه التفاتيش أن يتبرعوا بالإيجار وإنما نرجوهم وقد دعينا إلى الترفيه عن جيشنا المظفر ، أن يعلموا أن أكرم ترفيه عن الجنود هو البر بآبائهم وأهليهم : وذلك بعدم إرهاقهم فى التحصيل . . » .

ونشر الأستاذ الحكيم هذه الرسالة بالعدد (١٩٠) من أخبار اليوم ـ ثم علق عليها بهذا الرأى :

« إذا كان القانون لايجيز الحجز على كل مرتب الموظف ، بل يترك له قدرا يمكنه من العيش فماذا يمنع من سن مثل هذا القانون بالنسبة إلى الفلاح الذى يعمل فى الأرض ؟ لماذا لاتعتبر الدولة أن الفلاح الذى هو عماد الثروة القومية

شبيه بموظفيها ، فتترك له قدراً من المحصول يقتات به ، تخرجه من نطاق الحجز ومن حساب السداد ، يوم تسوء الحال ، ولا يستطيع المحصول أن يفى بقيمة الإيجار . . . ؟

« لقد آن الأوان أن ننصف الفلاح وأن نعنى بمعاشه ، وأن نحوطه بشىء من الحماية .. فقد انقضى العهد الذى يقال فيه للفلاح : « يهمنا كيف تسدد ولا يهمنا كيف تأكل ! » .

. . .

والآن — تستطيع وزارة المالية أن تثبت فائدتها للفلاح بالذات ، فتستصدر تشريعاً يجعل جزءاً كافياً مما تخرجه الأرض ، منطقة حرام . لا تقبل الحجز ولا المطاردة ، وأن تستصدر أيضا التشريعات التى تحدد إيجارات الأطيان وتخفضها مستهدية بالإجراءات التى اتبعتها دول ناهضة والتى ذكرنا بعضاً منها .

ونحن نعلم أن « الإقطاعيين » من كل حزب وقبيل ؛ يقفون بالمرصاد لكل محاولة من هذا النوع — ولكننا نعلم أيضاً أن الحكومة المؤمنة بشعبها . لا يزيدها هذا التربص إلا عزما وإصراراً .. ونعلم أن الحكم الذى يشايع هوى هذه الطائفة ويتسم بسيماها . لابد أن تذهب ريحه ويصير من الخائبين .

وإنا لنرجو أن يفىء سادتنا إلى ضمائرهم . وأن يهبهم الله من صحة العقل : وصحة العاطفة ما يذكرون به أن الوقت الذى نعيش فيه أسرة واحدة قد آن أوانه ، وأن لكل كائن حى ، حقا فى أرض الله وسمائه . وأن الله ذاته هو الذى سجل هذا الحق فى وثيقة خالدة حين قال : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » .

أفيستطيع كائن من كان من البشر ، أن يحتكر لنفسه ، ولحسابه الخاص ضوء القمر ، وحرارة الشمس والسحاب الثقال . . . ؟ إن منافع الأرض مثل ذلك لا ينبغى أن يحتكرها لأنفسهم طائفة ، ثم يحرم منها بقية الناس .

. . .

(د) التأميم . . وحقوق العمال :

ومن الوسائل التى لا مناص من الأخذ بها لنتحول إلى مجتمع اشتراكى رشيد — تأميم مرافق الدولة قدر المستطاع وصيانة حقوق العمل .

ولقد رأينا من قبل ، كيف طبقت حكومة العمال فى انجلترا سياسة التأميم على نطاق واسع ، والآن وهى تتقدم إلى الشعب الإنجليزى طالبة ثقته فى الانتخابات ، لم تعده بأكثر من أنها ستستأنف سياسة التأميم على نطاق أوسع. إن التأميم هو الوضع الطبيعى الذى ارتضاه ، ويسارع إليه المجتمع الإنسانى . وفى ظله ينعدم التفاوت البعيد بين دخول الأفراد ، وبين الأغنياء والفقراء ، لأنه يعنى « نقل ملكية الإنتاج إلى الدولة ، وتحرير قوى الإنتاج المحبوسة فى أيدى الرأسماليين ، والقضاء على الفروق الاجتماعية والتفاوت الكبير فى الدخل المالى .. » .

وكثيراً ما تزعم الكهانة أن نقل ملكية الإنتاج إلى الدولة مخالفة محظورة ، وخروج على تعاليم الدين . فهل هذا الزعم صحيح ، وهل سياسة التأميم تعنى هدم الملكية الفردية ؟

إننا لكى نجيب على هذا الزعم ونفنده ، ينبغى أولا أن ندرك الفارق بين حق التملك ، ونوع التملك .

فالاول ، وهو حق أو مبدأ الملكية الشخصية — أمر مفروغ من ثبوته شرعا وعقلا وعرفا . وكل بلاد العالم قاطبة تحترم هذا الحق وتعترف به لرعاياها ومواطنيها .

ولكن الثاني — أي نوع الملكية — هو الذي يخضع لظروف الأمة ، وتطوراتها الاجتماعية ، فيتحرك ويتغير حسب الحاجة والظروف . فاذا اختارت حكومتنا مثلا نوعا معيناً من الملكية ، وهو الملكيات الإنتاجية ، وحررته من أيدى الأفراد ، وأشرفت عليه لصالح الأمة — فإن الدين يبارك هذا التصرف ويؤيده .

ونحن نعلم — والكهنة أيضاً يعلمون — أن الإسلام لايحرم فرض الضرائب التصاعدية ، ولاضرائب التركات، ولاتحديد الملكية الزراعية مثلا .. ما دام ولى الأمر يرى مصلحة المجتمع وتقدمه فى ذلك ، مع أن هذه الضرائب ، ولاسيما ضريبة التركات. اقتطاع لجزء من حق متملك لصاحبه . وإذن فما نجيزه على بعض الشيء لصالح الدولة نجيزه كذلك على الكل .

ولكى تستبين وجهه نظر الدين فى الفارق بين حق الملكية ونوعها . نضرب هذا المثل :

أراد « زيد » من الناس أن يحوز لنفسه قصراً . ويملك عربة من أحدث طراز . وطائرة خاصة تحلق به فى جو السماء . ومن وراء هذا كله رصيد دسم فى أحد المصارف فهل يحرم عليه الإسلام امتلاك هذه الأشياء مادام قد جاء بها من طريق مشروع ؟ طبعاً لا .

ولكن . إذا أراد هذا « الزيد » أن يمتلك خمارة مثلا . أو حظيرة مترعة بالخنازير . . والمفروض فيه أنه مسلم . فهل يحل له هذا الامتلاك

طبعاً لا — لأن طريق التملك والتمليك هو البيع والشراء . وهذه محظورات حرم على المسلم بيعها وشراؤها فأنى له امتلاكها ؟

ومن هذا المثال ندرك أنه إذا كان مبدأ الملكية ثابتاً للفرد ، فإن نوع الملكية متحرك ، يخضع لأحكام الإباحة والتحريم ، فيباح للفرد بعض أنواعها ، ويحرم عليه بعض آخر . ومن المعلوم أن حكم الحاكم ولا سيما فيما يتصل بشئون الدنيا ونظمها ، يتمتع بمثل سلطة الحكم الشرعي من حيث النفوذ والاحترام . فإذا رأى كما ذكرنا من قبل ، أن يجعل ملكية الإنتاج حقا للدولة وحدها ، يحرم منها الأفراد . كان ذلك جائزاً وكان شرعا ودينا .

ولقد توعدالله ورسوله من يحتكر من أرزاق الناس أقداح قمح ، أو أرطال زيت ، باللعنة الماحقة ، فكيف لا يغضب على الذين يحتكرون ينابيع الحياة ووسائل الإنتاج احتكاراً يفوت على الدولة أغراضها ومصالحها . . . ؟ !

* * *

وحين تصبح لنا سياسة تأميمية نافذة ، فإن حقوق العمل ستصان فى ظل هذه السياسة ، وما أجمع هذه الكلمة التى قالها الرأسمالى الأمريكى « إريك جونستون » :

« إن الحكم فى دولة ديمقراطية هو حكم الأكثرية ، فينبغى للأكثرية ، وهم العاملون ، أن تحس أنها تنال قسطها من الربح ، فى نظام قائم على مبدأ الربح ، فإن لم تحس ذلك فربما رأت أن تعمل على قيام نظام آخر » .

وإن الحكومة لتؤدى خدمة كبرى ، لنفسها وللوطن ، إذا أتاحت للعامل الزراعى فرصة التكون ، فتتولى تأليف نقابات لهم تضم جميع العمال الزراعيين

فى القرى ، وتدربهم على نظمها ، ليشبوا عن طوق الجهالة والخمول والبدائية وتبدأ من فورها هذا بتجربة نظام المزارع التعاونية وتعاونها بالإرشاد الفنى والقروض والآلات ؛ فإن الأمم التى جربت هذه الخطوة تشهد بنتائجها الباهرة وأثرها فى « تحسن مقدار الإيراد ، وفى مساحة الأرض المزروعة . وفى التوسع الكبير فى استخدام الآلات وتطبيق الأساليب العلمية فى الزراعة وازدياد الإنتاج » .

* * *

وبعد ، فلسنا نزعم أننا نقترح هنا منهجا اشتراكيا كاملا ، إذا أن هذا العمل فوق طاقتنا واستعدادنا . ولسنا نزعم أيضاً أن هذه الوسائل التى تحدثنا عنها وطالبنا بأن تبدأ بها اشتراكيتنا ، هى وحدها العلاج الشامل لأمراضنا — ولكنها فقط خطوات أولى تفضى بنا إلى اشتراكية سابغة واضحة المعالم محددة الأهداف .

وفائدة هذه الوسائل الأولية من الوضوح بحيث لاتحتاج لكى نملك حق الحديث عنها والإيمان بها والدعوة إليها ، إلى أن نحمل دكتوراه فى « الاقتصاد السياسى » . فلهؤلاء العلماء الاقتصاديين نترك تفصيلات هذه المبادىء ، وتطبيقها التطبيق الرشيد ، بما لديهم من مقدرة كافية لإدراكها وجعلها حقائق ماثلة وواقعا ملموسا .

* * *

وأخيرا — قفوا هذا السيل !

والوسيلة الأخيرة التى لابد منها ـ فى رأينا ـ لتنفيذ نهج اشتراكى صحيح ، هى تحديد النسل وتنظيمه .

وقد يسأل سائل : ما علاقة الاشتراكية بتحديد النسل ؟

وجوابنا أن لها به أوثق الصلات ، ولا سيما حين يراد تطبيقها فى مجتمع كمجتمعنا الذى يغمره طوفان من السيل البشرى ، يتدفق من الأرحام بغير وعى وبلا حساب .

فالاشتراكية هنا يجب أن تنتظم شيئين :

(ا) تنظيم الإنتاج المادى .

(ب) تنظيم الإنتاج البشرى .

وإن أى تفاوت يقوم بين الإنتاجين ليسبب للأمة متاعب مضنية .. من أجل ذلك يصبح حقاً لزاماً على المجتمع لكى يسعد — أن يعرف واجبه إزاء هذه المشكلة ، ويؤديه على خير الوجوه وأتمها .

وإذن . فنحن نتوجه بالحديث الآن إلى المواطنين ، فعلى كواهلهم وحدهم يقع عبء مكافحة هذا الطوفان .. وهنا حقيقة ينبغى أن تعرف جيداً . هى أنه لاأمل مطلقاً فى فى تحسين مستوى المعيشة بيننا مادامت نسبة المواليد تتزايد تزايداً فاحشاً : حيث يهبط على المجتمع أربعمائة ألف نسمة كل عام . وهو غير مستعد لاستقبالهم . ولاقادر على رعايتهم — ولولا كثرة الوفيات بين أطفاله لأصبحت الحياة فيه ضربا من الخرافة والفوضى والمحال .

وموطن الخطورة فى هذه المشكلة . أن المجتمع لايعرف عنها شيئاً . ولا يدرك قط أنه أمام كارثة تهدد رقيه وسعادته .

فما على أحدنا إلا أن يتزوج . ثم إذا هو وزوجه «معمل تفريخ» ، يضرب الرقم القياسى فى إنتاج البنين والبنات . ولا يحاول الوالدان أن يفكرا : هل

لذريتهما الوافدة مكان فى المجتمع أو ليس لها فيه مقام ؟ وهل يملكان من الفرص والإمكانيات ما يسمح للضحايا بالحياة أو هما لا يملكان ؟!

وإن مقارنة بسيطة بين بعض فترات نمونا . ثم بيننا فى نسبة النمو وبين الأمم الأخرى التى لديها من الموارد أضعاف أضعاف الذى لدينا . لتفتح عيوننا على خطورة هذه الفوضى التناسلية التى نمارسها وننميها ؟

فبينما زدنا فى الأربعين عاما من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٣٧ مليونين فقط إذا بنا نزيد فى الأعوام العشرة من سنة ١٩٣٧ إلى سنة ١٩٤٨ خمسة ملايين مرة واحدة ! ونحن ننقل هـذا الأرقام عن مقال نشرته جريدة « الزمان » للدكتور محمد عوض « بك » الذى ذكر أيضاً : أن نسبة المواليد فى مصر أعظم منها فى أى قطر آخر وأن النمو فى مصر يعادل ضعف النمو فى الولايات المتحدة رغم ما تزخر به من موارد ضخمة . وذهب كالجبال !

وإنا لنتساءل مرة أخرى : لو لم تكن نسبة الوفيات عندنا أعلى نسبة فى العالم لـكم كان تعدادنا سيبلغ اليوم . وكيف كنا نعيش . . . ؟!

إننا أمام نمو غير طبيعى يشبه مرض « نمو العظام » . . وكلاهما قد يعجب الناظرين . . بيد أنهما يخفيان وراء المظهر علة فاتكة ووباء جامحا مستطيراً .

ولقد قرأنا فى أول هذا الفصل ، كلمة للعالم الكبير « سيرجون تويد أور » والآن لنستمع إلى فزعه الأكبر من التضخم المنتظر فى سكان الكوكب الذى نعيش فيه . فى الوقت الذى تفقد فيه الأرض بسبب عوامل التعرية والاضمحلال ملايين الأطنان من طينتها الطيبة الخصبة فيقول :

« . . إن استهلاك الفرد لا يمكن أن يبلغ مستوى ما كان عليه فى عام ١٩٣٨

وذلك لأن سكان العالم زادوا اليوم مائة وخمسين مليون نسمة . عما كان عليه تعدادهم منذ عشر سنوات ، وفى السنين الأربعين أو الخمسين القادمة سيزيد سكان العالم زيادة تتراوح بين خمسمائة مليون وألف مليون نفس يجب أن يطعموا . . . والموارد التى تمدنا بالغذاء تسير إلى التلف بسرعة كبيرة ، فإن عوامل التعرية والاضمحلال تأكل من الأرض سنويا ملايين الأطنان من طينتها الطيبة فى كل قارة وتقذف بها إلى البحر . فنحن إذن نعيش على كوكب منهوب . . . »(١) .

فهذه النظرة التى ينظر بها العلم إلى مستقبل العالم ، هى التى يجب أن ننظر بها إلى مستقبل مجتمعنا المصرى .

إن النسبة بين عدد السكان عندنا وبين مواردنا صاعقة لا نكاد نطيق سماعها ومرآها . فالأرض الزراعية التى كانت مصر تستثمرها وتعداد أهلها خمسة ملايين . . لا تزال هى التى نزرعها اليوم وتعداد سكانها عشرون مليوناً . . . مما جعل البطالة ، والإملاق ، والمرض حلفاء مخلصين لمجتمعنا .

ونحن نعلم أن منشأ هذه الفوضى التناسلية راجع إلى سوء فهم الدين والقدر والتوكل — مما يدعونا إلى إعلان وجهة النظر الدينية فى هذه المشكلة الرهيبة فنقول :

إن الإسلام يبيح التحكم فى النسل لصالح المجتمع ولصالح الفرد ، ويعد الإسراف فيه — مع وجود الخصاصة والضيق — ضرباً من البلاء لا يطاق . .

(١) من خطابه الذى ألقاه بمؤتمر منظمة الشعوب المتحدة للغذاء والزراعة المنعقد بوشنطن فى أبريل سنة ١٩٤٨ وكان هو رئيسه العام ، وقد نشرت الصحف هذا الخطاب فى حينه .

فنى حديث كريم أن النبي عليه السلام كان يكثر من هذا الدعاء :

« اللهم إنى أعوذ بك من جهد البلاء » .

قيل : وما جهد البلاء يارسول الله ؟

قال : قلة المال ، وكثرة العيال .

وسئل عن العزل .. فقال : « لا عليكم أن تعزلوا » .

والعزل يومئذاك كان الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التحكم فى النسل وضبطه وقد أباحه الرسول كما رأينا فى الحديث السابق وكما سنرى فى الأثر الآتى — وكلها دونتها وذكرت أسانيدها كتب السنة الصحيحة .

روى أنه جلس إلى عمر — على والزبير وسعيد ونفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتذاكروا العزل فقال : لا بأس به . فقام رجل وقال إنهم يزعمون أنها الموءودة الصغرى ، فقال على رضى الله عنه : لا تكون موءودة حتى تمر على التارات السبع : تكون سلالة من طين . ثم علقة . ثم مضغة . ثم عظاماً . ثم لحماً . ثم تصير خلقاً آخر؛ فقال عمر رضى الله عنه: صدقت أطال الله بقاءك .

وإذا كان الإسلام يبيح العزل — وهو الحيلولة بين الحيوان المنوى وبين الوعاء الذى يتجمع فيه وينمو ويكون شخصيته التى تصبح فيما بعد إنساناً — فإنه يبيح بالقياس على ذلك كل وسيلة أخرى مستحدثة .

وكثيراً ما يخطر ببال السذج من الناس أن التحكم فى النسل لا يتفق والثقة فى الله والإيمان به . وأنه مامن نفس أراد لها الله أن توجد إلا وستوجد ، شئنا أم أبينا ، ونحن ننفى الشطر الأول من اعتراضهم . ونوافقهم على الشطر

الأخير . بيد أننا نلفت أنظارهم إلى أن الإيمان بوجود من أراد له الله أن يوجد ، لا يتعارض مع دعوتنا إلى التحكم فى النسل وضبطه .

فنحن نؤمن حين يطوف بالناس وباء أنه ما من نفس كتب الله لها الموت به إلا وسوف تموت ، وما من أخرى قدر لها البقاء إلا وستبقى .

ثم لا يمنعنا هذا عن تعبئة كل القوى لإبادة الوباء ومطاردته ، وهذا هو نفس موقفنا من وباء الطوفان الآدمى الذى يوشك أن يجرف المجتمع ويلقى به فى ساحل الفوضى والإملاق إن لم يكن قد جرفه فعلا .

فإذا ما كنت فردا عاقلا ، موّاطناً صالحا — كان جديراً بى أن لا أخرج للحياة عن طريقى أكثر مما تطيقة ظروفى . وتقدر عليه فرصى وإمكانياتى .. وإذا ما تحكمت فى النسل بكل الوسائل الناجعة ثم فاجأنى القدر بمولود فما باليد آنئذ حيلة . لقد سار كل واحد منا — أنا والقدر — فى طريقه وأديت واجبى الذى فرضه على العقل والدين . ونفذ القدر مشيئة عليا ليس إلى تعويقها من سبيل .

• • •

إن الأبناء نعيم وفردوس ومتاع للوالدين أى متاع . وعتاد للوطن ما بعده من عتاد .. إذا اتسقوا مع زمانهم . ولم يكونوا فوق مستوى طاقة أهليهم بجتمعهم . إذا مرضوا عولجوا . وإذا طلبوا وجدوا — لهم من الحياة ما يشاءون . وأكثر مما يشاءون .

أما حين يتدفقون كالسيل المنهمر . فإنهم يكونون لعنة على أنفسهم . وشقاء لآبائهم ، ولوطنهم . وعندئذ تتجاوب أنحاء المجتمع بشهقة أبى العلاء المعرى :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

وبصيحة شاعرنا المصرى « أبى الوفاء » :

أبى ، وفى النار مثوى كل والدة ووالد أنجبا للبؤس أمثالى

وقد يظن مواطنونا الصالحون أنهم بهذا الفيض الآدمى الذى ينتجونه . يستجيبون للرسول القائل : « تنا كحوا ، تناسلوا ، فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

وإذن فهم ينسون ، أو يجهلون أن الرسول نفسه ، تنبأ بهذا الغثاء وأنكره وقال : « تردون على حوضى يوم القيامة أرسالا وأمما فأقول بعداً بعداً ، سحقاً سحقاً » !

وهـــذا الطرد الذى ستحظى به الملايين الكثيرة يوم القيـــامة يبين أن موضوع المباهاة ليس العدد — بل القيمة ، والأهلية ، والصلاحية .

فلنثب إلى رشدنا ، ولندرك جيداً أنه إذا كان إنجاب الذرية قدراً نافذاً ، فإن التحكم فى هذا الإنجاب قدر نافذ أيضاً — وعلينا أن نصنع كما صنع عمر ، حين فر من قدر إلى قدر . . فلنفر من قدر يرهقنا ويضنينا إلى قدر ينعشنا ويحيينا .

* * *

ولابد مع تحديد النسل من تنظيمه ، والفرق بين الاثنين واضح : فالأول يعنى الكم ، والثانى يعنى الكيف ، وكلاهما ضرورى لسلام المجتمع وسلامته .

والمواطن الصالح لايقبل أن يكون أبا ، وزوجا ، وهو يحمل مجموعة من

الأمراض والأوبئة ، يعلم أنه سيورثها لعقبه وذريته . وإن الدين والعقل والصالح العام والخاص : ليفرضون علينا وجوب التحرر من المرض قدر المستطاع قبلما نحاول أن نصير آباء أو أمهات ، وأن نتوجه إلى مكاتب الكشف الطبي فى غبطة وشجاعة ، قبلما نحاول أن نكون أزواجا أو زوجات .

وإذا كان العقل البشرى قد رأى منذ آلاف السنين ، أن يقتل الطفل الضعيف المريض ليتخلص منه ، فليكن سبيلنا اليوم ، ألا نوجد هذا الطفل الضعيف المريض — وهو ما نعنيه بتنظيم النسل .

صحيح أن كثرة عدد الأمة يفيدها اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، إذ يمكنها من إعداد جيش وفير ، ومن اقتناء الأيدى العاملة الكثيرة . ولكن هذا المعنى ينبغى ألا ينسينا أن أقدار الأمم لا تناط الآن بالكثرة التافهة العاطلة ، كما تناط بالقلة الناضجة العاملة . وإن الإجابة عن : كيف أهلها ؟ لا : كم أهلها ؟ هى التى تقرر مصاير الأمة وتعين مقامها فى الحياة .

وصحيح كذلك ، أن بعض الأمم الكبرى الناهضة . تعمل على تنمية النسل . وتمنح « جوائز الأمومة » لمن تنجب أكبر قدر من الأبناء . ولكنها أمم مستعدة بنظمها وإمكانياتها لاستقبال أبنائها الوافدين الذين يجدون كل الفرص والمباهج والمسرات من أول لحظة تستقبلهم فيها الحياة . فإلى أن ترقى نظمنا ، ويتم استعدادنا . وتتسع إمكانياتنا . وتستغل ثرواتنا المضيعة هباء — ينبغى أن يكون تحديد النسل هو الذى تكافىء عليه الدولة بجوائز ونياشين .

والآن . . كيف نقاوم هذا الوباء ؟

لانظن أن الحكومة مستعدة لمكافحته بقانون . فضلا عن أن مثل هذا العمل لايكاد يجدى ويفيد .

وإذن فلنتجه إلى الشعب نلقنه هذه الحقائق ، ونحدد لكل مواطن واجبه حيال هذه المشكلة .

ونستطيع عن طريق الإذاعة ، والصحافة ، ومنابر الجمعة ، والمسرح الشعبي الطواف فى القرى ، والروايات السينمائية والمسرحية أن ننتصر على هذا الطوفان .

وإنى لأناشد كل مواطن يقرأ هذه السطور ويؤمن بها — أن يتعهد بتبليغها إلى عشرة فقط من المواطنين . وإذا نحن سئلنا : ماهى الوسائل التى تمكننا من التحديد ؟ كان جوابنا : إن العلم قد هيأ منها الشىء الكثير . ونستطيع إذا صح منا العزم أن نجد الوسيلة لما نريد .

إن الأمر هيبا يمض قلوبنا حين نلتقى فى الشوارع بصبية صغار مهازيل قد غامت وجوههم بالصفرة والانكسار والحرمان . وازدحمت عليها علامات استفهام كثيرة تتساءل :

لماذا جئتم بنا ، وأنتم عاجزون عن إطعام جائعنا ، وإبراء سقيمنا ؟ !

ومن أجل هؤلاء الضحايا . . . ومن سيلحقون بهم ، من الذين يتربص بهم سوء الحظ المختفى فى طوايا الشهوات . . يجب أن نصنع شيئاً ونفكر قليلا .

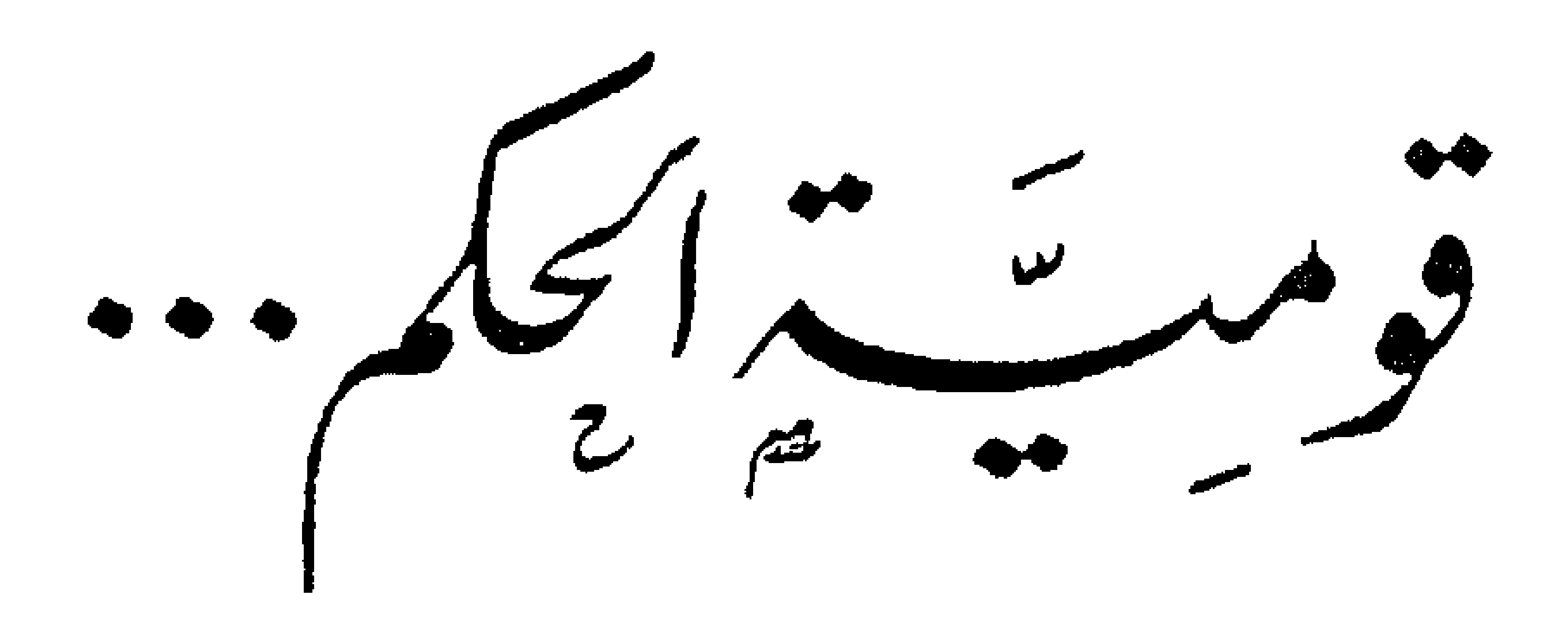
وبعد ، فقد آن أن نفرغ من هذا الفصل : « الخبز هو السلام » بعد أن أضأنا شمعة نبصر فى ضوئها طريق الرخاء والجد . وبعد أن سقنا بعض الوسائل الهامة التى نرى أنها قادرة على إبلاغنا حياة سعيدة ، وتمكيننا من البدء فى اشتراكية واضحة مسعدة .

وقد أشرنا فيه إلى بعض الواجبات المفروضة التى تنتظر كلا من الحكومة، وأصحاب الأعمال والملكيات ، والمواطنين ، فليحمل كل واجباته وتبعاته ، ولنسر معاً .

إن السياسة لم تعد دهاء وتهريجا . . بل هى — كما يقول سان سيمون — الفرنسى « علم الإنتاج » .

إن الرأسمالية لم تعد احتكاراً وانتفاخ أوداج : بل هى اليوم « تكافؤ الفرص لجميع الناس » . .

. وإن المواطنية لم تعد تعنى موقف الحياد والعزلة أمام الواجبات العامة ، بل هى أن تؤدى كل التزاماتك ، كمواطن ، وتحمل تبعة الرشد كإنسان .



« إن الذى يقول لك : اعتقد ما
أعتقده وإلا لعنك الله ـ لا يلبث أن يقول
لك: اعتقد ما أعتقده . وإلا قتلتك » !

« فولتير »

فى المجتمع اليوم رأى ذائع ، يطالب ذووه بحكومة دينية ، تحكم بما أنزل الله وتقيم الحدود فى الأرض ، لأن إقامة حد واحد منها خير للناس من أن يمطروا أربعين يوما . .

ومن العبث تجاهل هذا الرأى أو التقليل من شأنه . فإنه — وهذه هى الحقيقة — ينتظم بين دعاته والمؤمنين به مجموعة طيبة من خير عناصر الأمة وشبابها . خرجوا من المحنة التى مرت بهم أكثر إيمانا به ، وأشد تعصباً له . وليس معتقل الطور ، ولا السياط ، بقادرين على إخماد رأى أو تحويله عن وجهته . فالمبادىء لاتعتقل والعقائد لاتعذب ولاتجلد .. وسياط الجند لاتزيد حملة المبادىء والأفكار إلا تفانياً وإصراراً .. لكن التفاهم ومحاولة الإقناع هما اللذان يطهران الأفكار من بعض ما يشوبها من وهم وخطأ .

وإذا كنا نرى فى الحكومات الدينية تجربة فاشلة . . ونرى فى العمل على عودتها انتكاسا إلى الأوتقراطية المرهقة التى تخلصت منها الإنسانية بمشقة وكبد ومجازفة بالدين ذاته مجازفة تعرض نقاوته للكدر ، وسلامته للخطر . . فقد أصبح من أقدس واجباتنا أن نتقدم لمناقشة هذا الرأى تحفزنا إلى ذلك الرغبة الصادقة فى تطهير كفاح الشعب عما قد يعوقه ، أو يرده على أعقابه ، والحرص على صيانة الدين وإبقائه بعيداً عن مهاب العواصف والذاريات .

وإنا لنقف فى خضم هذا العالم الذى تتقاذف أممه وتتدافع إلى الأمام سائلين أنفسنا :

أنمضى قدما أم ننتكس إلى الوراء ؟

أننحرف عن قومية الحكم إلى عنصريته وطائفيته ، أم نضاعف هذه القومية وننميها ؟

أنفر من عهد حرية الفكر وحرية القول وحرية النقد — مهما يكن ذلك ضئيلا — إلى عهد من إذا قال لأميره لم ؟ فقد حل دمه وبرئت منه ذمة الله .. أم نثبت هذا العهد ونعاونه على النضوج والاستواء .. ؟ ؟

أنمزج الدين بالدولة . فنفقد الدولة ونفقد الدين ؟ أم يعمل كل منهما فى ميدانه ، فنربحهما معا ، ونربح أنفسنا ومستقبلنا ؟

وهنا ، فى هذا الفصل سنجيب بصراحة وسنحلل «سيكولوجية» الحكومة الدينية لنعرف الغرائز التى تصدر عنها فى تصرفاتها وسياستها وسنتتبع العناصر السيئة التى تكون شخصيتها والمثلات الكثيرة التى ميزت تاريخها بالقسوة والفوضى .

ولا أظننا بحاجة إلى التنبيه على أننا بهذا الاتجاه لا نغض من قيمة الدين وشأنه بل نعمل مخلصين على التحليق به فوق المخاوف والأخطار التى تتهدده حين يدعى لتحمل مسئولية الأخطاء الفاحشة التى تجترحها الحكومات المستغلة له المنتحلة لنفسها اسمه .

ولعلنا لم ننس بعد ، ما حدث للمسيحية . . فحين حولتها الكنيسة إلى دولة وسلطان . واقترفت باسمها أشد أصناف البغى والقسوة ، جاء يوم ثار فيه الناس جميعاً على المسيحية وعلى الكنيسة واتخذوهما هزوا ولعباً . وخلعوا كل ما فى أعناقهم للدين من عهد وطاعة . حتى إذا عادت الكنيسة بالمسيحية إلى مكانها الطبيعى تبشر وتهدى فقط . رجع الآبقون إليها ، ولاذوا من جديد بها ، وبدأت تستعيد سلطانها الأدبى ، واستقرارها التاريخى .

لاتغضبوا . . . ؟

وسوف يغضب هذا الفصل ناسا كثيرين . كما ستغضب الفصول الأخرى آخرين وآخرين .. مما قد يحملنى على أن أصنع مثلما صنع عمر رضى الله عنه إذ ضرب كفاً بكف وقال : ياحق .. ماأبقيت لى حبيبا .

وعزيز على الذين أوتوا موهبة الحب والصفاء أن يعملوا على إغضاب أحد ولكن ما حيلتهم إذا خيروا بين العاطفة والعقل ، وبين المجاملة والواجب ، وبين الناس والحق .. ؟

إنهم إذن غير ملومين .. على أننا سنظل نتساءل : هؤلاء الغاضبون .. ما الذى أغضبهم ؟

إننا إذ ننقد الرأسمالية مثلا ، لاننسى أنها عامل من عوامل الرقى ، وأحد الأطوار التى يمر بها التقدم وهو ماض إلى غايته . ونحن لم نسألها إلا أن تفسح الطريق لاشتراكية عادلة يطلبها الشعب ويريدها . وبذلك تظفر لنفسها بحسن الختام .

وحين ننقد الكهانة والكهنة . فلأجل أن تقرع كلماتنا آذانهم فيفقوا عما هم فيه من وهم وضلال ، وبذلك ينقذون أنفسهم وينقذون معهم ضحاياهم من الجماهير .

وحين ننقد الحكومة الدينية . . ذلك الأمل العذب الذى يرنو إليه فى أفقه البعيد جماعات من الشباب . ويكاد وهو فى هالته السحرية يخطف أبصارهم — فإنما يحفزنا إلى ذلك البر بهؤلاء الميممين وجوههم شطر تلك الغاية . . لأن التجارب الكثيرة التى كلفت الإنسانية من وقتها ودمها أبهظ

التكاليف جديرة بأن تحملنا على بذل النصيحة للذين يحاولون إعادة المأساة من جديد ، جاعلين من أنفسهم ومن شعوبهم وقوداً لتجربة فاشلة ..

* * *

ثم لماذا يغضبك الرأى المخالف ، والفكرة المغايرة ؟

إنك يغضبك هذا تقدم الدليل على أنك لست شيئاً . وأنك لم تبلغ بعد ، الدرجة التى تجعلك صاحب فكرة ومبدأ ، وذلك أن ولاءك لفكرتك يحملك على احترام فكرة غيرك وتقدير رأيه ، كما يحترم هو فكرتك ويقدر رأيك .

وليس من حقك أن تحرمنى التفكير المستقل أو تسكت ملكة النقد عندى ، بل إن ذلك ليس من صالحك ..

أواثق أنك على الحق ؟

إذن فلا تخش على الحق من المناقشة والمناظرة ، فإنهما لا يزيدانه إلا نصاعة وائتلاقا . ودعنى أفكر وفكر معى ؛ فنحن كما قال أفلاطون :

« مجانين إذا لم نستطع أن نفكر . . »

« ومتعصبون إذا لم نرد أن نفكر . . »

« وعبيد إذا لم نجرؤ على أن نفكر . . »

وإذا رضيت أن تكون أحد هؤلاء . فاذهب وحدك ولا تأخذنا معك !

إن الاسترابة فى فكرة لا تعنى العزوف عن الحقيقة . . وما أكثر الذين ينشدون الحقائق بكل ما لديهم من جهد . . ولكنهم يسترِيبون دائماً فى الأفكار « الجاهزة » والأفكار المتغطرسة التى تنادى أحدنا من عليائها : خل عقلك و تعال !

وإنك لتجرد فكرتك من أهم مبررات قبولها وتأثيرها حين تمنحها من القداسة المفتعلة ، ما يجعل نقدها في نظرك خطيئة وتجديفاً .

فلنتعلم من غيرنا . . من أولئك الذين سبقونا إلى الرشد سبقاً بعيداً، ولتكن آراؤنا . مهما تختلف ، شموعا نبحث فى ضوئها المجتمع عن الحقيقة ، لاحرابا يصطك بعضها ببعض ، ويضرب بعضها بعضا .

وليقل كل منا للآخر إذا بعدت بيننا شقة الخلاف :

« أنا لاأقر كلمة واحدة مما كتبت ولكنى سأقف حتى الموت مدافعاً عن حريتك ، مؤيداً حقك فى أن تقول ماتريد » [١] .

طبيعة الدين

لانريد هنا أن نثير البحث القديم : هل الحكومة جزء من الدين أم ليست جزءاً منه . ولن نتعرض له إلا بقدر يسير لايخرجنا عن مهمتنا التى هى تحليل نفسية الحكومة الدينية ، وإقامة البراهين على أنها فى تسع وتسعين فى المائة من حالاتها . جحيم وفوضى . . وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التى استنفدت أغراضها ، ولم يعد لهـا فى التاريخ الحديث دور تؤديه .

وإن مما يهدينا فى بحثنا هذا ، أن نعرف طبيعة الدين ، وطبيعة الحكومة الدينية لنرى بعد : هل يتواءمان ويتداخلان ؟

---

(١) هذه الكلمة الخالدة التى قالها فولتير لروسو ، عندما حكمت السلطات السويسرية بإعدام كتابه « العقد الاجتماعى » رغم معارضة فولتير لآراء روسو ونقده لها .

لقد جاءت المسيحية تعلن المحبة .. وجاء الإسلام يعلن التوحيد . ولو أنك وضعت إحدى الكلمتين مكان الأخرى لأدت غرضها، وأفادت معناها وكلاهما وسيلة إلى أجل مافى الوجود وأسمى — إلى الحرية .

ولكن التقليد الذى تلقينا عن طريقه عقيدة التوحيد قد أطفأ إحساسنا بها، ولكى نستعيد وهج هذا الإحساس وحرارته فلنتصور ذلك المبدأ الرفيع وهو يغادر السماء توا .. إلى مجتمع معشاره أرباب ، وتسعة أعشاره رقيق وعبيد، صائحا بينهم : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم » . « لا إله إلا الله الواحد القهار » ملاحظين أن ذاك المجتمع كان منطقة نفوذ لأرباب البشر . فأبو جهل ، والوليد ، وأبولهب ، كل أولئك متألهون .. وجماهير قريش رقيق مستعبد ، لا حول لهم ولا طول .

ولكى ترد لهذه الآدمية المهانة اعتبارها ؛ ثم لكى تقارب بينها وبين المتربعين على قمم الثراء والجاه ؛ وتوحد المجتمع الذى فرقت بينه فروق غير طبيعية . واستحوذ عليه أسياد كثيرون ـ فلا بد أولا ، من أن توحد لهذا المجتمع إلهه وسيده . أى تهديه إلى هذا الإله الموجود الحق ، والسيد الأحد الذى لا سيد سواه . وبذلك تنزل الأرباب الكاذبين عن عروشهم . وتعلى كلمة الناس وتنشر لواء الحرية كى يفىء إلى ظلاله أولئك العبيد الذين احترقت أبشارهم بحر الهجير المنبعث من جحيم الأرباب المخلوعين .

هذا صنعه محمد بالتوحيد . .

وهذا ماصنعه عيسى بالمحبة . .

الناس سواسية ، والناس إخوة ، والحرية للجميع . . ولقد أدرك أرباب قريش هذه الحقيقة . ورأوا فى توحيد الإله تقويضا تاما لسيادتهم وما يعبدون .

فلقد أصبحت رءوس العبيد ترتفع إلى السماء بعد أن كانت ترتفع إليهم، وتقدس لله بعد أن كانت تقدس لهم.

يتمثل فهمهم لهذه الحقيقة فى حجاج أبى جهل لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

— أجئتنا يا محمد لتجعل ابن سمية الذليل، والوليد سواء ؟

— نعم. فما هما إلا ولدا آدم، وآدم من تراب.

— وتجعلهم أنداداً لنا وهم عبيدنا وموالينا ؟

— نعم: ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض.

* * *

هذه إحدى خصائص الدين قبل أن تخالطه الكهانات والخرافات.. تحرير البشر من التسلط والاستغلال فهل كان فى طبيعة الحكومات الدينية التى حكمت باسم الدين قروناً طويلة شىء من ذلك ؟

سنجيب عن هذا السؤال فى حديثنا عنها بعد أن نزيد طبيعة الدين توضيحاً — وذلك باقتفاء الغايات السامية التى جاء لتحقيقها والسبل التى سلكها لبلوغ هذه الغايات.

لقد سأل مفروق بن عمرو. رسول الله:

— إلام تدعو يا أخا قريش ؟ فأجاب:

— إلى توحيد الله وأنى رسوله.

— وإلام أيضا ؟

فتلا الرسول هذه الآية الكريمة «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون».

وهذه أيضاً بعض خصائص الدين، العدل فى الحكم، والإحسان فى العمل فهل اتسمت الحكومات الدينية بهذه السمة فى تاريخها الطويل ؟

والدين يدعو إلى الحب، ويمجد المتحابين فى الله، ويعمل على تكتيل البشر ويجمعهم على قلب رجل واحد، ويجعل أبغض الناس إلى الله وإلى رسوله أولئك المفرقين بين الأحبة، الملتمسين للبرآء العيب ..

ولقد كان الرسول عليه السلام يحس إحساساً واضحاً بمهمته، ويعرفها حق المعرفة، وهى أنه هاد وبشير، وليس رئيس حكومة ولا جباراً فى الأرض عرضوا عليه يوما أن يجعلوا له مثل ما للأباطرة والحكام ففزع وقال :

— لست كأحدهم . إنما أنا رحمة مهداة !

ودخل عليه عمر ذات يوم فوجده مضطجعا على حصير قد أثر فى جنبه فقال له :

— أفلا تتخذ لك فراشا وطيئا لينا يا رسول الله ؟

فأجابه الرسول : مهلا يا عمر ! أتظنها كسروية ؟ إنها نبوة لا ملك ؟

ففى هاتين الواقعتين نبصر تحديداً صريحا لوظيفة الرسول، ومهمة الدين : النبوة لا الملك .. والهداية لا الحكم .

وصحيح أن الرسول فاوض، وعقد المعاهدات، وقاد الجيش، ومارس كثيراً من مظاهر السلطة التى مارسها الحكام، وأقام بعض خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان، كان العدل لحمتها وسداها ولكن هذا لا يعنى أن هناك طرازاً خاصا من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانه وفرائضه، بحيث إذا لم يقم يكون قد انهد منه ركن، وسقطت فريضة، بل كل حكومة تحقق الغرض من قيامها، وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للأمة — يباركها الدين ويعترف بها .

وإن الرسول لم يكن حريصا على أن يمثل شخصية الحاكم ، لأن مقام الرسول أرفع مقام ، لولا الضرورات الاجتماعية التى ألجأته إلى ذلك ليحقق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد . من أجل هذا رأيناه ينفض يده من أكثر شئون الدنيا التى يستطيع الناس أن يلتمسوا لأنفسهم فيها مخرجا ويقول لهم :

« أنتم أعلم بشئون دنياكم .. »

وعلى ذكر الحكومات التى أقامها بعض الخلفاء الراشدين ، وقبل أن نذهب إلى الحكومات الدينية لنتحدث عن قسوتها وفوضاها ، نحب أن نلاحظ أن التوفيق الذى صادف أبا بكر وعمر ، وجعل لحكومتيهما تاريخا مفرداً مجيداً لا ينهض دليلا مناقضا لرأينا فى فساد الحكومة الدينية . لأن هذا الطراز الرفيع من الحكم — فضلا عن ندرته التى تكاد تجعله وسط مئات من الشواهد الأخرى ظاهرة غير طبيعية — يعتمد على الكفاية الشخصية والكمال الذاتى اللذين كانا يتمتع بهما رؤساء تلك الحكومات كأبى بكر ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز . بدليل أنه عندما توفى عمر وجاء عثمان .. ذهبت تلك المقاييس المثالية والخصائص الرشيدة التى كانت تتشح بها الحكومة .. وحلت مكانها أخطاء أودت بحياة عثمان ، وفتحت على المسلمين أبواب فتنة عاصفة هوجاء ، بسبب تلك البطانة التى استغلت وداعة عثمان ، وثقته المطلقة بها .. فطبعت الحكم بطابعها ، وسخرته لأطماعها واستغلالها .. ثم توالى بعد ذلك الحكم الجائر والملك العضوض الذى تنبأ به الرسول عليه الصلاة والسلام فى حديثه «الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا » .

وهذه مسألة جديرة بالنظر . فرغم أن تجربة الحكومة الدينية قد توافرت لها فى العصر الإسلامى الأول كل عناصر النجاح والتقدم من قادة تناهوا فى الإخلاص ونزاهة القصد ، وشعب مترع النفس بالولاء لقادته ودعوته ، وجدة

المبادئ، وحرارتها مما يضاعف فى مؤثرات الفوز والنجاح . رغم هذا وغيره فقد أخفقت المحاولة وانتهى الأمر بعد حين قريب إلى تنافس دموى على الحكم ، وفتنة بين الناس وقادتهم وبين القادة ، بعضهم مع بعض ، وإلى نوع من الحكم ليس بينه وبين الدين وشيجة ولا صلة وإن زعم أصحابه أنه حكم دينى .. بل حكم الله ورسوله . !

* * *

الدين والدولة :

عرفنا إذن طبيعة الدين وغاياته التى جمعها الرسول فى هاتين العبارتين من روائعه : « نبوة لا ملك .. وإنما أنا رحمة مهداة » .

فما حاجة الدين إذن إلى أن يكون دولة ؟

وكيف يمكن أن يكونها . وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير .. بينما الدولة نظم تخضع لعوامل التطور والترقى المستمر ، والتبدل الدائم ؟

وهل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتى يتحول إليها ، ويندمج فيها ؟ ثم إن الدولة بنظمها الدائبة التغيير عرضة للنقد والتجريح ، وعرضة للسقوط والهزائم والاستعمار ، فكيف نعرض الدين لهذه المهاب أو بعضها ؟

إن الذين يريدون أن يجعلوا الدين دولة ، ويؤمنون بوجوب قيام حكومة دينية ، يبررون تلك بثلاثة أمور :

الأول — القضاء على الرذائل .

الثانى — إقامة الحدود .

الثالث — تحرير البلاد والعمل لاستكمال استقلالها ، وإنعاش أهلها .

ونبدأ بمناقشة الأخير فنقول : إنه لايشترط لتحرير البلاد ودعم استقلالها ونهضتها ، أن تقوم بهذا العمل حكومة دينية دون سواها . فإن أية حكومة قومية تتسم بالقوة والوطنية قادرة على تحقيق هذا الهدف : بل هي لا ريب أقدر عليه من حكومة طائفية لا تمثل وحدة الأمة تمثيلا كاملا .

وأما الأول — وهو القضاء على الرذائل : فنحن نعلم أنه لاسبيل إلى ذلك إلا بتطهير النفس وتعويدها على احترام ذاتها وليست الدولة هي التي تستطيع بقوانينها أن تهبنا نقاوة النفس ، فما أيسر مخالفة القوانين واقتراف شتى فنون الرذائل دون أن تسمع أو تدرى ، بل إن مكافحة الإثم بقانون تجعل له من اللذة والإغراء ما يدفع الكثيرين إلى تذوقه ومقارفته ، ثم إدمانه ، كما نرى في «الحشيش» وبقية المخدرات ، وهنا تصدق الحكمة القائلة : ما وضعت القوانين إلا لتخرق .. وتتحقق فطنة عائشة رضى الله عنها إذ قالت : « لو حرم على الناس جاحم الجمر ، لقال قائل : لو أذوقه ؟ ! » .

فالدين وحده — من غير أن يكون دولة — هو القادر على أن يوقظ في ضمائرنا واعظ الله ويجدد قلوبنا ، ويشبع حاجاتنا الروحية التي إذا نمت وازدهرت صرفتنا عن كثير من شهواتنا الخفية والمعلنة .

وهذه الهداية إلى الفضيلة عن طريق الترويض والإقناع هي رسالة الدين .

ألم تأت يوماً على طريق ممتد ، فرأيت في بدايته علامات وشواهد ترشدك وتدلك على متجهه ومرساه ، وهل هو ممهد للسير ، أم به مالا يمكن من عبوره والسير فيه ؟ ..

إن تعاليم الدين كذلك . هي علامات إرشاد : ترشدك إلى الطريق المستقيم لكنها لا تكرهك على السير فيه : « فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » ، — « وما أنت عليهم بجبار ؛ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

وإن نفوذ الدين ، وأثره فى مكافحة الرذيلة ليكونان أرسخ قدماً وأقوم سبيلاً حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادىء والمنطق الرصين . أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها : فإن الفضيلة آنئذ تصاب بجزع أليم .

• • •

بقيت إقامة الحدود .

فما هذه الحدود التى نريد حكومة دينية لتقيمها .. ؟

إن الحدود فى الإسلام كثيرة . وحدود السرقة والزنا والخمر ، هى أهمها وأكثرها اتصالا بشئون الناس . وهى أيضاً التى يلوح بها طلاب الحكومة الدينية ويمنون الناس بإقامتها ، وكأنما يمنونهم بالفردوس المفقود .. !!

وسنرى الآن أن هذه الحدود جميعاً موقوفة عن العمل ، وليس هناك مجال لإقامتها .

فأما حد السرقة ، فقد وقفه عمر فى أيام المجاعات ، وصارت سنة رشيدة من بعده .

وسئل الإمام أحمد عن رجل سرق محتاجا : أيقام عليه الحد ؟ فأجاب : لعمرى لا أقطعه إذا حملته الحاجة . والناس فى شدة ومجاعة .

والشرق الإسلامى كله مجاعات ما دام لم يستوف الناس فيه ضرورات الحياة . .

وإذن لحد السرقة موقوف حتى ينزل الرخاء مكان الجدب والإمحال ، ويوم يوجد الرخاء فلن تجد السارقين . . وإن وجدتهم فقطع منهم كل معصم وساق ـ على أن يضع أيد سارقة لن تحتاج إلى قيام حكومة دينية خاصة . فمادة واحدة فى القانون تقوم مقامها ، وتبطل الضرورة الداعية لقيامها .

وأما حد الزنا .. فإن أمر إقامته يحمل موانع تنفيذه . فقد شرط الله لإقامته أن تثبت الخطيئة بإقرار مقترفها ، أو بالبينة ، واشترط أن تكون البينة أربعة شهود ، وأن يروا العملية الجنسية نفسها رؤية سافرة . . أو على حد تعبير الرسول

ذاته «كالمرود فى المكحلة ، والرشاء فى البئر » ويكاد يكون من المستحيل حدوث ذلك لاعتبارات كثيرة ندركها بداهة . . ولو أن شهوداً ثلاثة رأوا الخطيئة رؤية كاملة مستوعبة ، فإن الله لايقيم لشهادتهم هذه وزنا . . بل ويأمر بجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة ويعتبرهم قاذفين لاشهوداً . . !

وإذن فلن يثبت هذا الحد بالبينة . . كما أنه أيضا لن يثبت بالإقرار. فإن أحداً لن يذهب من تلقاء ذاته ليقدم نفسه إلى العار والفضيحة والميتة الشنيعة رجما بالحجارة ، أو جلداً بالسياط .

ومن أجل هذه العراقيل التى وضعها الدين نفسه فى طريق هذا الحد رحمة بالناس وبرا ، لانجد طول تاريخ الرسول وخلفائه سوى وقائع معدودة . . . أقيم فيها هذا الحد . . . وكان كل أبطالها معترفين دفعتهم إلى الاعتراف نزعة مثالية حببت إليهم تطهير النفس وتحميلها مسئولية وزرها فى هذه الحياة الدنيا . وهى نزعة نادرة بل منقرضة . ولقد رأينا كيف أن أحد هؤلاء المعترفين المثاليين واسمه « ماعز » حاول عندما وجد مس الحجارة وعذابها أن يفر ، وصرخ : « ياقوم ! ردونى إلى رسول الله فإن قومى غرونى عن نفسى .. » يقول جابر : فلم ننزع عنه حتى قتلناه. فلما رجعنا إلى رسول الله وأخبرناه قال : « هلا تركتموه وجئتمونى به ؟ ! » .

* * *

وحد الخمر مثل حد الزنا تماما ، فى صعوبة تنفيذه أو استحالته فهو لايقام إلا بالإقرار أو البينة وبينته شاهدان ، ولا تنحصر شهادتهما فى رؤية الشارب وهو يشرب فقط : بل لا بد — فى رأى بعض الفقهاء — أن يشهدا بأنه شرب وهو عالم مختار. عالم بأن هذا الشراب خمر مسكر ، ومختار غير مكره على شرابه؛ وهذا العلم مكنون فى ضمير الشارب ولن يستطيع الشاهدان بلوغه أو الإحاطة به ولا سيما إذا زعم الشارب أنه شرب غير عالم .

ثم ما هو حـد الخمر ؟

يروى مسلم فى صحيحه : أن الرسول « جلد شارباً بجريدتين أربعين » . ويقول بعض الصحابة : «كنا نؤتى بالشارب فى عهد رسول الله فنقوم إليه نضربه بأيدينا وأطراف ثيابنا » مما جعل بعض الفقهاء ، ومنهم « صاحب الروضة الندية » يرون أن عقوبة الخمر من باب التعزير ، لا الحدود ، وللحاكم أن يعين مقدارها .

وهذا الحديث الذى سقناه عن الحدود واضح الدلالة على أننا لا نجحدها وإنما نستبعد إقامتها لتعسر أو لاستحالة إثبات موجباتها .

ومن البداهة المدركة أن درء الحد لن يكون معناه أن نخلى بين الناس والآثام يجترحونها .. فستكون ثمة عقوبات أخرى زاجرة فى انتظار كل مسىء .

يفسر لنا ذلك حكم عمر فى قضية غلمان حاطب التى مرت بنا فى الفصل الثانى من الكتاب ، فإنه حين أبى إقامة حد السرقة عليهم إذ تبين مادفعهم إليها من جوع وحرمان ، استعاض عن الحد بتوقيع عقوبة أخرى ، لاعليهم ، بل على سيدهم الذى كان تقتيره وكزازته سببا فى إقدام الغلمان على الجريمة .

ويجب أن نذكر مرة أخرى أن الرسول هو القائل : « ادرءوا الحدود بالشبهات » أى امنعوا إقامتها لأية عارضة . ولقد جاءه سارق معترف فقال له عليه السلام : « ما إخالك سرقت ! » . وجاءه زان معترف ، فقال له : « ما إخالك زنيت ! » .

وقال الإمام أحمد — وهو المشهور بتشدده فى الأحكام — « لا بأس بتلقين السارق ليرجع عن إقراره » وذكر ابن قدامة فى الجزء العاشر من « المغنى » بالصفحة (٢٩٤) : « أتى برجل سارق إلى عمر فقال له : أسرقت ؟ قل : لا —

فقال : لا ، فتركه عمر ولم يقم عليه حداً . وروى معنى ذلك عن أبى بكر الصديق وأبى هريرة وابن مسعود وأبى الدرداء ، وبه قال إسحاق ، وأبو ثور . . »

وكذلك قال ابن قدامة : « يستحب للإمام أن يلتمس شبهة ليدرأ بها الحد » .

بهذه المناقشة العابرة لدعوى إقامة الحدود تنتفى الضرورة الداعية لقيام حكومة دينية من أجلها خاصة .

ولا يبهرنا أبدا منظر تلك الأيدى المعلقة أمام قصور بعض الحكومات الدينية . . والتى قطعت لأنها امتدت إلى ثمن رغيف خبز لسكت به صياح أمعاء هاجها الجوع والسغب . . بينما الحكام الذين يزعمون أنهم يحكمون بما أنزل الله يخوضون فى الذهب واللذاذات خوضاً . وهم أحرى الناس بأن تجرى عليهم تجارب هذه الحدود .

غرائز الحكومة الدينية . !

أما وقد عرفنا شيئا عن طبيعة الدين وخصائصه التى تميزه ، وتكون شخصيته ، فمن الخير أن نعرف شيئا عن طبائع الحكومة الدينية . . تلك الطبائع التى تأصلت فيها وتركزت مما يجعلنا نستسمح علم النفس فى تسميتها بالغرائز . . وهى بعيدة عن الدين كل البعد . فالحقيقة أن الحكومة الدينية ، وإن ظفرت بهذه التسمية التى توهم أن لها بالدين صلة ، لاتستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، بل من نفسية الحاكمين وأطماعهم ومنافعهم الذاتية ، ومن تلك الغرائز التى تصدر عنها فى كل اتجاهاتها وهى :

أولا ، الغموض المطلق : فهى تعتمد فى قيامها على سلطة غامضة لا يعرف مأتاها ، ولايعلم مداها وصلة الناس بها يجب أن تقوم على أساس من الطاعة

العمياء والتسليم الكلى والتفويض المطلق . إنها لاتفسر وجودها بأكثر من أنها ظل الله فى الأرض ولا تعطى عن مناهجها سوى فكرة غامضة كى لاتدع مجالا لمناقشتها ، زاعمة أنها فكرة إلهية . كأنما الأفكار الإلهية أحاج وألغاز ! ودستورها الذى تخضع له وتقوم به : ماهو ؟ إنها حين تسأل هذا السؤال تفر وتهرب إلى الغموض الذى لاتستطيع أن تعيش إلا فيه وتقول : هو الدين.. هو القرآن .

لكن القرآن كما قال على : « حمال أوجه » والسنة كذلك أيضاً . ولقد كان أصحاب على وهم يحرضون على دم معاوية وقتاله يقدمون بين أيديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث .. هى نفس الآيات والأحاديث التى كان يحرض بها أصحاب معاوية على دم على وقتاله .

وكذلك كان الحال فى الحرب الطويلة الأمد التى دارت بين العباسيين والأمويين .

وببعض آيات القرآن التى استغلت استغلالا مغرضاً ، قتل عثمان وبها تجمع الخوارج حول على .. ثم بها ذاتها قتل الخوارج علياً . .

ولطالما وقف يزيد الطاغية — الذى لم يكن يطيق أن يرى كأس خمره فارغة — يخطب الناس ويحرضهم على قتل الحسين مسلحاً بآية وحديث .

أما الآية فهى : « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » ، زاعماً أن الحسين قد شق عصا الطاعة ، وتولى غير سبيل الجماعة . .

وأما الحديث فهو : « من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع ، فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان » ، زاعماً مرة أخرى أن الحسين يعمل على تمزيق وحدة المسلمين .

ولقد صدقته الجماهير الساذجة واستجابت له ، ولاسيما حين ألقى فى روعها أن الحسين — نظراً لما له من منزلة ومكانة — هو المقصود بعبارة «كائناً من كان» . . !

ولكن هذا الحاكم الدينى لم يلبث أن جحد القرآن والسنة اللذين كانا سلاحه فى انتصاره . إذ قال وهو يعبث برأس الحسين الذبيح :

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحى نزل

ومن المفارقات ، أن هذا الغموض الذى تعيش فيه الحكومة الدينية هو سر ضعفها ، وسر قوتها ..

فزعمها أنها ظل الله فى الأرض ، وهو الأمر الذى تستمد منه قوتها ، لا يلبث أن يتكشف زيفه وبهتانه حين يكوى الناس ببغيها ، ويلفحهم هجيرها ، فتفقد ثقتهم ، ويتضاءل احترامها فى نفوسهم .

* * *

ثانياً : والحكومة الدينية لاتثق بالذكاء الإنسانى ولا تأنس له ، ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لأنها تخافه وتخشاه ، وتعلم أنه القوة الوحيدة القادرة على إحراجها . وهى تقنع الدهماء والعوام بمشروعية هدم الذكاء ومكافحته بحجة داحضة ، هى أن الأولين لم يتركوا للآخرين شيئاً ، وأن أمورنا لاتصلح بالابتكار ، بل بالتبعية والتقليد . لذلك فهى تفضل أن تستعين بالذين ليست لهم موهبة ، سوى التجرد من كل موهبة . . والذين يتمتعون بمناعة ضد الفهم الواسع ، والإدراك الفطن ، والحصافة والوعى .

* * *

ثالثاً : وهى لكى تقنع الناس بضرورة قيامها وبقائها . تهيب بجانب الضعف الإنسانى فيهم ، فتلقى فى روعهم أن رواد الخير والفكر والحرية والإصلاح ، ليسوا

سوى أعداء الله ورسوله ، يحاولون نفى الدين عن المجتمع ، بهدم السلطة التى تمثله وتصونه .

وإذا كان الناس بطاءاً إذا ما دعوا إلى حب ، وسراعا إذا ما دعوا إلى بغض .. فإنهم سرعان ما يسخطون على هؤلاء الرواد المصلحين ، ويدخلون معهم فى عراك طويل تستفيد السلطة الدينية منه فى صرف الجماهير عن مساوئها ومظالمها ، وفى إطالة عهدها ، وتمكين سلطانها .

* * *

رابعا : والغرور المقدس من شر غرائز « الحكومة الدينية » وهى لهذا لاتقبل النصيحة ولا التوجيه ، بل ولا لفت النظر .. فضلا عن المعارضة والنقد — وإن حرية النقد ، وحرية المعارضة ، وحرية الفكر .. كل هذه المقدسات عملة زائفة فى نظرها ، لا تسمح بتداولها بين الناس أبداً .. !

إن الحديث الذى قتل به الحسين لايزال فى انتظارك إذا حاولت أن تنقد الحاكم الدينى أو تخطئه ..

هناك تساق إلى الموت ، وأنت يتلى عليك : « من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع ، فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان » .

أليست المعارضة تفريقاً بين الأمة وتمزيقاً لوحدة الجماعة ؟ إن الحكومات الدينية لاتفهمها إلا هكذا ، والويل لنا إذا لم نشاركها فهمها الظالم السقيم .

* * *

خامسا : والوحدانية المطلقة — أعنى غرائزها وهى تحفزها إلى مكافحة الرأى مهما يكن حكيما ، والأحزاب مهما تكن مخلصة نافعة .

وإنا لنذكر تلك الخطبة العصماء .. التى ألقاها الحجاج ويداه تقطران من

دم سعيد بن جبير العظيم : .. أما بعد ، فإن الإمام ظل الله فى الأرض ، وأنا امتداد لهذا الظل إليكم . فمن نازعنا هذا الأمر ، فقد جعل نفسه نداً وشريكا . « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق . » ! .

إن هذه الفلسفة ليست فلسفة الحجاج وحده ، بل هى روح كل حكومة دينية قامت ، أو ستقوم .. إذا استثنينا بعض حكومات نادرة مثل حكومتى أبى بكر وعمر ، فلا تجد حكومة دينية قط تؤمن بغير نفسها ، أو تسمح بقيام أحزاب تعارضها أو حتى تهادنها . وإذا كانت تتخذ من تأويل الحجاج السابق مايدعم وحدانيتها ، فهى تلتمس لمكافحة حرية المعارضة حجة أخرى تنطوى على كثير من الدهاء ، إذ تفهم الجماهير الغافلة أنه ليس معنى الحرية أن يتحرر الناس من الإكراه والخوف والظلم ، بل أن يتحرروا من الخطيئة والإثم ..

وإن أكبر الكبائر والآثام هى نقد الحاكم ومعارضة أخطائه ومناقشة تصرفاته . ولكى تؤكد هذا الفهم تزعم للناس أن رسول الله قال : « اسمع لحاكمك وأطعه وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك » .

هذه هى الحرية — تتحرر من الخطيئة .. والخطيئة هى نقد الحكومة وسؤالها : لم .. ؟

سادسا : ومن طبائعها الأصيلة .. الجمود العريق الذى يجعل استجابتها للحياة استجابة سلبية وعكسية ، فهى لا تسير معها ، بل ضدها ، ولا تستقبل الأمام بل تستدبره ، ويزاملها دائما الركود والوراثية ..

ولو أن حكومة دينية تحررت من الجمود كطبع أصيل فيها . فإنها تتكلفه وتقف بالمرصاد لكل تطور جديد ، كيما تظل حائزة . ثقة الجماهير التى ارتبطت صورة الدين فى ذهنها بكل ما هو جامد وقديم .

سابعاً : والقسوة المتوحشة تحتل من طبيعة الحكومة الدينية مساحة واسعة وهى سيدة غرائزها وأكثرها عتواً ونفوذاً . وإنها لتحز عنقك ، وتهرق دمك وهى تصيح من فرط نشوتها : واها لريح الجنة . ! كأنما رأسك مزلاج يوصد باب الفردوس ، فإذا انزاح هذا المزلاج من مكانه فتح باب الفردوس وهبت نسائمه . . !

وهى تستمد تبرير قسوتها وبطشها من نفس الغموض الذى تستمد منه سلطتها . فحسبها أن تعلق فى عنقك اتهاما مبهما بالزندقة والإلحاد . . أما كيف ، ولماذا ، وما البرهان ؟ فيجب أن تذكر ، إن كنت قد نسيت ، أن الحكام الدينيين لا يناقشون ، ولا يسألون عما يفعلون ! !

* * *

وهذه بعض الغرائز التى تعمل فى نفسية الحاكمين باسم الدين ، وتعين لهم اتجاهاتهم . . وهى كما رأينا ، بعيدة كل البعد عن حقائق الدين وفضائله — فكلاهما لا يستوى وجهة ولا وسيلة . . ولا نكاد نجد حكومة استغلت لنفسها قداسة الدين وعصمته إلا وهى تنطوى على كل هذه الخصائص والغرائز .

ولدى التاريخ من الشواهد القديمة والحديثة ، المنقوضة والقائمة ما نستبين فى أخلاطه صدق كل هذا الذى ذكرناه ، وندرك فداحة الهول الذى تعانيه الأمم حين يوقعها سوء الطالع فى قبضة حكومة دينية من ذلك الطراز ، ويؤكد أن الحكومات التى حكمت الناس باسم الدين — سواء فى المسيحية أو فى الإسلام — كانت أسوأ مثل للحكم الردىء المطلق . . ماعدا قلة نادرة فاضلة ، لا تكاد العين تقع عليها فى زحام الكثرة الباغية .

* * *

ذلك الستار الحديد . . . . !

وحين نزعم أن الحكومة الدينية ستار حديدي يخفي وراءه جحيما وفوضى، لا يكون من العسير إقامة الدليل على صحة هذا الاتهام المتواضع . .

وحسبنا أن نرفع الستار عن التاريخ لنبصر الطريق التي قطعتها الإنسانية وهي ماضية إلى غايتها ، كله دم وجماجم وأشلاء . . تروي في فزع قصة الحرية والرحمة والعدل مع الحكام الدينيين . . وتحكي في أنين متقطع الأنفاس نبأ الضحايا الذين كان في بعضهم من النبوغ والعبقرية ما يهب الحياة فنونا وإبداعا لو أنهم عاشوا لها . . ولكن رأيا حرا خافتوا به، أو قالوه جهرة ، قذف بهم إلى هذا الطريق أشلاء ومزقا . . .

وفي أغلب تجاربها الغابرة نجدها لا تبدأ إلا حيث تنتهي حرية الفرد والمجتمع وذلك أثر حتمي ونتيجة لازمة لغرائزها القاسية المتبدة التي تحدثنا عنها من قبل حديثا موجزا . . .

ففي الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التي لا تخطر للشيطان نفسه ببال . فكان « . . الخازوق ، ووتد التشهير ، وصلم الآذان ، وحرق العلماء بالنار وهم أحياء ، ومحاكم التفتيش . . »

وفي الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة ، حتى إن حاكما دينيا واحدا — وهو الحجاج — أباد البقية الكريمة الصالحة من صحابة رسول الله ومقتفي آثاره ومعالمه ، حتى قال فيه عمر بن عبد العزيز : « لو جاءت كل أمة بخطاياها . . وجئنا نحن بالحجاج لرجحناهم » .

وإن نبش التاريخ القديم ، وإخراج جثث هذه الحكومات من تحت ترابها قد لا ينهض بالبرهنة الحاسمة على قضيتنا هذه ، كما ينهض بها الاستشهاد ببعض

الحكومات الدينية المعاصرة ، وذلك لنعلم صدق نظرتنا إلى أخلاقها التى أسميناها غرائز ، حين نرى الحكومة الدينية فى عام « ١٩٥٠ » — صورة طبق الأصل لأصولها القديمة منذ القرون الأولى . . لم تختلف عنها فى تفكيرها ؛ ولا فى قسوتها ووسائل تعذيبها . . مما يؤكد أن غرائزها تلك ؛ غير قابلة للتعلية ؛ وأنها لا تتطور ولا تترقى .

وقد يخطر ببالك بعد قراءة الشواهد الآتية عن بعض الحكومات الدينية المعاصرة ؛ أن تسألنا :

لماذا ضربت هذا الطراز من الحكومات مثلا ؟

والجواب : لأن الحكم الدينى للأسف مهما يبدأ سليما صالحا ؛ ينته لا محالة إلى هذه الدمامة وهذا التدهور . . . ولو فرضنا أن حكومة دينية قامت فى مصر اليوم — فإنها ستبدأ بداية حسنة يفرضها عليها ما فى المجتمع الآن من وعى وحضارة . . . بيد أنها بعد حين قريب أو بعيد ، ستنتهز أول فرصة تلقاها فى الطريق لتنتكس بنفسها وبالمجتمع إلى مجالها الذى لا تستطيع الحياة إلا فيه . . إلى غرائزها ومصادر سلوكها وعندئذ تصير جحيما لا يطاق، وتصير — كما وصفها الرسول العظيم — « ملكا عضوضا » .

* * *

وإنا لتتخالجنا رهبة مفزعة حين ندير أعيننا فيمن يجاورنا من بعض الأمم ، فنراها ملفوفة فى ضباب الحكم الدينى ـ كما يسمى نفسه ـ تئن وتتململ متحسسة طريق الخلاص من حكومتها الدينية التى كان التاريخ قد استبقاها لتظل معلما زاجراً، وآية مذكرة للذين ينسون تجاربها المريرة، فيحاولون بعثها من مرقدها .

ولسنا وحدنا الذى نستشعر هذه الرهبة . . بل إن بعض زعماء الشرق

الإسلامى قد وجدوها فى أنفسهم وصاحوا بها بين ظهرانى ممثلى هذه الحكومات .

ففى المؤتمر الاقتصادى الإسلامى الدولى الذى انعقد فى كراتشى يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٩ — وقف السيد غلام محمد وزير مالية الباكستان متحدثاً عن بعض بلاد العرب التى يحكمها رجال الدين حكماً ناشياً جشماً فقال :

« . . . هنا مجموعة بشرية هائلة تئن تحت وطأة الفقر ، مع أن لها مصادر طبيعية وافرة . . وإن الأقطار الإسلامية لترزح فى الداخل تحت تأثير الطبقات الحاكمة ؛ وتحت تأثير مجموعة من رجال الدين الجامدين » .

« إن الشعوب الإسلامية التى تجف من الفزع حين تمر بخاطرها ذكرى الحكومات الدينية التى حولت الإسلام إلى حكم أوتقراطى قام على الدكتاتورية والإكراه . . . ولقد كان رجال الدين الذين ارتبطت مصالحهم بهذا اللون الفاسد من الحكم يناصرونه ويدعمونه . . . » .

ومنذ أيام قريبة وقف السيد لياقت على خان رئيس وزراء الباكستان وصاح تحت قبة الكونجرس الأمريكى .

« إننا لن نسمح للسلطة الدينية أن تعود . . . وليس لها بيننا مكان » !

وفى كتاب « النظام الدستورى للدولة المصرية » ، وهو يدرس بتخصص القضاء بالأزهر ، « إن دعاة الديكتاتورية يحلو لهم التشبه بأصحاب الديانات . من ضروب الإيمان الوجدانى » .

ولا نظن أن المؤلف يعنى بأصحاب الديانات — الأنبياء المرسلين — فهم مبرءون من ذلك طبعاً ، وإنما يقصد رجال الدين والحاكمين باسمه الذين يستغلونه استغلالا بعيداً ، ويعبثون به كأنهم أصحابه ومنشئوه . . !

***

وإذا كنا الآن سنقدم لك بعض الحكومات الدينية المعاصرة ؛ فإنا لن نسمها بأسمائها ، وذلك حتى لا يظن ظان أننا نقصد التشهير والتجريح الشخصي ولنستمع لشاهد من أهلها ، وهو كاتب عربي نشر بالقاهرة كتاباً عام ١٩٤٧ عنوانه « جزيرة العرب تتهم حكامها » ، وتحدث فيه عن بعض الحكومات الدينية بجزيرة العرب ..

وقبل ذلك نحدد مرة أخرى ما نعنيه بالحكومة الدينية ، ونبين مدلول هذا التعبير .

فالحكومة الدينية التي ننقدها ، ولتحذير من الانتكاس إليها — هي تلك التي تعتمد على سلطة مبهمة غامضة ، ولا تقوم على أسس دستورية واضحة تحدد تبعاتها والتزاماتها حيال الشعب كما هو شأن الحكومات القومية ، والتي تمنح نفسها قداسة زائفة وعصمة مدعاة .

وسوف نقتطف من كتاب « جزيرة العرب تتهم حكامها » ، فقرات متنوعة تكون في مجموعها صورة كاملة الملامح لها :

« يشبه نظام الحكم الموجود هناك ، ذلك النظام الشائع في أوربا في القرون الوسطى .. يسوقون الجمهور نحو أغراضهم كما تساق قطعان الماشية .. يؤتى بمن يراد تعذيبه ؛ فيؤمر بطرحه أرضاً ؛ ويجلس اثنان على رأسه ؛ ومثلهما على رجليه ، وينهال عليه اثنان ضرباً بالسياط حتى يفقد وعيه . فإذا لم يعترف بما يوجه إليه من اتهام أثقل بالحديد ، ثم تقلع أظفاره بالكلبتين ؛ ويكوى بالسفافيد المحماة بالنار ؛ ثم يخرج بعد ذلك للناس صورة مشوهة متداعية .. قد مسخها الهول والفزع ، وحطمها الإرهاب والعذاب وهناك في سجون . . . . يعيش نصف الشعب بتهم باطلة ، وهي سجون تفوق في فظاعتها

ما يتصوره أى إنسان ، فهى قبور مظلمة خالية من النوافذ . وفى غاية القذارة ويعيش المسجونون فيها بين جيوش من الحشرات المؤذية ، وليس للساجين غذاء ولا كساء ، بل يعيشون مما يتصدق به الشعب الجائع عليهم . والقيود والأغلال من الأمور الضرورية وتمضى عليهم السنين وهم يرسفون فيها ، فتتورم مفاصلهم وتتقيح — وهناك عدا القيود ، توجد الخشبة أو الحطبة التى لا يخلو منها سجن فى جزيرة العرب ، ولا تخلو هى من ضحاياها ، وهى تشبه صارى السفن الشرعية ، ممدودة فى أرض السجن وفى أعلاها ثقوب تدخل فيها رجلا السجين وتقفل عليهما فلا يستطيع الجلوس أو الوقوف بل يظل مستلقياً على قفاه كالمعلق لا يلامس الأرض إلا ظهره » .

هذه بعض فقرات من الكتاب تحدثنا حديث من رأى وسمع عن القسوة والإرهاب اللذين تفرضهما حكومات دينية على البشرية المعذبة هناك وقد اخترنا أهدأ الفقرات وأرطبها حتى لا تحترق أعصاب القارىء وتتزلزل سكينته.

وهو يحدثنا عن المستوى الفكرى لتلك الحكومات وشعوبها وعن السياسة المرسومة هناك لحرمان الناس من كل علم وثقافة فيقول فى صفحة « ٣٢ » :

« وذات يوم كنت جالسا عند رئيس شعبة سياسية — فى إحدى هذه الحكومات — فطلب الرئيس مدير المدرسة فلما حضر دار هذا الحوار :

مدير المدرسة : ماذا تأمرون يا مولاى الرئيس ؟

رئيس الشعبة السياسية : أين جدول الدروس ؟

ثم يتناوله ويطالعه بإمعان ويقول :

— ما هذا ؟

— جغرافيا يا مولاى .

— جغرافيا ! ! أما تعلمون أنها حرام ؟

— نحن يا مولاى الرئيس لا نعلم الجغرافيا المحرمة . بل نعلم فقط القسم الحلال منها ، وهو الذى يعين على معرفة القبلة وأوقات الصلاة !

— لماذا لا تعلمون علم التوحيد عوضاً عن هذا ؟

— نحن نعلم القرآن وفيه توحيد وأخلاق وتربية !

— لكن كتاب « كشف الشبهات » كتاب جميل فى علم التوحيد .

ثم التفت إلى مدير المدرسة غاضباً ، وتناول القلم الأحمر ، وشطب كلمة « جغرافيا » من الجدول ووضع مكانها : « توحيد ، كتاب كشف الشبهات » !

ترى هل سيصدق القارىء هذه القصة ؟! إنها حقاً تكاد تكون أسطورة ، ولكم كنا نود أن تكون خيالا حتى لا نجد جماعات بشرية تضرب عليها هذه الجهالة الصارمة .. ولكنها لسوء حظنا حقيقة مؤكدة ، تؤكدها مهزلة أخرى نعلمها علم اليقين فقد ألف رجل أمى لا يحمل أية درجة علمية كتابا حكم فيه بكفر من يقول بحركة الارض ، وبالجاذبية ، وزعم أن الأمراض « عفاريت » تحتل الأجسام ، وذكر أنه هو نفسه قد أجلى بعض « العفاريت » بالضرب عن جسوم كانت مريضة فشفيت .. وأهاب بالمسلمين ألا يعلموا أولادهم الجغرافيا لأنها زندقة وضلال ، ثم رفع هذا الهذيان إلى الحكومة الدينية التى حرمت تدريس الجغرافيا فى مدارسها ، فتقبلته بقبول حسن وأمرت أن يمنح هذا المؤلف ، هذه الجمجمة الخرعة ، مرتباً شهرياً قدره أربعون جنيها مصرياً — عدا هبات أخرى — تكريماً للعلم والعبقرية والنبوغ . !

أربعون جنيهاً أو تزيد ، تقتطع من قوت الشعب ثم تمنح مكافأة دائمة لأحد الذين يعملون على حرمانه من النور والحياة .. وتقديرا لكتاب يخجل تلميذ إحدى المدارس الأولية عندنا أن ينسب إليه . !

* * *

ولنعد لكتاب « جزيرة العرب تتهم حكامها » ليحدثنا عن اقتصاديات هذه الحكومات الدينية فيقول :

« . . . وهناك تحتبس مرتبات الموظفين والجند وأرزاقهم عدة شهور متوالية .. وليس للمرافق العامة أي نصيب يذكر . ويستهلك الحكام من الكماليات والضروريات ما يعادل نصف الدخل العام ، ويذهب ربع الدخل هبات وأعطيات متنوعة المقاصد .. ويوزع الربع الباقي من الدخل العام على الموظفين . وعلى مرافق البلاد العامة .. ! ! » .

ويحدثنا كتاب « جزيرة العرب تتهم حكامها » كما يحدثنا كل الذين زاروا تلك البلاد ، أنه ليس بها مستشفيات ولا أندية ثقافية ولا مدارس تذكر . . وليس مرد ذلك الإمحال العمرانى إلى عجز مالى .. فقد رأينا كيف يمنحون الهدايا والمرتبات ، وكيف يعيش كبراؤهم فى ترف تتضاءل أمامه خرافات ألف ليلة وليلة .. ولكن الأسباب ترجع إلى عقيدة الحكومة الدينية ، حيث ترى فى مثل هذه المنشآت مرطقة وضلالا .

وعلى الذين يرون فى هذا التفسير مبالغة منا ، أن يستمعوا القصة الآتية :

حدث أن تفشى وباء « الطاعون » فى أمة من تلك الأمم ؛ حيث راح يحصد الناس حصداً مروعاً ؛ وعلمت حكومة أجنبية بالكارثة التى أحدثها الوباء

الخبيث فعرضت على الحكومة الدينية أن توفد إلى بلادها بعثة لإنقاذها . فما كان جوابها إلا أن قالت :

«إن الطاعون رحمة من الله ورضوان ، ونحن لا نكافح رحمته ورضوانه» !!

« وفى هذا البلد السعيد .. دعيت طبيبة فرنسية لمعالجة إحدى زوجات بعض حكامه ، ولما غادرته أثر مهمتها صرحت لوكالات الأنباء بأن نسبة الوفيات بين أطفال هذا البلد ٩٥ ٪ ، وأن هذا الشعب مهدد بالانقراض والاختفاء فى مدى مائة عام إن لم تتداركه حكومته المتوكلة على الله ـ والناصرة لدين الله !!

. . .

وحسبنا هذا القدر بعد أن اكتملت ملامح الصورة المفزعة التى يخوف الله بها عباده .. صورة الحكومة الدينية « موديل ١٩٥٠ » الحكومة التى تحرم تدريس الجغرافيا ، والتى ترى فى الطاعون رحمة لا تعالج ولا تكافح ، والتى تحبس نصف الشعب فى سجون تأنفها الحشرات ، والتى تجلد بالسياط عمال مطبعتها الحكومية لأنهم طالبوا مرة بزيادة أجورهم ، والتى جعلت من بلادها « سلخانات » بشرية تفوح منها زهمة الاضطهاد وريح العذاب ، والتى لا تعرف بلادها سلاماً سوى سلام الموتى وأمن القبور .

. . .

ونكاد نسمع من يقول : إن بعض الحكومات القومية المتمدينة قد تقترف من وسائل التعذيب والبغى مثل هذا الذى قصصته علينا . . وهذا حق . بيد أن الحكومة القومية التى تتبع سبيل البغى لا يمكن أن تبقى طويلا مهما حاولت تبرير بغيها وقسوتها لأن من ورائها رأياً عاماً حراً قادراً على أن يزلزلها ولو بعد حين ، ومن ورائها كذلك قوى هائلة تشريعية وقضائية، تستطيع أن تحرجها .

أما الحكومة الدينية مهما تكن مهذبة الأوضاع ، فالأمر كله لها ، لامعقب لحكمها ، ولا معارض لمشيئتها .

ومرة أخرى . . لاتحاجونا بمصر . . فإنكم لن تجدوا من طرازه سواه.

إن المعارضة فى الحكومات الديمقراطية واجب وطنى وأمانة قومية ووظيفة سياسية يقدسها الدستور ، ويقوم بخدمتها القانون ، ولزعيمها فى البرلمان من الحقوق والاعتبار مثل مالرئيس االحكومة ورئيسى البرلمان .. بينما هى فى الحكومة الدينية المستبدة جريمة وكفر — ومهما تظاهرت بمنحها شيئاً من التسامح الشكلى، فانها تضمر إزاءها تعصباً فعلياً تستمده من غرائزها ومبادئها.

ثم إن الحكومة القومية لاتجمع مساوىء الحكم الأخرى التى تتميز بها الحكومات الدينية من جهل ورجعية وجمود — لأنها تتحدد دائماً وتسير مع الحياة ومع التطور دون أن تشد بحبال من مسد إلى تقاليد قديمة جامدة .

ولطالما أسائل نفسى عن مصير مصر لو أنها قضت هذه الحقبة من حياتها فى ظل حكومة دينية . . ؟

أى انحطاط كان سيجعل منها مسخاً شائها ، وأية لعنة كانت ستحيق بها وتجعل منها نسخة أخرى من تلك الطبعات الرديئة التى رأينا بعضاً منها .

لقد كان من المستحيل أن تزدهر حياتنا الفكرية والوجدانية والعمرانية هذا الازدهار الذى يعكس علينا حيويته وجماله .

وكان من المستحيل أن ينبغ من بيننا فى الأدب والعلم والفن والصحافة أولئك الذين نبغوا فى ظلال الحكم القومى .

كان من المستحيل أن نظفر بهؤلاء الرواد الأحرار من الكتاب والمصلحين الذين لا نسمع اسم أحدهم أو نقرؤه حتى تنساب فينا أحاسيس الحرية والفضيلة

والحب ، ومشاعر المعرفة والسمو والجمال .

لم تكن المرأة ستبلغ هـذا الذى بلغته من الثقافة ، واستواء الشخصية ، والكمال . لأن المرأة فى منهج الحكومة الدينية مجرد حلس ومتاع .. ولم تكن الحرية الشخصية ستظفر بما ظفرت به من حقوق — لأن الحكومات الدينية تخافها وتضرب على شعبها ستاراً حديديا من الجاسوسية والإرغام ..

ولم تكن قافلة التقدم الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ستسير ، لأن الحكومة الدينية تمثل التقاليد التى لاتتغير ولا تسير . . وتعلم أن كل تقدم يصاحبه تدهور فى قوتها وقيمتها .. وشعارها الخالد : ليس فى الإمكان أبدع مما كان . . .

* * *

رجل الدولة . . . ورجل الدين :

ما هى وظيفة الدولة ؟

وما هى وظيفة الدين ؟

أما وظيفة الدين فقد ذكرنا من قبل أنها الهداية والإرشاد إلى أنبل ما فى الحياة من معنويات وفضائل ، وتبليغ كلمات الله التى تهدى إلى الحق والفضيلة والصلاح ، والعمل على تنقية النفس الإنسانية وتجديدها باستمرار حتى تظل مرآة صافية تنعكس عليها أخلاق الله . . الأمر الذى دعانا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله :

« تخلقوا بأخلاق الله إن ربى على صراط مستقيم » .

بقى أن نعرف وظيفة الدولة-وهى رعاية المصالح المدنية للمواطنين بتنظيم

معيشتهم ، وإقرار النظام بينهم ، وتوفير أسباب الحياة لهم من علم وصحة وحرية ، والمحافظة على سلامة الوطن من أي عدوان خارجي ، وفق أحكام وقوانين الدولة .

ومن المقابلة بين الوظيفتين ـ وظيفتي الدولة والدين ـ نستطيع أن نرى الفارق الكبير بين اختصاص رجل الدولة ، واختصاص رجل الدين ، ونرى أيضاً الفارق بين وسائل كل منهما .

فاختصاص رجل الدولة . . حماية القانون وتنفيذه لصالح الأمة . ووسيلته لذلك الإكراه والعقاب بالنسبة لكل مواطن لايحترم قانون دولته ويطيعه .

واختصاص رجل الدين . . العناية بالنفس الإنسانية كيما تظل فاضلة وثيقة الصلة ببارئها .

ووسيلته الوعظ والإرشاد والإقناع .

وإذن فهل يستطيع رجل الدين أن يصير رجل دولة ؟ أي يصبح من حقه استعمال الإكراه وإنزال العقاب ؟

لقد أجاب الله على هذا بقوله الكريم : « لا إكراه في الدين » .
وأما قوله « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله » .
فهو حكم خاص بحالة الاعتداء الخارجي المسلح بدليل قوله تعالى : « فإن قاتلوكم فاقتلوهم » . وقوله : « ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين » .

وبدليل أن الرسول لم يكن يكره أي بلد يفتحه ، على الإيمان والارتباط بأوامر دينه ودعوته إذا هم دفعوا ضريبة الحراسة .
فلو كانت القوة أو الإكراه وسيلة للإيمان والدين — لفرض عليهم إذن أن يؤمنوا وهم كارهون .

ومن هنا يصبح منطق رجل الدين غير مستساغ ولا مقبول إذا هو طالب بالدولة ليخدم الدين وينشر مبادئه .

لأن وسائل الدولة من عقاب وإكراه لايمكن أن تحمل الإنسان على عقيدة معينة . وهى كما يقول « تمستيوس » لا تنتج إلا اعترافات يحدوها الرياء والنفاق .

ولا تثبت المبادىء الدينية ، والفضائل المثلى ، إلا بالتقبل والاقتناع ، لذلك فإن الوحى لم يحاول أبداً أن يفرض حقائقه على الناس لعلمه أنه لا جدوى من هذا الإلزام إلا إذا اقتنع العقل بالموعظة الحسنة ، والمنطق الوئيد .

وقد يقول رجل الدين :

أريد أن أكون رجل دولة وحكومة ، لأحمى الدين من الملحدين الذين يشككون الناس فى حقيقته ، ويضائلون من قيمته ، وينشرون فلسفات إلحادية جاحدة .

ولكن حتى هذه الحجة لاتبرر قط أن يصير الدين دولة — وهى تحمل بين طياتها المحاولة نفسها التى قلنا إن الدين يبرأ منها وهى فرض الإيمان بالإكراه والبطش . . إذ ليس من اليسير أن تطلب إلى إنسان الإيمان بفكرة أو عقيدة وقد سلبته حق بحثها ومناقشتها واختيارها .

وإذن فقبل أن تطالبه بالإيمان ، لابد أن تمنحه من الحرية ما يمكنه من إيمان مدروس رشيد . . .

إنه لا إيمان بغير اختيار ، والعقاب لايغير العقائد ، ولا يمكن أن تفرض

الهداية بقانون ، لأن الأمر سيكون ، كما قال «جون لوك» : « إما أن يصاحب القانون عقاب للمخالفين ، أو لا يصاحبه » .

« فإن كان بغير عقاب فإنه يفقد نفوذه » .

« وإن يكن الثانى .. فمعنى هذا أن الإيمان الذى يراد فرضه عاجز عن الإقناع » .

وما دام الإلحاد فكرة باطلة مزعزعة الوجدان والبرهان . . فهل تعجزنا عن دحضها بالمنطق والقول ؛ حتى نذهب ونلتمس لأصحابها التعذيب والتنكيل ؟

هذا ، وإن الحكومة القومية تحمى عقائد الدين وتصونها ، ولكن بوسائلها المعقولة ، التى يحبذها الدين وينشرح لها قلبه ، والتى تعتمد على الإقناع ، وتحترم حرية الفكر وحرية الضمير . لطالما كان الإلحاد تهمة تسخو بها الحكومات الدينية على كل عبقرى تخشى عقله ، وتخاف ذكاءه . ومانبأ « ابن رشد » مفخرة الإسلام المفردة بغائب عنا : فقد نفاه الخليفة الأندلسى . وطارده رجال الدين مطاردة عنيفة بعد أن خلعوا عليه كل ألقاب الزندقة . وأوسمة الإلحاد !

فإذا أراد رجل الدين الصادق أن يخدم وطنه ودينه . فليبق مكانه مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .

. . .

والآن :

لعلنا نكون قد وفقنا فى عرض وجهة نظرنا هذه . . وأتحنا للآخرين فرصة التفكير فى موضوعها من جديد .

وإنا لندعو كل مواطن « قلبه جميع وروحه حر » أن يناقش هـذا البحث بفكر غير متحيز ولا متعصب ، وأن يبحث فى ضوء العقل والتجربة أمر الحكومات الدينية ، فقـد يهديه بحثه إلى كشف مساوىء أخرى لها لم نفطن إليها . . وقد يؤمن معنا أن إثمها أكبر من نفعها ، وأنها ــ وقد جعلت شعارها : اعتقد ما أعتقده وإلا قتلتك ــ تذيب شخصية الأمة ، وتشيع فى المجتمع الخوف والانحطاط ، وأنها كالنبات الطفيلى ، تستل الحياة مما تستمد منه حياتها ــ وهو الدين . . إن أجل خدمة نؤديها للدين ، هى أن نجعله قريبا من قلوب الناس ، عميقاً فى نفوسهم ، ونطعم الدولة والمجتمع بروحه الحى ، ومعنوياته الفاضلة ــ لا أن نأتى بحكومة تستغله فى تقديس ذاتها ، وتبرير أطماعها ، واستكراه الناس لجبروتها .

وأجل خدمة نقدمها للوطن ــ هى أن نعمل بكل وسيلة مستطاعة لتنمية القومية وتكتيلها ، والصعود بروحها ونظامها إلى قمة الرسوخ والاستقرار .

إن أمام الشباب الراغب فى خدمة بلاده ميادين ثلاثة تتعجل العاملين وتناديهم إليها :

الخـدمـة الدينية ـ لرفع مستوى النفس الإنسانية وإتمام نورها .

الخدمة الاجتماعية ـ لرفع مستوى الضمير الاجتماعى واحترام حيويته .

الخدمة السياسة ـ لرفع مستوى الوعى والحكم وجعل السياسة خدمة لا حرفة.

ولن نستطيع أن نجيد إحدى هذه ، إلا إذا انفردنا لها وركزنا كل حياتنا وجهودنا فيها .

أما الذين يظنون أنهم يقدرون عليها جميعاً ، فإنهم يحملونها جميعاً .

فلنختر لأنفسنا المجال الذى يتخصص فيه نشاطنا .

خدمة الدين ، عن طريق الدعوة والإرشاد .

أو خدمة المجتمع ، عن طريق الخدمة الاجتماعية بوسائلها المعروفة .

أو خدمة الدولة ، عن طريق السياسة السافرة الرشيدة التى تمثل منهجاً مرسوما . وفكرة ذات موضوع .

ومرة أخرى — اذكروا أن الدين يجب أن يظل كما أراده ربه — نبوة لاملكا ، وهداية لا حكومة ، وموعظة لاسوطا . .

وإن فصله عن السياسة ، وتحليقه فوقها ، خير عامل لبقاء نقاوته وطهره .

وإن فصله عن الدولة ينجيه من تحمل تبعات أخطائها ومظالمها ، ويحفظ له فى نفوس الناس وداً مكيناً ، وذكراً باقياً ، واستجابة وتلبية .

وقبل أن نغادر هذا الحديث ندعوكم لأن تصلوا معنا من أجل تلك الشعوب المعذبة الضريرة التى تعيش فى بلاد الجوع ، والخوف ، والحكومات الدينية .

التربية المعطلة ..

« إنما النساء شقائق الرجال .. لهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ..

(محمد رسول الله)

منذ بضعة أعوام ، كنا نتلقى العلم على شيخ فاضل — رحمه الله — وكان يفسر سورة « المزمل » ولبث فى تفسيرها زمناً طويلا . بيد أنه مكث زمناً أطول عند هذه الآية الكريمة : « وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا . إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا » .

ظل يفسرها بأسلوب وعظى فياض حتى قضى شهرين كاملين ولما يبرحها . .

وفى أثناء درس من تلك الدروس ، وقف أحد الطلاب وقال للشيخ :

— متى نغادر هذه الآيات ؟ فأجابه :

— عندما تغادر نفوسكم مكانها . .

وكانت لفتة أدبية من الشيخ لها أثرها ومغزاها . فهو لا يريد أن يغادر هذه الآيات المرجفة حتى تزحزح نفوساً عن مكانها ، وتذهب ببعض ما فى القلوب من غلظة وقساوة . .

ذكرت هذه الواقعة المؤنسة عندما أردت أن أكتب عن حقوق المرأة السياسية أو الإنسانية ، كما أحب دائماً أن أسميها ، إذ تصورت شفاها كثيرة ترتمش بهذا السؤال :

— متى تنتهون من الحديث المكرر المعاد عن المرأة وحقوقها ؟ وجوابنا عليهم :

— عند ما تنتهون أنتم إلى الاقتناع بأنها إنسان ، لها مثل ما للإنسان من حقوق ، كما أن عليها مثل الذى عليه من تبعات .

وإلى أن تبلغوا هذه النهاية السعيدة المشرقة ، وتخافتوا من ضوضاء الجدل، وصياح الاستنكار ، سيظل الذين يدركون ما فى ممارسة المرأة لحقوقها من

مغانم كثيرة ، يتحدثون ويتحدثون . . حتى يتبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . .

الآن . ولماذا ؟

وهذا حديث نسوقه فى إيجاز عن قضية المرأة المصرية وإنه لمن توفيق الله وأنعمه أننا لم نعد إذ نتحدث عنها نطالب بحقها فى الثقافة والعلم ، فقد كسبت هذا الحق لنفسها ، وبدأت الطلائع تتدفق كضياء الفجر حاملات معرفة المعاهد وثقافة الجامعات ليفدن بها بلادهن الظمأى إلى جهدهن وجهادهن .

نعم ، لم نعد بحاجة إلى المطالبة بتعليم الفتاة ونحن نبصر كل صباح تلك الرءوس المرتفعة التى تشق شوارع القاهرة ، والمدن المصرية ، كأنها شموع مضاءة . تلقى وهى فى طريقها إلى معاهد العلم نوراً كاشفا على ذكرى أولئك النفر الخالدين . . . قاسم أمين ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وهدى شعراوى ، الذين شادوا فوق كثبان الرجعية المنهارة ، نهضة المرأة النامية . بعد أن فضوا عنها قيودها ، وجعلوا لها من الجهالة والانحطاط مخرجا .

سنتحدث إذن حديثاً مباشراً عن حقوق المرأة السياسية التى يتساءل بعض الناس عن قيمتها وفائدتها لمجتمع لم يحسن رجاله حتى اليوم ممارسة حقهم الانتخابى ـ كما يتساءلون عن إمكان تحقيق ذلك ، وللمجتمع دينه وتقاليده اللذان يقفان دون تمرس هذه الحقوق . . . وكما يتساءلون ـ وما أكثر تساؤلهم ـ عن وظيفة المرأة التى خلقها الله لها ، وهى رعاية البيت وتربية الأولاد . . من سيقوم بها بعد أن تصبح هى ناخباً ، ونائبا ، ووزيراً ؟!

وهى أسئلة تدل أن أصحابها من السذاجة بحيث لاينبغى أن تكون معارضتهم واستنكارهم عائقين عن تحقيق هذا الهدف المفعم بالاحتمالات الحسنة النافعة .

* * *

عند ما ظهرت أول دفعة من المحاميات امتدت موجة استنكار من المتزمتين لم تلبث أن انحسرت عندما رأوا أن اشتغال المرأة بالمحاماة لم يجرح كبرياء التقاليد ولم يصب الفضيلة بسوء . . ومن قبل ذلك تكررت نفس التجربة عندما ظهرت الطليعة الأولى من المعلمات ، والكاتبات ، بل والطبيبات ، والممرضات . .

وإن كتاب « تطور النهضة النسائية فى مصر » للدكتورين : درية شفيق ، وإبراهيم عبده ، ليحدثنا عن المشقة والحرج اللذين صادفهما « محمد على » عندما أراد أن يفتتح مدرسة للمولدات . فاضطرته التقاليد وحمايتها أن يشترى عشراً من الجوارى السوداوات ليتعلمن فن الولادة بإشراف كلوت بك . . لأنه لم يكن مسموحاً للفتيات يومذاك أن يتعلمن حتى ألزم الثقافات لهن — وكان مصدر هذا الحرمان والتحريم ، التقاليد ، الفهم المغلوط للدين . . ولقد اخترت هذا المثال بالذات ، لأنه كاد يتكرر فى العام الماضى أى بعد مرور قرن من الزمان . . إذ قام وزير خطير ففكر وقدر . . ثم نظر . . ثم عبس وبسر . . ثم أصدر أمره بحرمان الفتاة المصرية من السفر فى بعثات علمية إلى خارج البلاد . . . مع أن ثمة من المعارف ما يمكن أن نظفر به فى بلادنا وجامعاتنا . . كما أننا لانملك حق منع فتاة من الطموح العلمى ، والتماس المعرفة من كافة مناهلها إلا إذا جاز لنا حرمان الفتى من هذا الطموح . .

يقولون حسب البنت أن تتعلم الثقافة الخفيفة ، وتجيد التدبير المنزلى ، وتطريز الثياب . . !

وهذه القناعة فى الواقع بعض أعراض مركب النقص والشعور بالدونية الذى يجعلنا من أصحاب الهمم الهزيلة الضحلة التى لا تفوز بالرغبات الكبيرة والآمال الشامخة .

وإلا فلماذا لا يخرج من بين فتياتنا أمثال مدام كورى ، وهل إذا شاءت إحداهن أن تكونها ، ثم ذهبت تتلمس وسائل ذلك عند قمم الثقافة بهاتيك البلاد ، نمنعها نحن من هذا الحق ، ونهزأ بطموحها المتسلق الجرىء ؟ ! .

هكذا حاول وزير معارف مسئول ، أن يصنع .. ومتى ؟ فى منتصف القرن العشرين !

ويحدثنا أيضاً كتاب « تطور النهضة النسائية » عن الحيلة التى لجأ إليها الأستاذ الكبير لطفى السيد (باشا) لييسر دخول الطالبات جامعة فؤاد يوم كان مديراً لها ، إذ « أصدر إلى سكرتيرية الجامعة تعليمات تقضى بتقييد اسم كل طالب يحمل شهادات تؤهله للتعليم العالى دون إشارة إلى جنس الطالب ، وبهذه الطريقة سار الأمر من غير صعوبة فى البداية ، وقبلت الفتاة بالجامعة »

« وفى سنة ١٩٣١ ظهرت صورة للدكتور طه حسين فى نادى الجامعة وعن يمينه ويساره الطلبة والطالبات جلوساً يتناولون الشاى ، وقامت القيامة لهذه الصورة البريئة التى تضرب المثل للأبوة فى وجود العميد مع الطلبة والطالبات ، واتخذت الصورة تكأة يتخلص بها الرجعيون من طه حسين ولطفى السيد » .

« وفى سنة ١٩٣٧ أبدى بعض الطلبة رغبتهم فى فصل الفتيات عن الفتيان فى الجامعة ، وأيدت الصحف هذه الرغبة .. ثم ظهرت بعض العناصر الرجعية فى عهد مجلس الوصاية وهاجمت الجامعة مهاجمة شديدة ودعى البعض إلى التظاهر فى الشوارع والهتاف بألفاظ نابية لا تليق » .

ونحن نختار هذه الأمثلة أيضا لنقابلها بما حدث منذ عام .. إذ وقف وزير الزراعة من خريجات عالمات يحملن من المؤهلات مثلما يحمل معاليه موقفاً انطوى على كثير من الانتكاس وسوء التقدير .

وفى هذه المقابلات ، ظاهرة عجيبة هى التى سقنا من أجلها هذه الشواهد والأمثلة .

فنحن نلاحظ خلالها أن التحرش بحقوق المرأة ونهضتها ، كان فى الزمن الأول يأتى من أدنى . لامن فوق .. أى من بعض طوائف الشعب من الجاهلين ، والمتزمتين ، والجامدين من رجال الدين .

أما اليوم فقد بدأ يجىء من فوق ، أى من بعض وزراء الدولة وكبار رجالها المسئولين .. !

هذه واحدة ..

والدلالة الثانية لتلك الظاهرة — هى أن حقوق المرأة المصرية لا تزال حتى اليوم ، وبعد ما أظهرته من براعة وتفوق فى كل عمل مارسته ، بغير ضوابط وقوانين تؤمنها وتحميها ، وتكفل لها وسائل الرسوخ والنماء ، رغم أنها إنسان ومواطنة ، ولو أردنا تعريفها فإننا نقول : « مواطن مصرى له حقوق وعليه واجبات » .

هذه ثانية ..

والدلالة الثالثة .. هى ذلك العبث الحكومى الذى اتخذ من قضية المرأة غرضه وميدانه ، فبجرة قلم يركلها وزير إلى الوراء مائة عام .. وذلك القانون المتناقض الذى كان يمنح بعض المصريات المنحرفات بطاقات يمارسن بها الدعارة والبغاء ثم يحرم المصريات المثقفات بطاقات يمارسن بها حقاً مشروعاً هو الاقتراع !!

والذى أباح للمرأة أن تكون محاميا ، وحرم عليها أن تكون قاضيا ، رغم إفتاء شيخ إسلام سابق هو الأستاذ الأكبر الإمام المراغى بجواز ذلك شرعاً ! ! .

والذى أباح لها أن تكون أستاذة ، وناظرة ومفتشة .. ثم استكثر عليها أن تكون نائبا ، أو شيخاً بالبرلمان .

صحيح أن هذا كله آت لاريب فيه .. وكل آت كما يقال ، قريب .. والمرأة المصرية تؤمن بذلك إيمانا حملها على الصبر ، والحكمة والاتزان .. ولكنها اليوم ، وأمام هذه النكسة التى جاءت من فوق . وأصبح محتملا أن تتكرر مرات .. لم تعد تطيق البقاء خارج الأسوار .. فى منفى المنبوذين . ولم تعد تقبل أن تقرر مصايرها فى غيبتها .

فيقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

وكذلك لم تعد تأنس للوعود الكثيرة التى تسيل عذوبة ونفاقا وتنضح رقة وكذبا ..

وصار من حقها أن تصيح فى وجوهنا قائلة :

إن صدقاً لا أحس به هو شىء يشبه الكذبا .

وما دام مصيرها ، قد أمسى معلقا بأهواء الحاكمين ، ونزعاتهم الشخصية — فقد وجب أن تشترك فوراً فى البرلمان وفى الحكم كى تساهم فى تقرير مصايرها وحماية كيانها ، وكى تعمل بما تمليه غريزة المحافظة على الذات حتى تنجو من طوفان الرجعية قبل أن يطغى على معالم كفاحها ونهضتها — فليس أحد مثلها يستطيع التعبير عن ذاتها وتفهم مطالبها ، والدفاع عن مصالحها ، وإن أفق الكثرة الغالبة منا — نحن الرجال — لأضيق من أن يتسع لإدراك قضيتها لأننا لاندرسها فى ضوء مطالبها الحيوية ، وطبيعتها الإنسانية .. بل نستعرضها دائما فى ظلام العقد النفسية ، والرواسب العصبية التى تغص بها شخصياتنا . وإن انحصار خواطرنا فى المرأة ، والتهيب من كل محاولة طيبة

تبديها ، على اكتظاظ نفوسنا بتلك العقد الخبيثة التى تلقى فى روعنا أنه لا إصلاح ولا رقى ولافضيلة إلا بإذلال المرأة وإهدار حقها ، وإكراهها على أن تعيش ضريراً لاترى النور ولا الحياة .

ولكى نقتنع بأن المرأة على حق إذا هى لم تأتمن على مصالحها سواها .. فلنستمع للسيدة «إنجى أفلاطون» تحدثنا فى كتابها القيم «نحن النساء المصريات» عن المؤامرة السافرة ضد المرأة ، وتحيز الرجل لنفسه تحيزاً ظالماً .

« . . . فالقانون المصرى يبيح الخيانة من جانب الرجل بشرط واحد فقط هو أن يخوضها فى غير بيت الزوجية — وأرض الله واسعة .. ! ولنترك القانون نفسه يتحدث ، وكأنه حين يتلو أحكامه يتوارى خجلا من أنانية الرجل الصارخة ! فالمادة « ٢٧٤ » من قانون العقوبات تقول :

— المرأة المتزوجة التى ثبت زناها يحكم عليها بالحبس مدة لاتزيد على سنتين.

وهذا شىء جميل ! فالقانون يأخذ الفاسدة من النساء أخذاً عنيفاً رادعاً وأما الفاسد من الرجال فهو الذى تعنيه المادة « ٧٧ » حين تقول :

— كل زوج زنى فى منزل الزوجية .. يجازى بالحبس مدة لاتزيد على ستة شهور .

إذن ، فالفاسد من الرجال — فى عرف القانون — ليس الزانى فى أى مكان ، وإنما من يذهب به الفجور إلى حد ارتكاب فعلته فى منزل الزوجية أليست أرض الله واسعة ؟! .

ولكن الأمر لايقف عند هذا الحد . فالفاسدة من النساء تواجهها عقوبة الحبس مدة قد تصل إلى سنتين ، أما الفاسد من الرجال — بل الفاسد الفاجر الذى ذهب به الفجور إلى ارتكاب الزنا فى منزل الزوجية — فالعقوبة التى تواجهه لاتتجاوز ستة أشهر ! .

هل نبالغ حين نقول إن القانون المصرى يبيح للرجل الزنا ، بل يشجعه ويحبذه ؟ .

ثم نقلت المؤلفة ، المناقشة التى دارت فى مجلس النواب فى أثناء عرض هذا القانون . وإنك لتشعر وأنت تتلوها بالخجل الذى شعر به بعض النواب المحترمين الذين عارضوا القانون يومذاك أمثال الأساتذة « مكرم عبيد باشا » ، وإسماعيل سليمان حمزة ، وزهير صبرى .

ولو كان ضمن أعضاء البرلمان الذى نظر هذا القانون نساء ، لاستطاعت إحداهن أن تصرخ فى وجوه النواب قائلة : إن الله — أيها السادة — عندما شرع عقوبة الزنا لم يفرق بين الرجل والمرأة فقال : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » ، وجعل عقوبة الزوجين إذا خان أحدهما أو كلاهما أمانة الزوجية واحدة . فمن أين لكم هذا التمييز الذى جعل عقاب الزوج المنحرف أياماً يقضيها فى السجن ، أو عشرة جنيهات يدفعها غرامة . . بينما تسجن الزوجة المنحرفة حولين كاملين ؟ !

وحدوا العقوبة بين الاثنين ، عسراً أو يسراً . . وإلا فأنتم ظالمون .

بل أكاد أثق بأن النساء لو شهدن عرض هذا القانون لطالبن بعقوبة أشد وأعنف من السجن سنتين ، ولكن بشرط أن يستوى فيها الرجل والمرأة .

أفليس من الإنصاف إذن أن يتاح لنصف الأمة فرصة الدفاع عن نفسه ، بل والدفاع عن الفضيلة التى أثبت الرجال أنهم بمفردهم غير قادرين على الدفاع عنها ؟

وهناك مظهر آخر لإهدار حقوق المرأة ، والتفنن فى ظلمها ، تنقله لنا أيضاً السيدة « إنجى » فى الصفحة الحادية والعشرين من كتابها :

« قدمت وصفية سيد أحمد شرف أمام محكمة الجنح بتهمة اعتدائها على زوجها

بالضرب ، وفى الجلسة سألها القاضى عن صحة التهمة المنسوبة إليها فأجابت :
— نعم لقد ضربته دفاعاً عن نفسى أمام ضربانه فقد كان مسلحاً بأداة صلبة أراد أن يحطم بها رأسى . فاضطررت إلى ضربه لأتفادى الموت على يديه .

ودافع محامى الزوجة دفاعاً طويلا ، وأقام الحجج والبراهين على ضرورة المساواة بين الزوجة والزوج فى الحقوق والواجبات . ولكن المحكمة لم تشاطره هذا الرأى ، وقضت بأن للزوج الحق فى تأديب زوجته جسمانياً وضربها ، وأدانت الزوجة فحكمت عليها بالحبس شهراً مع إيقاف التنفيذ » ا . هـ

لمثل هذا تريد المرأة أن تمارس حقها السياسى . لترفع الإصر والأغلال التى عليها ، وتقضى على الفوارق الظالمة المتعسفة التى تفصل بين شطرى الأمة من رجال ونساء . فهل هناك موانع صادقة تحول بينها وبين ما تريد ؟

• • •

منطق الطابور الرجعى :

إن رجال الطابور الرجعى يلوحون فى وجه الحقوق النسائية بالدين تارة ، وبالتقاليد تارة أخرى ، أو بهما معاً .. هذا عدا ما يسمونه بالخروج عن الوظيفة الأصلية التى خلقت المرأة لها ، وهى المنزل .

وإنه لمن سوء الحظ أن نرانا مضطرين لإنفاق الوقت فى محاجة هذه الأوهام وتفنيدها — ولكننا نخطىء كثيراً إذا استرسلنا معها فى الجدل والنقاش — لذلك نكتفى بوقفة سريعة معها .

أما موقف الدين من حقوق المرأة فإنه يتعب المعارضين ويخذلهم . ورغم أن

الإسلام بمبادئه وتطبيقاته يقف بجانبنا ، ويبارك وجهة نظرنا فى هذه القضية ، إلا أننا نستحى أن نقحمه فى مسألة نفض يده منها بعد أن بارك كل تطور فاضل رزين يطرأ عليها . لذلك نكتفى بأن ننثر على أسماعهم هذه الأسئلة :

هل تعلمون أن النساء كن يجتمعن مع الرجال فى مسجد رسول الله . . وأن مناقشة فى « موضوع جنسى » دارت علناً ذات يوم بين الفريقين ، ورسول الله مثيرها وشاهدها ؟

وهل تعلمون أن امرأة انشقت عنها الصفوف فى المساجد يوم كان عمر يقدم مشروع قانون لتخفيض المهور وتحديدها ، وبعد إبدائها رأيها فى جرأة وحصافة سحب أمير المؤمنين مشروعه وهو ينحنى إعجاباً بهذه السيدة ويقول : « أصابت امرأة وأخطأ عمر » . . ؟!

وهل تعلمون أن كارثة كادت تودى بحياة الإسلام وتزهق أنفاسه يوم الحديبية ، إبى أكثر المسلمين أن يصالحوا قريشا ويتحللوا دون أن يحجوا . لولا رأى انبثق من فكر امرأة . إذ دخل الرسول على أم سلمة غضبان أسفا فلما أشارت عليه وأنفذ مشورتها ، التأم الصدع . واستمع الجمع ، واستجابوا لأمر الرسول الذى عاد لصاحبة الرأى جذلان فرحا يقول :

« حبذا أنت يا أم سلمة ، لقد نجا المسلمون بك اليوم من عذاب أليم !! » هل تعلمون هذا وأضعافه معه ؟

إذن فلا تقولوا : إذا كانت أموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها . . فإن فى النساء من أنقذت عمر من إمضاء قانون مجحف وفيهن من حسمت فتنة عاصفة وأنجت المسلمين من عذاب أليم .

يقولون : ليس للمرأة حقوق سياسة ، لأن الله يقول : « الرجال قوامون

على النساء » . ومعنى هذا أنها دون الرجل فى البيت ، وفى المجتمع ، وفى الدولة وهو تأويل لا يقدر عليه سواهم - بيد أن معنى الآية واضح جلى ، ولا يحتمل كل هذا الالتواء والاعتساف ، فهى لا تعدو أن تكون تزكية لسلطة الرجل فى الأسرة ، وامتيازاً عائلياً يمنحه الرجل نظير ما يحمله من تبعات . بدليل قوله تعالى فى نفس الآية : « وبما أنفقوا من أموالهم . . . » .

والآية الكريمة تشبه فى الدلالة قولنا : « البرلمان قوام على الحكومة » ، فهل يدل هذا التعبير على أن الحكومة ليس لها حقوق تمارسها ؟ !

على أن هناك حجة حاسمة تغنينا عن كل حجة ودليل — هى ذلك التفويض المطلق الذى منحه الدين للناس حين قال الرسول « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

أليست هذه الحقوق السياسية من شئون الدنيا ؟

نعم - ونحن إذن أحرار فى اختيار الوضع الذى يحقق منفعتنا الاجتماعية، ولا يجعلنا بين العالم سخرية وهزوا .

. . .

ويحتجون بالتقاليد والفضيلة . . فما هذه التقاليد ، وهذه الفضيلة . ؟ ؟

لقد سبق أن ناقشنا هذا المنطق المرتجف فى عدة مقالات نشرتها مجلة « بنت النيل » مشكورة . وقلنا فى إحداها ، تحت عنوان « الرذيلة . . فى ثوبها التنكرى » !

هل صحيح أن الغيرة على الفضيلة والتقاليد ، هى التى تحفزنا إلى مقاومة التطور ، والكيد للمرأة ؟ إن يكن ذلك كذلك ، فما أحوجنا إذن إلى تحديد معنى الفضيلة والرذيلة ، ومعرفة مدى ما يجب على الأمم أن تقدمه للتقاليد من طاعة وولاء .

إن الفضائل الاجتماعية والقيم العليا التى تنتظم حولها حياة المجتمع وتناط بها وجهته . ليست التى يرتضيها فرد ، أو جماعة من الناس ، وتلائم تفكيرهم وإحساسهم . بل هى التى تنسجم مع القاعدة ، وتسمو عن الشذوذ. والقاعدة هنا : هى التطور ، والشذوذ : هو الرجعية والانتكاس . . فكل زحف إلى الوراء مهما يتسم بحسن النية وسذاجة القصد ، ليس سوى رذيلة فى ثوب تنكرى خداع ، وليس هناك إثم أشد ، ولا خطيئة أفحش من مقاومة التطور ، وإخضاع مستقبل الأمم لجهلها القديم .

ذلك أن التطور إرادة الله ، وروح منه . وما مثل الذين يحاولون مقاومته إلا كباسط كفيه إلى الشمس ليقفها عن المسير ! ! والإسلام كما ينبغى أن يفهم ، لا يناوىء التطور ولا يخاصمه . . وما نسخ القرآن بعضه بعضا ، وتبدل آياته وأحكامه إلا لفتة علوية تكشف عن جلال هذا التطور ، وضرورته للناس وللحياة .

وأما التقاليد ، فليست سوى مظهر اجتماعى للأمة . . وليست قواعد ومبادىء خالدة أبدية تخضع لها ، وتصدر عنها فى كافة عصورها وأجيالها . . وهى دائبة التغير والتبدل . وتغير الشىء معناه خروجه عن ذاته — وإذن فليس للتقاليد ذاتية أبدية تستحق الولاء والتقديس ، ونحن الذين نخلقها ونصنعها ، فلا يليق بنا أن نعبدها كما تعبد الأصنام .

أما تصورهم أن ممارسة المرأة حقوقها الدستورية سيحول بينها و بين رعاية المنزل والحياة الزوجية ، فهو تصور مضحك ـ وكأنما حسبوا أن كل امرأة من الإثنى عشر مليونا ، سوف تصبح عضو برلمان ، وأن مجرد مباشرتها هذه الحقوق

سيسلب منها خصائصها فلا تصلح بعد أن تكون زوجا لبعل ، أو أما لولد ، أو ربة لبيت !

• • •

المصفدات فى الأغلال :

لقد انطلق نساء العالم من السجن البغيض الذى كن يمشن فى ظله وظلامه حتى نساء الدول الناشئة ، والتى تدين بديننا ، وتقاليدها مثل تقاليدنا — نفضت عن نسائها ما كن يتلفعن به من أسمال الرجعية والبلى .. فهذه هى باكستان ترسل إلى أضخم منظمة عالمية ـ هيئة الأمم المتحدة ـ مندوباً ، هى السيدة « شايست أكرم الله » .

وتلك « أندونيسيا » تختار لوزارة الشئون امرأة فتبدى فى وزارتها نشاطاً فذاً وتفوقاً بعيداً .

ولقد رأيت صورة لجيش النساء فى « باكستان » وهن يتدربن فى ساحة التدريب على كل أعمال الجيش ، فرأيت منظراً يخطف الأبصار ويبهر الأنفاس.

ولم يبق فى الدنيا سوى نساء مصر ، ونظائرهن من نساء بعض الدويلات التافهة التى لاتقع عليها العين فى زحام الحياة .. محرومات من حقوقهن المشروعة .. فمنذ عام ١٨٩٣ واعترافات الدول بحقوق نسائها تتتابع وتنثال انثيالا متداركا ..

فانجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا والهند وبلجيكا واستراليا وفنلندا والنرويج والداغارك وأندونيسيا وهولندا وباكستان والتشيك والنمسا والمجر واليونان وأفريقيا الجنوبية وسوريا ..

كل هذه الدول التى لاتعيش وراء «جبل قاف» ولا فى بلاد السند والهند، بل على الكوكب الذى «يتشرف» بحملنا فوق ظهره .. قد مكنت المرأة من حقوقها كمواطن وكإنسان، ووضعت عنها أغلال التقاليد والجهالة .

ولقد آن للمصفدات فى الأغلال عندنا أن ينطلقن . وآن للرئة المعطلة أن تؤدى دورها، ليتنشق المجتمع بها أنفاس الحياة .

إن حرمان المصرية من حقها الإنسانى، حرمان للمجتمع من فرصة نابضة جديرة بأن تجعله راقياً وعظيما — كما أنه يشيع فى أنفس نصف الأمة، الشعور بالدونية، الذى يضعضع الشخصية ويبدد الكيان .

ونحن حريصون على أن تكسب المصرية حقها فوراً ليصحح بذلك وضع خاطىء مخطىء، جعل مؤتمر السفراء الذى انعقد فى لندن أخيراً يكتب عنا فى تقريره الذى نشرته صحف العالم، والذى ننقله عن جريدة الأهرام :

« .. إن شعوب الشرق الأوسط لاتزال تعيش عيشة بدائية، وإن قوى الرجعية تجذبها إلى الوراء جذبا عنيفاً .. وإنه ليس هناك سوى دولتين اثنتين فقط تسيران فى سباق التطور والرقى هما تركيا واسرائيل .. ! »

وحريصون على ذلك أيضاً — لننقذ ملايين القرويات اللاتى يضربن فى عشواء الجهل، ويعشن عيشة السوائم . ولن يستطيع إنقاذهن سوى المرأة المثقفة عند ما تتاح لها المساهمة فى تشريع القوانين وتنفيذها — فتضع منها وتنفذ مايأخذ بيد أولئك الأمهات والأخوات .

وحريصون مرة ثالثة، لأن منطق المرأة سليم ومقنع حين تسألنا فى دهشة:

كيف تجلسون على كرسى النيابة .. رجالا لايعرفون من الحروف الأبجدية

إلا الكفاف .. ويحرمون من السيدات والفتيات من يحملن أرقى الدرجات العلمية ، العالمية والمحلية ؟ ! .

حقاً إنها مهزلة ! !

ويحرصون أيضاً ، لأن المرأة إنسان ، لها فكر وإرادة وشعور . وإذن فن حقها أن تظفر بحقوق الإنسان .

وهي كذلك ، مواطن ، توزن بالمعيار الذى يوزن به كافة المواطنين . ولقد سوت الشرائع كلها ، سماوية ووضعية ، بينها وبين الرجل فى تحمل المسئوليات والتبعات ، فلماذا لا يسوى بينهما فى التمتع بالحقوق ؟

ويحرصون مرة خامسة — لأن المرأة لم تباشر عملا إلا وأتت فيه بما يشبه المعجزات .. وكفاحهن أيام الأوبئة لايزال يتألق أمام أعيننا ليذكرنا إن نسينا . فإذا وسعنا لها نطاق السعى والعمل والتجربة كان ذلك خليقا أن تنتفع البلاد بجهودها فى كل مجال وميدان .

واذكروا يا أعضاء الطابور .. الرجعى ، أن ممارسة المرأة لحقوقها لن تزيد إلا سمواً وشعوراً بالكرامة . وأن العفة التى تغارون عليها لايجرحها إلا الحرمان والتكبيل وإشعار صاحبتها أنها مجرد شىء يلعب به ويستمتع ، وليس لها بعد ذلك ما لسيدها الرجل من امتيازات وحقوق .. وهذه العفة لاتعصمها وتصونها جدران كهف أو بيت ، بل جدران النفس الباطنة ، والمناعة الذاتية الحرة التى تنشئها الثقافة والتجربة واحترام الذات ، وممارسة الحقوق التى تجعل من صاحبها كما قال « امرسون » فضيلة قانونية واجتماعية وسياسية .

• • •

آن الأوان أن نحل هذه العقدة النفسية عند كلينا — الرجل والمرأة — وتنتهى من ذلك آخر حاجز ظالم يحول بين المصريات وحقوقهن ولقد وجد بعض حضرات

أعضاء الشيوخ أن الدستور بنصوصه الحاضرة لا يمنع عن المرأة حقها، ووجدوا نصاً « جامزاً » لا يحتاج لغير التطبيق والتنفيذ . ولكن حكوماتنا لا تزال تنتظر الوقت المناسب ..

ولنتوجه بالحديث إلى نساء مصر المثقفات لنصارحهن بأن الوقت المناسب لن يجيء حتى يبدين اهتماما أكثر، وحتى يصبغن سعيهن بالإيجابية الجادة الحاسمة . . .

ومن هذه اللحظة يجب على الهيئات النسائية جميعها ، أن ترسم منهاجاً موحداً لتحضير المرأة الريفية وتمدينها .

وليس من الضروري أن نبدأ من تحت .. فتعلمهن جميعاً القراءة والكتابة بل إن البدء من فوق .. أسرع وأنفع . . فنعلمهن مالا بد منه من المبادىء الصحية ، والطرق التربوية العملية والأشغال الخفيفة التي تستطيع أن تدر من ورائها ربحا . .

هل تعلمن أيتها السيدات . . أن تسعين في المائة من أخواتكن في القرى يعالجن رمد العين بروث الدواب . . ويعالجن سعال أبنائهن بشراب البول في الصباح المبكر « على الريق » !! ويعشن في جو مسمم بالجهل والخرافات ؟

نريد أن تؤمن كل فتاة مثقفة بلغت السنة الرابعة الثانوية فما فوقها ، أن في ذمتها للوطن ، تحضير نساء عشر . . . عشر فقط ، تنقلهن من حيوانات صامتة إلى بشرية ناطقة شاعرة حية . .

والطرق لهذا كثيرة ، نقترح منها أن تتفق الجماعات النسائية كلها على إنشاء تعاون مشترك بينهن لتنفيذ منهج يدرسنه وينفقن عليه ويقمن مكتباً « للخدمة الريفية النسائية »، وتدعى كل فتاة مثقفة إلى تقييد اسمها في هذا المكتب حيث تتلقى دراسة أولية للعمل الذي ستقوم به، ونختار بعض القرى، ولنبدأ بالقريبة من القاهرة ، ونهيأ لكل قرية مجموعة من تلك الفتيات الرائدات . .

وتقسم نساء القرية إلى عشرات ، تتولى كل فتاة منهن عشراً . وتتردد المجموعة على قريتها مرتين فى الشهر على الأقل . وفى مواقيت معينة بحيث يكن على موعد مع عشراتهن . فإذا هبطت المجموعة البلد ، انطلقت كل رائدة إلى عشرتها تعلم نساءها كيف ينظمن بيوتهن ! كيف يربين أولادهن ! . كيف يسعدن بحياتهن ! . وتحدثهن عن بلادهن ماهى ، وما تاريخها ؟ وما واجب كل امرأة نحوها ؟

سيقول السذج من الناس ، ما فائدة ذلك ؟ ولسنا مستعدين أن نناقشهم فى جدوى هذا التثقيف حتى يعرفوا أولا أثر الثقافة فى تكوين الشخصية وإنمائها .

يعلمنهن التطريز والحياكة ، وحفظ الأطعمة وتجفيفها ، ويرشدنهن إلى ضرورة احتفاظ كل سيدة « بأجزخانة منزل » فى صندوق صغير تضم كل وسائل الإسعافات الأولية ، ويعرضن عليهن أشرطة السينما الثقافية المكدسة بوزارة المعارف فى اجتماع عام « بدوار العمدة » مثلا ويقمن لهن مهرجانات ويمنحنهن جوائز مشجعة مثل « وسام الأمومة » ولا يمنح هذا الوسام لمن تنجب أولاداً أكثر بل للتى تنجب أولاداً أصح وأنظف . . ويعلمنهن ضرورة ووسائل تنظيم النسل وتجويده . . وهكذا نطرد فى المشروع ونحقق كل احتمالاته النافعة المفيدة ، وحبذا لو بدىء به فى عطلة الصيف القادمة .

ولا ينبغى أن يعوق المثقفات عن هذا الواجب شىء . . ولا قيمة لأى اعتبار قد يصد عن هذا السبيل ، كائنا ما كان . .

إن خلق مجتمع متحضر نوعا ما لنساء الريف . . يقف على رأس الوسائل الضرورية اللازمة لنمونا ونهضتنا ، وفى ذمم المثقفات وضمائرهن ، يستقر هذا الدين ، منتظراً الوفاء والسداد .

وفى ذمة كل حاكم وزعيم ومواطن ، تستقر حقوق النساء جميعا وحق مصر فى أن تنتفع برتبها الثانية المعطلة . . .



« ليس المشكل النصيحة ،
وإنما المشكل قبولها » .
(الغزالى)

إلى هنا ننتهي من عرض وجهة نظرنا في الموضوعات التي طرقناها ، راجين أن نكون قد وفقنا إلى الوفاء بالعهد الذي التزمناه في مقدمة الكتاب إذا قلنا — إنه شمعة مهداة إلى المجتمع ليبصر في ضوئها ويرى .

ولقد بذل هذا الكتاب من ذات نفسه كل ما في طاقته كيما يدل على الذي هو خير . ونرجو أن يكون القارىء قد بذل هو الآخر من ذات نفسه ما يتقبل به هذه السطور البريئة الصدر من كل هوى وغرض .

لقد آمنا بوجوب مواجهة مشكلاتنا الواجهة صريحة جريئة ، والآن نهيب بكل قارىء واجه معنا بعض هذه المشاكل على صفحات الكتاب ، أن يواجهها في نفسه كذلك فإن العناية ببحث مشكلاتنا من أبعث البواعث على الرجاء .

ولقد أرسل أحد تلاميذ الإمام الغزالي بكتاب إليه ، يسأله فيه ذخراً من النصح والتوجيه . فأجابه الغزالي إلى طلبه بكتاب بدأه بهذه العبارة الواسعة : « يا بني . ليس المشكل النصيحة ، وإنما المشكل قبولها » . وإذا كان المجتمع لم يسألنا نصحاً ولا مشورة ، فلأن هذا الأمر واجب مفروض ، وعلينا أن نسارع إلى أدائه دون أن ندعى إليه ودون أن نرجو من ورائه جزاء أو شكوراً.

نعم ، ليس المشكل النصيحة ، وإنما المشكل قبولها . ولكن لماذا يعسر علينا تقبل النصح والنقد ؟ .

إني لا أكاد أعرف لذلك جوابا وتفسيراً أفضل ولا أحكم مما قاله « ج. بيوري » في كتابه « حرية الفكر » .

وهو أن الحقائق التي تأتي مغايرة لآرائنا القديمة . وأفكارنا الموروثة ، تتطلب منا أول ما تتطلب ، تغيير « عالمنا العقلي » .. وليس في مكنة كل أحد أن يستجيب لهذا الداعي وينظم من جديد عالمه العقلي القديم المقدس .. أترانا سنظل عاجزين عن مطاردة الأوهام والخرافات التي تحول بيننا وبين هذا التغيير؟

إذا لم نحاول ، فسنظل كصاحب المركبة الذى كان يسير بمركبته المجهدة فى طريق مترب ، تتعثر وتتكفأ . . حتى إذا صادف فى طريقه عابراً سأله :

— كم بقى من هذا التل ؟ فأجابه الرجل دهشاً :

— تل ؟ . . أى تل . . ؟ إن عجلتيك الخلفيتين منزوعتان . . !

هكذا نحن ، سنظل نتعثر ونتكفأ . . ظانين أن ظروفنا هى العائق ، وهى المانع ، وهى التل الذى يجهد العربة ويثير النقع الكثيف .

والحقيقة أن عجلتى مركبتنا المنزوعتين هما مصدر شكوانا وألمنا وعثارنا .

لابد لنا من عجلات جديدة . . لابد من تغيير ، وتجديد فى عالمنا العقلى ، لنعلم أنه لم يعد على ظهر الأرض ما هو مستحيل . . وأنه لا يزال فى الإمكان أبدع وأروع مما كان — وإن العقول المقفلة التى لاتتقبل الجديد . . والعقول الحائرة المترددة التى لاتريد أن تستقر وتقع على الصواب . . هذه وتلك عاجزة عن أن تؤدى للوطن ضريبة وجودها حتى تتجرد الأولى من التحصن ضد الجديد وتتحرر الأخرى من التردد والذهول .

وهذا الكتاب لا يزعم أنه يعلم كل الناس شيئاً جديداً . فبعضنا يحس هذه المشاكل ، حين يدير خواطره على شئون بلاده . وفى كل ضمير منا تململ وألم . بيد أن المشاكل لاتزال قائمة ، جاثمة ـ فلماذا ؟ . . لأن ضميرنا فى شخصياته المتعددة . . ضميرنا الاجتماعى ، وضميرنا السياسى . وضميرنا الدينى .

هذا الضمير يرهقه الجبن والهلع ، فيفر من المشكلة قانعاً بالتألم والتفجع والحزن . بل هو أحياناً يخلق المشاكل بنفسه لنفسه ، ويقتنع بعد ذلك بأنها فوق مستوى طاقته ومحاولاته .

فلنعلم أن المشكلة التى لاحل لها ، لم تخلق قبل ، ولن تخلق بعد . وأن كثيراً

من مشاكلنا نحن بالذات لا يكاد يكون لها وجود إلا فى حروف الكلمة التى نعبر عنها . ولكن الجبن - جبن الضمير ، وجبن الوازع . وجبن الإرادة - هو الذى يمسك بها أن تحل وتزول . . وما أروع هذه الحكمة الصينية ، وأكثر انطباقها علينا :

« قد يجد الجبان ستة وثلاثين حلا لمشكلته .. ولكنه لا يعجبه سوى حل واحد منها ، وهو .. الفرار ! ! » فنحن نعرف حلولا جمة لمشاكلنا ثم نخافها جميعاً ونرهبها ، ونلوذ بالفرار . حلال المشكلات ، وصانع المعجزات . . !

لا بد إذن من نبذ هذا الجبن من ضمير الفرد ، وضمير المجتمع . ضمير الدولة . والانطلاق من إسار الوهم والخوف . ليخلص كل إلى واجبه يؤديه بلا تردد ولا تهيب .

. . .

ولعلنا لم نسمع قط عن حادث تصادم جاء نتيجة الأناة والاتئاد والتمكن من مفتاح السرعة وعجلة القيادة . . . بيد أننا نسمع كثيراً عن تلك الحوادث التى يسببها الطيش السريع ، والسرعة الطائشة . . من أجل هذا ندعو إلى التشبث بالأناة والتؤدة ولكن أية أناة هذه التى ندعو إليها ؟

إنها ليست المرادفة للموت أو الركود والنوم العميق . بل هى التى تزامل التطور المستمر ، والعمل المستمر ، والسعى المستمر إلى أحسن ما فى الحياة من فرص ، ونظم ، وإمكانيات .

وإن الأناة بهذا المعنى لهى الباب الذى تنفذ منه إلى المجتمع قوى الحياة الشابة المتزنة الجدية ، أما ذلك النوع الآخر منها ، الذى عودتنا إياه حكوماتنا ، فهو نوع ردىء لا يفضى إلا أحد شيئين : الموت ، أو الانفجار .

. . .

والآن ، توشك الرحلة التي بدأناها معاً ، أيها القارىء ، أن تنتهي . ويذهب كل منا إلى سبيله .

وإني لأرجو أن نكون قد قضينا في كتابة هذا الكتاب من جانبي .. في قراءته من جانبك - وقتاً طيباً مباركا فيه .

ولكن قبل أن نمضي .. قف لنذكر معاً هذه الحقائق :

◆ لابد من تغيير « عالمنا العقلي » وتهذيبه ، وترويضه حتى يسمح لكل فكر جديد أن يمر به ويجتازه .

◆ لابد من نبذ الجبن وقهر المخاوف ، وشحن ضمير الفرد ، والمجتمع ، والدولة بالشجاعة القادرة على مواجهة المشكلات وفضها .

◆ لابد من التسامح ، والحنان ، والأناة - فهذه الثلاثة ، أمضى سلاح نتسلح به في رحلتنا إلى المجد ، فلنعمل بالحكمة القائلة : « ليتسامح بعضنا مع بعض ، وليؤازر بعضنا بعضاً فنحن جميعاً نخوض معركة واحدة - هي الحياة » .

◆ لابد من البدء الناجز بالعمل حتى ولو فشلنا ، فكما قيل : « الذي يعمل ويفشل ، خير من الذي لا يعمل شيئاً وينجح » . ولا بد من أن نخطو الخطوة الأولى في طريق الواجب المفروض على كل من الفرد والجماعة والدولة .. ذاكرين ذلك المثل الصيني : « إن رحلة طولها ألف ميل - تبدأ بخطوة واحدة » .

• • •

وبعد .. فلست أعرف ، وأنت تتأهب لطي هذا الكتاب ، ما رأيك فيما قرأت

أما نحن .. فقد قلنا كلمات .. نحسبها مجدية .

قلناها .. والحاجة إليها أعظم ما تكون .

مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر باشا (باب الخلق سابقا)
١٢ شارع الحمداوى ت ٧٩١٧٩ - ٨٠٧٨٠

للمؤلف

(١) من هنا نبدأ .

(٢) مواطنون لا رعايا

(٣) الديمقراطية . . أبدا .

(٤) الدين فى خدمة الشعب

(٥) هذا . . أو الطوفان

(٦) لكى لا تحرثوا فى البحر

(٧) لله والحرية « جزء أول »

(٨) لله والحرية « جزء ثان »

(٩) لله والحرية « جزء ثالث »

(١٠) معا على الطريق ، محمد والمسيح

(١١) إنه الإنسان

(١٢) أفكار فى القمة

(١٣) نحن البشر .

(١٤) إنسانيات محمد .

(١٥) الوصايا العشر .

(١٦) بين يدى عمر

(١٧) فى البدء كان الكلمة

(١٨) كما تحدث القرآن

(١٩) وجاء أبو بكر

(٢٠) مع الضمير الانسانى فى مسيره ومصيره .